نيقولاي أوستروفسكي

كيف سقينا الفولاذ

ترجمة: غائب طعمة فرمان

الجزء الثاني

رواية



نيقولاي أوستروفسكي

كيف سقينا الفولاذ

الجزء الثاني

ترجمة: غائب طعمة فرمان

كيف سقينا الفولاذ

الجزء الثاني

رواية المدى

المؤلف: نيقولاي أوستروفسكي
عنوان الكتاب: كيف سقينا الفولاذ
الجزء الثاني
المترجم: غائب طعمة فرمان
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣
جميع الحقوق محفوظة

Author: Nikolai Ostrovsky
Title: How the Steel Was Tempered
Part 2
Translator: Ghaeb Tohme Faraman
Al-Mada: P.C.
First Edition: 2013
Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت-الحمراء-شارع ليون-بناية منصور-الطابق الأول-هاتف: ٧٥٢٦١٦-١-٠٠٩٦١ تلفاكس: ٧٥٢٧١٧-١-٠٠٩٦١
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-176-9

الفصل الأول

منتصف الليل ـ وعربة الترام الأخيرة عادت منذ وقت طويل إلى كراجها مجرجرة هيكلها المحطم. ألقى القمر ضوءه الميت على إفريز النافذة، وتمددت أشعته على السرير مثل غطاء مزرورق تاركة بقية الغرفة في شبه ظلام. وعلى طاولة في زاوية من الغرفة دائرة من الضوء رسمتها ظليلة مصباح المكتب.

انكبت ريتا على كراسة سميكة تحتوي على يومياتها.

خطت شباة قلمها المدببة:

"٢٤ أيار

أعيد المحاولة مرة أخرى لأدون انطباعاتي التي حدث انقطاع فيها مرة أخرى. مضى شهر ونصف الشهر من دون أن أكتب كلمة واحدة. وعليَّ أن أقنع بهذا الانقطاع.

من أين أجد الوقت لتدوين المذكرات؟ الآن ليل، وأنا أكتب والنعاس يراودني. الرفيق سيغال سيسافر للعمل في اللجنة المركزية. وهذا الخبر أحزننا جميعاً. فإن رفيقنا لازار الكسندروفيتش سيغال شخصية رائعة. الآن فقط أدرك أي ثروة كانت لنا جميعاً في صداقتنا معه. بالطبع. ستنفرط حلقة المادية الديالكتيكية برحيل سيغال. بالأمس كنا عنده إلى هزيع متأخر من

الليل ندقق منجزات "تلامذتنا". وقد حضر أكيم سكرتير اللجنة الكومسومولية في الولاية، وتوفتا المقيت رئيس قسم التسجيل. أنا لا أطيق هذا العلامة الفهّامة! فرح سيغال لأن تلميذه كورتشاغين أفحم توفتا في تاريخ الحزب. حقاً، إن ذينك الشهرين لم يذهبا عبثاً. ولا أسف على الجهود المبذولة إذا كانت تعطي مثل هذه النتائج. وتدور إشاعات على أن جوخراي سيُنقل إلى الشعبة الخاصة التابعة للمنطقة العسكرية. ولا أعرف السبب.

نقل إليّ لازار الكسندروفيتش تلميذه قائلاً:

ـ أتمي ما بدأته، ولا تتوقفي عند منتصف الطريق. بوسع أحدكما أن يتعلم من الآخر يا ريتا. لم يتخلص هذا الفتى من العفوية تخلصاً تاماً. إنه يعيش بالعواطف التي تعصف في نفسه، فتجرفه دوامتها. وبقدر معرفتي بك، يا ريتا، أعتقد أنك ستكونين أصلح مرشد له، أتمنى لك التوفيق. ولا تنسي أن تراسليني إلى موسكو ـ قال لي ذلك عند الوداع.

اليوم أرسلوا من اللجنة المركزية سكرتيراً جديداً للجنة سولومنسكي المنطقية يدعى جاركي. وأنا أعرفه من الجيش.

غداً سيأتي ديمتري بكورتشاغين. لأحاول وصف دوبافا. إنه متوسط القامة ضليع مفتول العضل، انضم إلى الكومسومول في عام ١٩١٨ وإلى الحزب في عام ١٩٢٠، وهو أحد الثلاثة الذين فصلوا من لجنة كومسومول الولاية لانتسابه إلى "المعارضة العمالية". لم يكن تثقيفه بالأمر اليسير. فقد كان في كل يوم يقطع البرنامج، وينهال عليّ بالأسئلة، مبتعداً عن الموضوع. وكانت بين أولغا يورينيفا، تلميذتي الثانية، وبين دوبافا

مشاحنات متكررة.

في الأمسية الأولى صعّد فيها نظره، وقال:

ـ لست كاملة الهندام، يا شيخة، أنت بحاجة إلى بنطلون من جلد، ومهمازين، وقبعة بوديونية، وحسام، وإلا فأنت لا بالعير ولا بالنفير.

ولم تسكت أولغا عنه، وكالت له الصاع بالصاع واضطررت إلى التدخل. يبدو أن دوبافا صديق كورتشاغين. حسناً. يكفي هذا المقدار من الكتابة اليوم، حان وقت النوم".

تلظت الأرض بالحر القائظ. وحميت القضبان الحديدية على جسر العبور فوق المحطة حتى لتلسع عند لمسها. وصعد إلى الجسر ناس متهافتون أعياء من وقدة الحر. لم يكن هؤلاء مسافرين، بل أغلبهم من سكان حي السكك ذاهبون عبر الجسر إلى البلدة.

شاهد بافل ريتا وهو لا يزال على الجسر. وصلت إلى القطار قبله، وراحت تنظر إلى النازلين من الجسر.

انحرف كورتشاغين عن ريتا وتوقف على بعد ثلاث خطوات منها، فلم تلحظه، وحدق فيها بفضول غريب. كانت ترتدي بلوزة مخططة، وتنورة زرقاء غير طويلة من قماش بسيط، وقد ألقت على كتفها سترة من الجلد الناعم. كان شعرها النافر يكلل وجهها الملوح بالشمس.

هذه أول مرة يطوق فيها كورتشاغين صديقته ومعلمته بمثل هذه النظرات، هذه أول مرة يخطر في رأسه أن ريتا ليست فقط عضو مكتب لجنة كومسومول الولاية بل.... وأمسك نفسه متلبساً

بهذه الأفكار "الأثيمة" وغضب، ونادى ريتا:

ـ أنا أنظر إليك منذ ساعة، وأنت لا ترينني. حان وقت الذهاب، والقطار واقف.

وسارا نحو المدخل الخاص بالمستخدمين إلى رصيف القطار. بالأمس عيّنت لجنة كومسومول الولاية ريتا مندوبة لها في أحد المؤتمرات المنطقية.

وعيّن كورتشاغين مساعداً لها. واليوم عليهما أن يركبا القطار، وتلك مهمة ليست سهلة مطلقاً. فقد كانت المحطة في ساعات خروج القطارات النادرة تحت عهدة اللجنة الخماسية المطلقة الصلاحية الموكلة بتنظيم السماح في ركوب القطارات، وبدون إذن منها لم يكن لأحد الحق في الدخول إلى رصيف المحطة. كانت كل المداخل والمخارج تحت حراسة رجال اللجنة. وكان القطار المكتظ بالناس لا يستطيع أن يستوعب غير عشر الساعين للسفر. ولم يرد أحد من الناس أن يبقى، ويقضي أياماً في انتظار قدوم قطار عابر. فكان الآف الناس يتقحمون أبواب الدخول محاولين الانسلال إلى العربات الخُضْر. وفي تلك الأيام كانت المحطة في حصار حقيقي، وأحياناً يصل الأمر إلى حد العراك بالأيدي.

حاول بافل وريتا عبثاً الدخول إلى الرصيف.

كان بافل يعرف جميع مداخل المحطة ومخارجها، فقاد رفيقته عبر حجرة الأمتعة. وانسلا بصعوبة إلى العربة رقم ٤. كان رجل من اللجنة الاستثنائية متصبب عرقاً يقف عند باب العربة مانعاً جمهوراً غفيراً من الناس، مكرراً القول للمرة المائة:

ـ قلت لكم العربة مزدحمة بأكثر من قابليتها، وحسب الأوامر لا أسمح لأحد بالصعود على دافعة الصدام أو على السطح.

تدافع عليه ناس غضاب مقربين من أنفه تذاكر لجنة السفر لركوب العربة الرابعة. وكان أمام كل عربة صياح وسباب، وتدافع. وأيقن بافل أن من المستحيل الصعود إلى هذا القطار بالطريقة الاعتيادية، ولكن السفر ضروري، وإلا فسيتأخران إلى الاشتراك في المؤتمر.

تنحى بريتا جانباً، وأخبرها بما نوى أن يفعله:

ينسل إلى عربة، ويفتح نافذة، ويسحب ريتا منها. وإلا فلا مخرج آخر.

ـ أعطيني سترتك الجلدية، فهي أحسن من أي هوية.

وأخذ السترة الجلدية منها، ولبسها، ووضع مسدسه في جيب السترة، وتعمد أن يكون مقبضه وشريطه ظاهرين من جيبه. وترك حقيبة المتاع عند قدمي ريتا، واتجه إلى العربة. دفع المسافرين من دون تقيد بكلفة، وأمسك عارضة الدرابزين بيده.

ـ هاي، يا رفيق، إلى أين؟

رمق بافل الرجل المتين بنظرة جانبية وقال بلهجة لا تترك شكاً في صلاحيته:

ـ أنا من الشعبة الخاصة. سندقق الآن في ما إذا كان جميع الركاب يملكون تذاكر ركوب من اللجنة.

نظر الرجل إلى جيب بافل، ومسح العرق من جبينه، وقال بلهجة لا مبالاة:

ـ دقق إذاً، إذا استطعت أن تدخل.

عمل بافل بيديه، ومنكبيه، وقبضتيه أحياناً، متسلقاً على أكتاف الناس، متشبثاً بالأيدي، ماسكاً بالمصاطب العليا، متحملاً وابل الشتائم، حتى وصل إلى منتصف العربة.

ـ إلى أي شيطان ذاهب، عليك اللعنة مرتين! ـ صرخت به امرأة بدينة، حين مست قدمه ركبتها وهو ينزل من فوق. وحاولت هذه العمة أن تحشر جسمها الجسيم في حافة المصطبة السفلى، ضاغطة بين رجليها صفيحة زيت. وكانت مثل هذه الصفائح، والصناديق، والزكائب، والسلال موضوعة على كل المصاطب. وكان التنفس في العربة عسيراً.

رد بافل على سباب المرأة بسؤال:

ـ أين تذكرتك، أيتها المواطنة؟..

ردت غاضبة على هذا المراقب غير المدعو:

ـ ماذا؟

تدلى رأس "متلصص" من المصطبة العليا، وقال بصوت ناشز:

ـ فاسكا، ماذا يريد هذا البهلول؟ أعطه تذكرة مرور إلى السماء.

وظهر فوق كورتشاغين مباشرة الشخص الذي سمى فاسكا، كما يبدو، وهو فتى معافى ذو صدر مشعر حملق في بافل بعيني ثور.

ـ لماذا تضايق المرأة؟ ما لك والتذكرة؟

تدلت من مصطبة جانبية ثماني أرجل لشبان يطوق أحدهم

الآخر بذراعه، وهم يقضمون حب عباد الشمس بكثرة. هؤلاء، كما يظهر، عصبة من المضاربين في الأغذية، ولم يكن لبافل الوقت لينشغل بهم. كان عليه أن يُركب ريتا العربة.

ـ لمن هذا الصندوق؟ ـ سأل بافل رجلاً كهلاً في بزة السكك الحديدية، مشيراً إلى صندوق خشبي عند النافذة.

ـ لهذه البنت ـ وأشار إلى ساقين ممتلئتين في جوربين بنيين.

كان عليه أن يفتح النافذة، والصندوق يعيقه. ولم يكن هناك موضع فارغ ينقل إليه، حمل بافل الصندوق في يديه، وأعطاه لصاحبته الجالسة على المصطبة العليا.

ـ أمسكيه دقيقة، يا مواطنة، ريثما أفتح النافذة.

صرخت هذه الفتاة الفطساء، حين وضع الصندوق على ركبتها:

ـ لا تمس أمتعة غيرك!

ـ يا موتكا، ما هذه الضوضاء التي يثيرها هذا المواطن؟ ـ استغاثت الفتاة بجارها. فضرب هذا ظهر بافل بقدمه المنتعلة بصندل من دون أن يتحرك من مكانه.

ـ هاي، اقرع، طِرْ من هنا قبل أن أعوج لك أنفك.

تحمل بافل الضربة صامتاً وهو يزمّ شفته، وجاهد حتى فتح النافذة. طلب إلى مستخدم السكك الحديدية:

ـ تحرك يا رفيق، قليلاً.

دفع صفيحة، وأفرغ موضعاً، وانضغط على النافذة، كانت ريتا عند النافذة فأسرعت في رفع الحقيبة إليه، ألقى بافل الحقيبة على ركبة المرأة صاحبة الصفيحة، وأحنى جسمه خارج النافذة،

وأمسك بيدي ريتا، وجرها نحوه. وقبل أن يلاحظ الجندي الحارس هذا الخرق للقواعد، ويمنعه كانت ريتا في داخل العربة ولم يبق لهذا الجندي الخامل إلا أن يشتم، ويبتعد عن النافذة. قابل أفراد جماعة المضاربين جميعاً صعود ريتا إلى العربة بضوضاء شديدة حتى أن ريتا ارتبكت وقلقت. لم يكن لها موضع تقف فيه فوقفت على حافة المصطبة السفلى، ممسكة بعارضة المصطبة العليا، وانهالت الشتائم من جميع الجهات. ومن الأعلى جأر الصوت الناشز:

ـ حقارة، انسل بنفسه، وجرّ فتاة، ووراءه أيضاً.

وصاح شخص يختفي في الأعلى:

ـ موتكا، أعطه لكمة بين عينيه!

حاولت الفتاة أن تضع الصندوق الخشبي على رأس كورتشاغين. كانت الوجوه حوله غريبة صلفة. وتأسف بافل لوجود ريتا في هذا المكان، ولكن يجب أن يسوي الأمر بشكل من الأشكال.

ـ يا مواطن، ارفع أكياسك من الممر، وأفسح مجالاً للرفيقة ـ خاطب بافل الشخص الذي دعا موتكا. إلا أنه تلقى في الجواب عبارة لاذعة جعلته يتميز غيظاً. وبدأ العرق فوق حاجبه الأيمن يدق بشدة وألم.

ـ انتظر، يا وغد، سأحاسبك على هذا ـ قال ذلك للشقي لا يكاد يتمالك نفسه، ولكنه تلقى ضربة قدم على رأسه من فوق.

ترددت أصوات من جميع الجهات:

ـ وجه له ضربة أخرى، يا فاسكا.

كل ما كبته بافل في نفسه مدة طويلة انفجر بغتة، واكتسبت حركاته سرعة وحدة، كشأنه كلما شعر بإساءة.

ـ أتظنون، أيها المضاربون، أنكم قادرون على الاستهزاء بالناس؟ ـ ورفع جسمه بيديه، وكأن نابضاً رفعه من الأرض، وألقى بنفسه على المصطبة الثانية، ولكم موتكا على وجهه الكريه لكمة قوية أطاحت به في الممر على رأس أحد الجالسين.

صرخ كورتشاغين كالمجنون، ملوحاً بمسدسه أمام أنوف الأربعة:

ـ انزلوا من المصاطب، يا أراذل، وإلا سأرميكم كالكلاب!

اتخذت المسألة اتجاهاً مختلفاً تماماً، راقبت ريتا الجميع بانتباه، مستعدة لإطلاق الرصاص على كل من يحاول مهاجمة بافل. أخليت المصطبة العليا بسرعة. وأسرعت العصبة بإخلاء المكان، والانتقال إلى المقصورة المجاورة.

أجلس بافل ريتا على المصطبة الفارغة، وهمس لها:

ـ اجلسي أنت هنا، وأنا ذاهب لأحاسب هؤلاء.

أوقفته ريتا:

ـ هل ستعود إلى العراك من جديد؟

قال لها مهدئاً:

ـ لا، سأعود حالاً.

فتحت النافذة ثانية، ونزل بافل منها إلى الرصيف، وبعد دقائق كان أمام مكتب بورميستر رئيس اللجنة الاستثنائية لخدمات النقل في المقاطعة، وهو رئيس بافل السابق، استمع إليه

بورميستر، وأصدر أمراً بتفريغ العربة كلها، وفحص هويات جميع ركابها، وقال بورميستر:

ـ لقد قلت إن القطارات تأتي إلى رصيف الركوب محملة بالمضاربين.

أفرغت العربة مفرزة من عشرة رجال. وساعد بافل، على عادته القديمة، في فحص القطار كله.

إذ إنه عند خروجه من اللجنة الاستثنائية لم يقطع صلته بأصدقائه، وبصفته سكرتيراً للكومسومول أرسل عدداً غير قليل من أحسن الكومسومولين للعمل في اللجنة الاستثنائية لخدمات النقل في المقاطعة. بعد نهاية الفحص عاد بافل إلى ريتا. وقد امتلأت العربة بمسافرين جدد: موفدين بمهمات. ورجال من الجيش الأحمر.

ولم يبق إلا مكان واحد لريتا في زاوية في الرف الثالث، أما بقية الرفوف فقد شُغلت بأضابير الجرائد. قالت ريتا:

ـ لا بأس. سنجلس على نحو ما.

تحرك القطار.

ولمحا وراء النافذة، والقطار متحرك، المرأة البدينة جالسة على تل زكائبها. وبلغ سمعيهما صياحها:

ـ مانكا، أين صفيحتي؟

جلست ريتا وبافل في مكان ضيق مفصولين عن جيرانهما بأضابير الجرائد، يمضغان الخبز والتفاح، متذكرين بمرح الحادث غير المرح البتة الذي وقع لهما قبل حين.

زحف القطار ببطء، وتناطحت العربات المتراخية المكتظة

بحمولتها، صارخة مقرقعة، ودخل المساء إلى العربة بزرقته الكثيفة، ووراءه أسبل الليل نقاب ظلمته على النوافذ المفتوحة.

هوّمت ريتا تعباً، وتوسدت الحقيبة، وجلس بافل على حافة المصطبة مدلياً ساقيه، مدخناً. إنه تعب أيضاً، ولكن لا موضع للاستلقاء، كانت طراوة الليل تتسرب من النوافذ، وأرتج القطار، وأفاقت ريتا، ولاحظت شعلة سيكارة بافل، ففكرت مع نفسها "بوسعه أن يجلس هكذا في مكانه حتى الصباح. واضح أنه لا يريد أن يضايقني".

قالت ريتا مازحة:

- يا رفيق كورتشاغين! تخل عن المواضعات البرجوازية وتمدد، واسترح.

استلقى بافل إلى جانبها، ومدد ساقيه الخدرتين بمتعة.

- غداً سيكون عندنا عمل حتى الأعناق، فنم يا متعارك - وطوقت صديقها بذراعها مطمئنة، وأحس بشعرها يلامس خده.

كانت ريتا عنده طهراً لا يُمس. كانت صديقته، ورفيقته في الهدف، ومرشدته السياسية، ومع ذلك فهي امرأة - وقد شعر بذلك لأول مرة عند الجسر ولهذا السبب يقلقه كثيراً تطويقها له. أحس بافل بأنفاسها العميقة المنتظمة، وشفتاها على مقربة دانية منه. ومن هذا القرب راودته رغبة لا تقهر في أن يعثر على تينك الشفتين، وكبت هذه الرغبة بجهد من إرادته.

وكأن ريتا حدست مشاعره، وابتسمت في الظلمة، لقد ذاقت في الماضي فرحة الهوى، وفظاعة الفقد، محضت حبها لرفيقين من البلاشفة اختطفهما منها رصاص الحرس الأبيض،

أحدهما عملاق باسل آمر سرية، والآخر فتى له عينان صافيتان.

بعد فترة وجيزة هدهدته تكتكة عجلات القطار على السكة، ولم يستيقظ إلا في الصباح على زئير القاطرة.

أخذت ريتا تعود إلى غرفتها في وقت متأخر، وظهرت بضع يوميات قصيرة في الكراسة التي يندر أن تفتح:

"١١ آب

انتهى مؤتمر الولاية، سافر اكيم ميخائيلو وآخرون إلى مؤتمر عموم أوكرانيا في خاركوفز، ترك الجميع العمل المكتبي على عاتقي. رشح دوبافا وبافل للعمل في لجنة الولاية. منذ تعيين دميتري سكرتيراً للجنة الكومسومول لمنطقة بيتشرسك كفّ عن حضور الدروس المسائية. إنه مغمور بالعمل. لا يزال بافل يحاول أن يدرس، ولكن من دون توفيق كبير، إما لأنني لا أجد وقتاً للدراسة، وإما لأنه يُبعث في مهمة من المهمات. والكومسموليون دائماً في حالة تعبئة بسبب حدة الموقف في السكك الحديدية. زارني جاركي يوم أمس، وكان غير راضٍ قائلاً إننا أخذنا منهم الفتيان الذين هو بحاجة ماسة إليهم.

٢٣ آب

اليوم، بينما كنت سائرة في الممشى رأيت يانكراتوف وكورتشاغين، وشخصاً آخر لا أعرفه واقفين عند باب الإدارة، وسمعت بافل يقول "أولئك الجالسون هناك يستحقون الرمي. يقول لا يحق لكم التدخل في ما نصدر من أوامر. لجنة وقود القطارات هي صاحبة الأمر والنهي هنا، لا أي كومسومول". أبو بوزا!... هناك عشش الطفيليون!..." وسمعت شتيمة مقذعة. ولما

وقع بصر يانكراتوف عليّ لكزّ بافل. فالتفت هذا، ولما رآني امتقع لونه، وانصرف في الحال، من دون أن يرفع بصره إلى عيني. إنه سيغيب الآن عني مدة طويلة، فهو يعرف أنني لا أتساهل في هُجْر القول.

٢٧ آب

عقد المكتب جلسة مغلقة. الوضع يتعقد. لا أستطيع بعد أن أسجل كل شيء بالتفصيل لأن ذلك لا يجوز الآن، عاد اكيم من مركز المقاطعة متجهماً. بالأمس أخرج قطار تموين آخر عن الخط. يبدو لي أنني سأترك مذكراتي، فإن كل شيء فيها غير مترابط. أنا أنتظر كورتشاغين. رأيته، قال لي إنه وجاركي ينظمان كومونة من خمسة أشخاص".

في النهار طلب بافل إلى التلفون بينما كان يعمل في الورشة، وكانت المتكلمة ريتا. قالت عندها وقت فراغ في المساء، وفي وسعهما أن يتما الموضوع الذي بدأاه: أسباب انهيار كومونة باريس.

في المساء رفع بافل بصره إلى فوق وهو يقترب من مدخل بيت ريتا. كانت نافذتها مضاءة، صعد السلم راكضاً كعادته، ودق الباب بجمع يده ودخل من دون أن ينتظر جواباً.

رأى رجلاً في لباس عسكري مستلقياً على السرير الذي لم يكن لأحد الحق حتى في الجلوس عليه. وكان على الطاولة مسدس، وحقيبة ظهرية، وقبعة عليها نجمة وريتا جالسة إلى جانبه تطوقه بقوة.

كانا يتحدثان حديثاً.... أدارت ريتا لبافل وجهها المبتهج.

أطلق العسكري ذراعيه عنها، ووقف.

قالت ريتا وهي تسلم على بافل:

ـ تعارفا. هذا...

ـ دافيد استينوفيتش ـ أكمل الرجل جملتها ببساطة وصافح كورتشاغين بقوة. قالت ريتا ضاحكة:

ـ هبط فجأة هبوط الثلج على الرأس.

صافحه كورتشاغين ببرود. وقدحت عيناه كدراً صامتاً. لاحظ بافل على ياقة الرجل مربعات أربعة.

إنه آمر مفرزة إذاً.

همت ريتا بالكلام، إلا أن كورتشاغين قاطعها:

ـ مررت عليك لأخبرك بأنني اليوم مشغول بتفريغ الحطب في المرفأ. فلا تنتظريني... ثم عندك ضيف. أنا ذاهب، فالأولاد ينتظروني في الأسفل.

واختفى بافل وراء الباب فجأة مثلما جاء. تردد وقع خطواته السريعة على السلم. وصفق الباب في الأسفل بقوة. وساد سكون.

قالت ريتا ترد بتخمين على نظرة دافيد المتسائلة:

ـ متضايق من شيء ما.

.... في الأسفل زفر قطار زفرة عميقة وهو تحت الجسر، نافثاً من صدره الجبار شؤبوباً من شرارات ذهبية ارتفعت في رقص غريب، وانطفأت في الدخان.

اتكأ بافل على الدرابزين، وحدق في الأضواء الملونة الرجراجة التي ترسلها مصابيح الإشارات على محولات الخطوط

الحديدية، وقلص عينيه.

"لا أفهم أبداً، يا رفيق كورتشاغين، لماذا آلمك كثيراً أن تكتشف أن لريتا زوجاً؟ فهل قالت مرة أنها غير متزوجة؟ وحتى إذا قالت فأي خير في ذلك؟ لماذا حز في نفسك هذا فجأة؟ ألم تكن تحسب، أيها الرفيق العزيز، إن لا وجود لشيء غير الصداقة المثالية؟... كيف خطر هذا في ظنك؟ ها؟ ـ سأل كورتشاغين نفسه بسخرية ـ ماذا لو أنه ليس زوجها؟ قد يكون دافيد أوستينوفيتش أخاها، أو عمها... لهذا من العبث أن تغضب على الرجل يا عجيب... يبدو أنك، يا خنزير، لا تختلف عن أي ريفي غر. بوسعك أن تعرف هل هو أخوها. ولنفرض أنه أخ لها أو عم، فماذا ستقول لها عن مشاعرك؟ لا، كف عن الذهاب، إليها بعد الآن".

وقطع أفكاره صفير صافرة.

"الوقت متأخر، وأوان العودة إلى البيت قد حان، كفاك هذراً".

.... في سلومينكا (الاسم الذي أطلق على المنطقة التي يسكن فيها عمال السكك) أنشأ الشبان الخمسة كومونة صغيرة. هؤلاء هم جاركي، وبافل، والتشيكي الأشقر المرح كلافيتشيك، وأوكونيف نيكولاي سكرتير الكومسومول في مستودع القطارات، وستيبا ارتيوخين مصلح المراجل في زمن غير بعيد والعامل في اللجنة الاستثنائية للسكك الحديدية الآن.

حصلوا على غرفة، وقضوا ثلاثة أيام بعد ساعات العمل يطلونها، ويكسونها بالكلس، وينظفونها، وراحوا وجاءوا

يحملون الجرادل في عجالة حتى ظن الجيران أنهم يطفئون حريقاً. وصنعوا تخوتاً، وأفرشة من زكائب حشيت في المنتزه بأوراق الاسفندان. وفي اليوم الرابع كانت الغرفة المزينة بصورة بيتروفسكي، وخارطة كبيرة، ناصعة البياض قشيبة.

وضع بين النافذتين رف امتلأ بالكتب. وبرشم صندوقان من الكارتون، وجُعلا مقعدين، وجعل من صندوق أكبر صوان ملابس، وفي وسط الغرفة منضدة بليارد كبيرة بلا قماشة حملوها على أكتافهم من المستودع، وتستعمل في النهار مائدة، وفي الليل سريراً لكلافيتشيك. وقد جلبوا إلى هنا أمتعتهم، وسجل كلافيتشيك الحسن التدبير كل ممتلكات الكومونة، وأراد أن يعلق قائمة الجرد على الحائط، إلا أنه عدل عن ذلك بعد احتجاج إجماعي، وصار كل ما في الغرفة ملكية مشاعة، وقسمت الأجور والجرايات والإرساليات العارضة بين الكومونيين بالتساوي. وبقيت الأسلحة وحدها ملكية خاصة. وقرر الكومونيون بالإجماع أن عضو الكومونة المخالف لقانون إلغاء الملكية، والمتحايل على ثقة رفاقه يفصل من الكومونة، وأصر أوكونيف وكلافيتشيك على إضافة "ويخرج من الغرفة".

حضر افتتاح الكومونة جميع نشطاء كومسومول المنطقة. استعير سماور من البيت المجاور، واستهلك في حفلة الشاي كل احتياطي السكرين. وبعد الشاي أنشد الحاضرون بصوت جماعي:

العالم الشاسع غارق بالدموع.

وحياتنا كلها كدح مضنٍ

ولكن يوم الخلاص سيأتي حتماً...

وكانت تاليا لاغوتينا العاملة في معمل التبغ تقود المنشدين، وقد مال منديلها القرمزي جانباً. كانت لها عينا صبي لعوب، لم ينعم أحد بسبر غورهما. وضحكتها كالعدوى وهي تطل على العالم من علياء ربيعها الثامن عشر. إن يدها الآن تحلق إلى فوق، ويرن النشيد كالنفير:

انطلقي يا أغنيتنا إلى البعيد،

وشيعي في كل مكان ـ

رايتنا خفاقة فوق العالم

تلتهب، وتشع ساطعة

أم دمنا يلتهب كالنار...

وانفض الحفل في وقت متأخر، واستيقظت الشوارع الصامتة على تنادي الأصوات.

مدّ جاركي يده إلى التلفون.

صاح على الكومسموليين المتعالية أصواتهم في غرفة سكرتير الكومسومول:

ـ خفضوا أصواتكم يا أولاد، أنا لا أسمع شيئاً!

انخفضت الأصوات درجتين.

ـ أنا مصغ، أها، هذه أنت! نعم، نعم، في هذه اللحظة، تريدين أن تعرفي ماذا في جدول الأعمال؟ الموضوع نفسه: حمل الحطب من المرفأ. ماذا؟، لم يرسل إلى أي مكان. هو هنا. أدعوه؟ حسناً.

أومأ جاركي لبافل بإصبعه.

ـ الرفيقة أوستينوفيتش تدعوك ـ وأعطاه السماعة.

ظننت أنك غير موجود. بالمصادفة عندي وقت فراغ في المساء. فتعال. توقف أخي عندي في طريقه. لم أره منذ سنتين.

أخوها!

لم يسمع بافل كلماتها الأخرى. وتذكر ذلك المساء، وما عزم عليه في تلك الليلة. أجل، يجب أن يزورها اليوم، ويضع حداً لذلك. إن الحب يجلب الكثير من الهواجس والآلام. وهل هذا وقت الوقوع فيه؟

صوتها في السماعة:

ـ ألا تسمعني؟

ـ بلى، بلى، أسمعك، حسناً، بعد جلسة المكتب. ووضع السماعة.

حدق في عينيها، وضغط على حافة المنضدة البلوطية. وقال:

ـ أظن أنني لا أستطيع الاستمرار في المجيء إليك.

قال ذلك، ورأى كيف رفت رموشها الكثيفة. توقف قلمها عن الجري على الورقة، ووقع على الكراسة المفتوحة:

ـ ما السبب؟

ـ يصعب عليَّ أكثر فأكثر إيجاد ساعات فراغ.

وأنت بنفسك تعرفين أن أيامنا مثقلة. من المؤسف، ولكن يجب تأجيل الدروس....

وتنبه إلى كلماته الأخيرة، واستشعر رخاوتها. "لماذا تلف وتدور؟ يعني إنك لا تقوى على قهر قلبك!".

وتابع بافل كلامه بعناد:

ـ وفضلاً عن ذلك، أردت منذ وقت طويل أن أقول لك إنني لا أفهمك. عندما كنت أدرس مع سيغال كان كل شيء ينطبع في ذهني، أما معك فلا أستطيع أن أستوعب شيئاً. في كل مرة كنت أخرج منك إلى توكاريف ليعينني على الفهم. دماغي لا يهضم. عليك أن تختاري شخصاً آخر صاحب دماغ أكبر.

وصرف بصره عن تحديقتها المتفحصة. وأكمل حديثه قاطعاً على نفسه سبل العودة إلى الفتاة:

ـ إذاً، من العبث تضييع وقتنا.

ونهض، ودفع الكرسي بقدمه على حذر، ونظر متمعناً إلى رأسها المنكس، وإلى وجهها الشاحب في ضوء المصباح، ولبس طاقيته.

ـ وداعاً، إذاً، يا رفيقة ريتا، يؤلمني أنني أتعبت فكرك هذه الأيام الطويلة. كان ينبغي أن أصارحك في الحال. أنا الملوم.

قدمت ريتا يدها له بحركة آلية، وقد صعقتها برودته الفجائية وكل ما استطاعت أن تقوله:

ـ أنا لا ألومك يا بافل، ما دمت لم أستطع تقريب الأفكار منك، وأكون مفهومة، أنا أستحق ما جرى اليوم.

صعب عليه أن يحرك قدميه. أغلق الباب بلا صوت وتوقف عند مدخل البيت. ربما لا يزال هناك مجال للعودة إليها، وبثها ما في دخيلة نفسه... ولكن لأي شيء؟... ليُصفع على وجهه بكلمة احتقار، ويجد نفسه هنا، عند المدخل، مرة أخرى؟ لا!

في خطوط التخزين الجانبية نمت مقبرة من العربات المحطمة والقاطرات المهملة. والريح تثير نشار الخشب في مستودعات الحطب الفارغة.

كانت عصابة اورليك تجوب دروب الغابة، والوهاد العميقة حول المدينة في عدو مفترس. في النهار كانت تنزوي في العزب المجاورة، وفي المناحل الغنية في الغابة، وفي الليل تخرج إلى الطرق الحديدية، وتمزقها ببراثنها المفترسة، وبعد أن تتم فعلتها الشنيعة، تدب عائدة إلى أوكارها.

وكثيراً ما تدهورت الحُصن الفولاذية من على سدة الخط الحديدي، وتهشمت، واستحالت العربات حطاماً، وعُجنت أجساد الناس النيام كعجين الفطائر، واختلطت الحبوب الغالية بالدم والتراب.

كانت العصابة تهاجم القصبات الساكنة. ويروع الدجاج فيتناثر في الشوارع يقأقئ مذعوراً. وكانت الطلقات تتطاير طائشة. ويجري تبادل الرصاص خارج البيت الأبيض الذي يحتله سوفييت القصبة، فتبدو فرقعة الرصاص مثل تهشم حطام عساليج جافة تحت الأقدام وينطلق الشقاة بأفراسهم الشبعة في دروب القرية، طاعنين من يقع في طريقهم ببرود دم وكأنهم لا يطعنون بشراً. وكان من النادر أن يطلقوا الرصاص توفيراً للعتاد.

وكانوا يختفون بسرعة مثلما جاءوا، وكانت للعصابة عيونها وآذانها في كل مكان. وكانت هذه العيون تنفذ إلى بيت سوفييت القصبة الأبيض من بيت الكاهن، ومن بيوت الكولاك الموسرة.

بينما مدّت خيوط غير منظورة من هنا إلى أوكار الغابة. وتسرب إلى هناك العتاد، وقطع لحم الخنزير الغريض، وزجاجات الكحول المزرق غير المصفى، والأخبار التي تنقل همساً إلى الأتمانات الصغار، ومنهم، عبر شبكة أكثر تعقيداً، إلى أورليك نفسه.

وكان للعصابة مئتان أو ثلاثمئة من الشقاة الفتّاكين، إلا أنها أفلتت من الوقوع في الأسر. كانت تتوزع إلى بضع وحدات، وتغير على قصبتين أو ثلاث في وقت واحد، وكان من المستحيل التعرف على جميع أفرادها، فإن اللص في الليل ينقلب في النهار إلى فلاح وادع يعمل في مزرعة بيته، واضعاً العلف للحصان، أو مدخناً غليونه، عند الباب بتكشيرة، مشيعاً دوريات الخيالة بنظرة كامدة.

كان الكسندر بوزيريفسكي يطارد الشقاة بفوجه في القصبات الثلاث مطاردة لا هوادة فيها، حارماً نفسه وفوجه من الراحة والنوم. فيوفق أحياناً بمطاردته العنيدة في اللحاق بذيول العصابة.

بعد شهر سحب اورليك شراذمه من قصبتين، وصار يحوم في دائرة ضيقة.

.... سارت الحياة في البلدة سيرها الاعتيادي، وأصبحت للناس ضوضاء في الأسواق الخمس حيث سادت نزعتان: الإفراط في الأخذ، والتفريط في العطاء. وتفشى الاحتيال على اختلاف ضروبه، وبكل طاقاته وأساليبه. وانتشر مئات من المراوغين كالبراغيث لهم عيون يمكنك أن تقرأ فيها كل شيء

غير النزاهة. اجتمع هنا كل نصابي البلدة، كاجتماع الذباب على كومة روث، يحدوهم دافع واحد هو "النصب" على السذج الأغرار. وكانت القطارات النادرة الوصول تلقي من بطونها كتل الناس المحملين بالأكياس. وكان جميع هذا الخلق يتجه نحو الأسواق.

في المساء كانت الأسواق تقفر، وتبدو أزقة البيع، وصفوف الأكشاك والدكاكين موحشة.

وليس كل من يملك حظاً من الجرأة يجازف في التوغل في تلك الناحية المقفرة، حيث يتربصه خطر صامت وراء كل كشك. وفي بعض الليالي كانت ترتطم إطلاقة مسدس ارتطام مطرقة على جسم صلب، ويغص حلقوم بدم صاحبه. وعندما تصل جماعة رجال الميلشيا من المراكز المجاورة إلى مكان الحادث (كان رجال الميلشيا لا يسيرون فرادى) لا يجدون غير الجثة الملتوية، ويختفي القتلة من مكان الجريمة، وتهز الضجة، كالريح، جميع النائمين في حي السوق. وفي المكان نفسه، في الجهة المقابلة توجد دار للسينما، والشارع والرصيف مضاءان بالكهرباء، والناس يضربون الأرض بأقدامهم.

وفي قاعة السينما كانت آلة العرض تدور، وعلى الشاشة يظهر عاشقان فاشلان مشتبكان في خناقة مستعرة، وحين كان الشريط السينمائي ينقطع كان النظارة يقابلونه بصفير وحشي. وفي مركز المدينة، وضواحيها كانت الحياة تبدو في مجراها الطبيعي، وحتى في لجنة الحزب للولاية، حيث يوجد عقل السلطة الثورية

كانت الأمور تسير على منوالها المألوف. إلا أن ذلك لم يكن غير هدوء ظاهري.

في البلدة تتجمع نُذر عاصفة.

كانت هذه النذر معروفة لدى الكثيرين ممن دخلوا البلدة من كل الجهات وبنادقهم العسكرية المخفية تحت معاطفهم الريفية ظاهرة للعين المتفحصة. كما كان يعرفها أولئك الذين كانوا يصلون على سطوح القاطرات متظاهرين بأنهم من المتاجرين بالأرزاق، إلا أنهم لم يكونوا يتجهون إلى السوق، بل يحملون أكياسهم إلى شوارع وبيوت محفوظة في ذاكرتهم جيداً.

كان هؤلاء يعرفون، ولكن الأحياء العمالية، وحتى البلاشفة لم يكونوا على علم بدنو العاصفة.

ولم يكن في البلدة غير خمسة بلاشفة عارفين بكل هذه الاستعدادات.

كانت فلول البيتليوريين الذين دفعهم الجيش الأحمر إلى بولونيا البيضاء تتهيأ بالتعاون الوثيق مع البعثات الأجنبية في فرصوفيا، للاشتراك في انتفاضة تُحاك.

تكونت في السر قوة مغيرة من بقايا الأفواج البيتليورية.

بل وكانت للجنة المركزية للعصيان منظمتها الخاصة في بلدة شيبيتوفكا تتألف من سبعة وأربعين شخصاً معظمهم من المعادين للثورة النشطاء في الماضي، الذين أمنتهم اللجنة الاستثنائية المحلية وتركتهم طلقاء.

وكان يقود المنظمة فاسيلي الكاهن، والملازم الثاني فينيك، والضابط البيتليوري كوزمينكو. بينما كان أخو فينيك وأبوه، وابنتا

الكاهن وساموتيا الذي انسل إلى الأعمال المكتبية للجنة التنفيذية يقومون بأعمال التجسس.

وتقرر أن يهاجم قسم حراسة الحدود الخاص في ليلة الانتفاضة بالقنابل اليدوية، ويطلق سراح المعتقلين، ويُستولى على المحطة إن أمكن ذلك.

وجرى في سرية كبيرة تجميع الضباط في مدينة كبيرة - مركز الانتفاضة المقبلة - في قلب المؤامرة، بينما انسحبت الشراذم من قطاع الطرق إلى الغابات المجاورة للمدينة. ومن هناك أرسل عملاء موثوقون ليقوموا بالاتصال مع رومانيا، ومع بيتليورا نفسه.

قضى البحار جوخراي ست ليال ساهراً في الشعبة الخاصة للمنطقة لم ينم فيها دقيقة واحدة. كان أحد البلاشفة الذين عرفوا كل شيء، كان يخامره شعور إنسان يطارد وحشاً كاسراً مستعداً للوثوب.

كان يتعذر عليه أن يصرخ، أن يستغيث. إن الوحش المتعطش للدماء يجب أن يُقتل. وبعد هذا فقط كان من الممكن العمل الهادئ من دون التلفت والنظر في كل ركن. إن الوحش يجب ألا يُراع. فهنا، في هذا النضال المستميت لا يُكسب النصر إلا بصلابة المقاتل، ومتانة ساعده.

وأزف الموعد.

في مكان ما في البلدة، في أحبولة خبايا الفتنة حددت ساعة الصفر: غداً ليلاً.

إلا أن البلاشفة الخمسة العارفين بالأمر قرروا المباغتة، لا،

اليوم ليلاً.

في المساء خرج القطار المصفح بهدوء، ومن دون صفير، وبالهدوء نفسه أغلقت وراءه البوابة الجبارة لمستودع القطارات.

أسرعت خطوط الاتصال المباشرة بإرسال البرقيات بالشفرة، وفي كل نقطة وصلت إليها عمل حماة الجمهورية اليقظون على سحق أوكار الفتنة.

تلفن أكيم إلى جاركي:

ـ هل أعددت العدة لاجتماعات الخلايا؟ ها؟ حسناً. تعال الآن مع سكرتير اللجنة الحزبية في المنطقة لحضور جلسة. مسألة الحطب أسوأ مما كنا نظن. ستأتي، ونتحدث في الموضوع ـ سمع جاركي كلام أكيم السريع الحازم.

تمتم جاركي وهو يضع السماعة:

ـ سيزهق هذا الحطب أرواحنا قريباً.

نزل السكرتيران من السيارة التي كان ليتكه يقودها بسرعة. ولما صعدا إلى الطابق الثاني علما حالاً بأن المسألة لا تتعلق بالحطب.

كانت على مكتب مدير الإدارة رشاشة "مكسيم" انكب عليها رماة رشاشات من وحدة المهمة الخاصة. وفي الممرات حراس صامتون من نشطاء الحزب في البلدة والكومسومول. ووراء الباب العريض لمكتب سكرتير لجنة الولاية كانت الجلسة الطارئة لمكتب لجنة الحزب للولاية موشكة على الانتهاء.

كان هناك سلكان يمتدان من الشارع عبر نافذة التهوية الصغيرة، وينتهيان إلى تلفوني ميدان.

وفي الغرفة حديث خافت. وجد جاركي في الغرفة اكيم، وريتا، وميخائيل، وكان ميخائيل شكولينكو في معطف طويل عليه نطاق وحمالة كتف ينتهي بمسدس ناغان في غلافه، فلم يعرفه جاركي من النظرة الأولى. وكانت ريتا في بزة اعتادت ارتداءها حين كانت مرشدة سياسية لمفرزة: خوذة الجيش الأحمر، وتنورة كاكية، وسترة جلدية عليها نطاق شدّ به مسدس موزر ثقيل.

سألها جاركي مندهشاً:

ـ ما معنى هذا كله؟

فقالت له:

ـ إنذار تجريبي، يا فانيا. سنذهب الآن إلى منطقتكم. سنجتمع للإنذار في مدرسة المشاة الخامسة. سيذهب الرفاق من اجتماعات الخلايا إلى هناك رأساً. والشيء المهم أن يحدث ذلك من دون أن يلاحظه أحد.

كان الهدوء سائداً في حرش مدرسة "الكاديت".

أشجار البلوط الصامتة الشامخة عمالقة معمرة. والبركة هاجعة مغطاة بالأرقطيون وحشيشة القريص، والممرات عريضة مهملة. وبناية مدرسة الكاديت بطوابقها وسط الحرش، وراء سور عالٍ أبيض، تتخذ الآن مقراً لمدرسة المشاة الخامسة لأمراء الجيش الأحمر. والمساء حل منذ وقت طويل. والطابق العلوي غير مضاء. والبناية ساكنة في الظاهر. كل مَنْ يمر بها يخال الناس وراء السور نائمين. ولكن لماذا إذاً فتحت البوابة الحديدية، وما هاتان الشبيهتان بضفدعتين هائلتين عند البوابة؟

إلا أن الناس الوافدين من مختلف أطراف منطقة عمال السكك كانوا يعرفون أن من في المدرسة لا يمكن أن يكونوا نائمين، ما دام قد صدر إنذار ليلي. الناس وفدوا إلى هنا رأساً بعد اجتماعات قصيرة عقدت للخلايا. جاءوا صامتين، أحاد، وثناء وثلاث لا أكثر يحملون في جيوبهم إلزاماً هويات كتب عليها "الحزب الشيوعي البلشفي"، أو "الاتحاد الشيوعي لشبيبة أوكرانيا". فالذين يحملون مثل هذه الهويات وحدهم يستطيعون دخول البوابة الحديدية.

تجمع عدد كبير من الناس في قاعة الاجتماعات المضاءة. وعلقت على النوافذ ستائر من أنسجة الخيام المشمعة. كان البلاشفة المجتمعون هنا يدخنون التبغ البيتي بهدوء، مرسلين النكات على هذه التحوطات المتخذة بشأن الإنذار. ولم يشعر أحد منهم بأنه إنذار حقيقي. إنهم مجتمعون هنا لغير غاية، للحذر، أو على أكثر تقدير ليشعروا بضبط وحدات المهمة الخاصة. إلا أن جنود الجبهة المجربين شعروا، وهم يدخلون فناء المدرسة، أن هناك شيئاً ليس كالإنذار التجريبي مطلقاً، فإن كل شيء جرى بهدوء مفرط. اصطفت كتائب طلاب المدرسة العسكرية في صمت بناء على أمر صدر لها في شبه همس. وأخرجت الرشاشات محمولة على الأيدي، وفي الخارج لم يلح ضوء في نافذة من نوافذ المدرسة.

سأل كورتشاغين دوبافا بصوت خافت وهو يتقدم منه:

ـ ألعل شيئاً جدياً ينتظرنا يا ميتيا؟

كان دوبافا جالساً على إفريز نافذة قرب فتاة غير معروفة

لكورتشاغين، رآها خطفاً قبل يومين عند جاركي.

ضرب دوبافا كتف بافل مزاحاً.

ـ هل وجف قلبك؟ لا بأس، سنعلمكم كيف تحاربون. ألم تتعرف عليها؟ ـ وأشار برأسه إلى الفتاة ـ اسمها آنا، ولقب عائلتها غير معروف لي.

رتبتها رئيسة مركز التحريض والدعوة.

والتقت بعينيه عينا الفتاة السوداوان المشوبتان بزرقة في مباراة صامتة بالنظر دامت بضع ثوانٍ، ولمعتا بإغراء تحت رموشها الكثيفة. حوّل بافل بصره إلى دوبافا. ولما أحس بالدم يتدفق إلى وجهه تجهم بغير ارتياح.

سأل بافل مجبراً نفسه على الابتسام.

ـ من منكما يحرض الآخر؟

حدثت ضجة في القاعة. صعد ميخائيلو شكولينكو على كرسي، وصاح:

ـ أفراد الفصيلة الأولى يصطفون في هذه القاعة! أسرعوا أسرعوا، يا رفاق.

دخل إلى القاعة جوخراي، ورئيس اللجنة التنفيذية للولاية، وأكيم، وقد وصلوا من توهم.

والقاعة غاصة بالناس المصطفين صفوفاً.

وقف رئيس اللجنة التنفيذية في فسحة رشاشة التدريب، ورفع يده، وتكلم:

ـ أيها الرفاق، جمعناكم هنا لقضية مهمة جادة. يمكن القول الآن ما كان غير جائز قوله أمس لأنه كان سراً عسكرياً مكتوماً.

غداً في الليل ستندلع انتفاضة معادية للثورة في المدينة وفي أوكرانيا كلها. والمدينة مملوءة بالضباط. وحول المدينة تتجمع شراذم العصابات وقد تسلل قسم من المتآمرين إلى وحدة المصفحات، يعملون فيها سواقاً. إلا أن اللجنة الاستثنائية كشفت النقاب عن المؤامرة، والآن نضع تحت السلاح جميع أعضاء المنظمات الحزبية والكومسومولية. وستعمل الكتيبتان الشيوعيتان الأولى والثانية بالاشتراك مع الوحدات المجربة من الطلاب، وفصائل اللجنة الاستثنائية. وقد تقدمت وحدات الطلاب. والآن جاء دوركم أيها الرفاق. خمس عشرة دقيقة للحصول على السلاح، والانتظام في صفوف. وسيقود الرفيق جوخراي العملية. سيتلقى أمراء الوحدات إرشادات مضبوطة منه. أعتقد من فضول القول أن أدلل للكتيبة الشيوعية على خطورة اللحظة الراهنة. يجب أن نحبط اليوم مؤامرة الغد.

بعد ربع ساعة كانت الكتيبة المسلحة مصطفة في فناء المدرسة.

أجال جوخراي بصره في صفوف الكتيبة الساكنة الحركة.

على بعد ثلاث خطوات في مقدمة الصف وقف اثنان ممنطقان بنطاقين: آمر الكتيبة مينيالو، عامل الصهر العملاق من الأورال، وإلى جانبه المفوض أكيم. وإلى اليسار فصائل الكتيبة الأولى. وعلى بعد خطوتين أمامها شخصان: آمر الكتيبة شكولينكو، والمرشدة السياسية أوستينوفيتش. ووراءهم صفوف الكتيبة الشيوعية صامتة برجالها الثلاثمائة.

وأعطى جوخراي الإشارة.

ـ حان وقت التقدم.

سار الثلاثمائة في الشوارع المقفرة.

والمدينة نائمة.

في شارع لفوفسكايا، مقابل شارع ديكايا توقفت الكتيبة. هنا بدأ عملها.

أحاطوا الأبنية من دون ضجيج. وأقاموا مقر القيادة على درجات أحد المخازن.

جاءت سيارة من المركز منحدرة في شارع لفوفسكايا، مضيئة الجادة بمصباحها، وتوقفت عند مقر القيادة.

إن ليتكه في هذه المرة جاء بأبيه، قفز الآمر إلى الرصيف، وألقى إلى ابنه بعض العبارات المنقطعة باللغة اللاتفية. وانطلقت السيارة إلى الأمام، وبلمحة عين اختفت وراء عطفة شارع دميترييفسكايا. ركز هوغو ليتكه كل قوته في بصره. يداه تشدان على الدفة، وتديرانها ذات اليمين وذات اليسار.

الليلة مست الحاجة إلى سياقته المستميتة. إن أحداً من الناس لم يفكر قط في قضاء ليلتين في الحجز جزاء على سياقة جنونية.

وكان ليتكه ينطلق في الشوارع كالشهاب.

ما كان بوسع جوخراي الذي ينقله ليتكه الشاب في رمشة عين من طرف إلى آخر في المدينة إلا أن يعرب عن استحسانه:

ـ هوغو، إذا لم تصدم أحداً اليوم وأنت على هذه السرعة فستحصل في الغد على ساعة ذهبية.

وتهلل هوغو:

ـ ظننت أنني سأحبس عشرة أيام على العطفة...

وجهت الضربات الأولى إلى البيت الذي اتخذه المتآمرون مقر قيادتهم. وأرسل إلى الشعبة الخاصة أوائل المعتقلين والوثائق المستولى عليها.

في شارع ديكايا، وفي زقاق منه يحمل الاسم نفسه، وفي البيت رقم ١١ كان يعيش رجل لقب عائلته تسيوربرت. وكان، حسب معلومات اللجنة الاستثنائية، يلعب دوراً لا يُستهان به في المؤامرة البيضاء. وقد وجدت في حيازته قوائم بأسماء ضباط الوحدات الذين كان يجب أن يعملوا في منطقة بودول.

ذهب ليتكه الأب نفسه إلى شارع ديكايا لاعتقال تسيوربرت ولم يجد تسيوربرت في شقته المطلة بنوافذها على حديقة يفصلها حائط عن دير النساء السابق. وذكر جيرانه أنه لم يعد في هذا اليوم. وجرى تفتيش الشقة ووجدت القوائم والعناوين مع صندوق للقنابل اليدوية. وأصدر ليتكه أمره بتطويق البيت، وتوقف دقيقة عند الطاولة يفحص الأوراق التي عثر عليها.

وقف طالب عسكري شاب حارساً في ركن من الحديقة بعد أن أمر بمراقبة ما وراء الحائط، وكان يشعر بالخوف وعدم الارتياح في وقفته هناك بعيداً عن ضوء النافذة المهدئ للأعصاب، على الرغم من أنه كان يرى النافذة من زاويته. وكان القمر نادراً ما يطلع من وراء السحب. والشجيرات في الظلمة تبدو حيّة. طعن بالحربة ما حوله فأحس بالفراغ. وفكر الطالب العسكري:

"لماذا وضعوني هنا؟ الحائط على أي حال مرتفع، ولا

يستطيع أحد تسلقه، ربما اقترب من النافذة، وانظر؟" ألقى نظرة أخرى على رأس الحائط، وخرج من ركنه العابق برائحة الكمأة. وتوقف لحظة عند النافذة. جمع ليتكه الأوراق مسرعاً واستعد للخروج من الغرفة. وفي تلك اللحظة ظهر على رأس الحائط ظل. ورأى صاحب الظل من فوق الحائط حارساً عند النافذة، وشخصاً آخر في الغرفة، قفز الظل، بخفة قط، من فوق الحائط إلى شجرة، ثم إلى الأرض، وكالقط انسل إلى فريسته، ووجه لها ضربة، ووقع الطالب على الأرض مطعوناً برقبته بخنجر بحري نفذ فيها حتى مقبضه.

هزّت طلقة في الحديقة الناس المحيطين في المنطقة وكأنما مسّهم تيار كهربائي.

اندفع ستة رجال نحو البيت، ورددت الأرض وقع خطاهم.

وجدوا ليتكه قتيلاً على المقعد، ورأسه ملقى على الطاولة غارق في الدم المسفوح. وكان زجاج النافذة محطماً. إلا أن العدو لم يجد وقتاً ليستعيد الوثائق.

ترددت طلقات عند حائط الدير، إنه القاتل قفز إلى الشارع، وشرع يجري في العرصات، مطلقاً الرصاص وراءه. إلا أنه لم يهرب. عاجلته رصاصة.

وجرت حملات تفتيش شاملة طوال الليل، واقتيد إلى اللجنة الاستثنائية مئات من الناس غير المسجلين في سجل سكان البيوت، ومعهم الوثائق المشتبه بها، والأسلحة، وكان هناك لجنة لتقصي الحقائق.

وفي بعض الأماكن أبدى المتآمرون مقاومة مسلحة. في

شارع جيليانسكايا صرع أنتون ليبيديف في البيت الذي كان يجري التفتيش فيه.

في تلك الليلة فقدت كتيبة سولومينكا خمسة من رجالها، وفجعت اللجنة الاستثنائية بجان ليتكه البلشفي العتيد، وحارس الجمهورية الأمين.

وأحبطت الفتنة.

في تلك الليلة اعتقل في بلدة شيبيتوفكا الكاهن فاسيلي مع ابنتيه، وجميع مناصريه.

وزال التوتر.

إلا أن عدواً جديداً أحدق بالبلدة، إنه الشلل في الخطوط الحديدية متبوعاً بالمجاعة والزمهرير. وكان الخبز والحطب سيدي الموقف.

الفصل الثاني

أخرج فيدور غليونه القصير من فمه، وتلمس بأصابعه رماد جوزته حذراً. وأيقن أن الغليون منطفئ.

طاف الدخان الرمادي المتصاعد من سكائر عدة وانعقد كالغمامة قرب المصابيح المغبشة، وِفوق كرسي رئيس اللجنة التنفيذية للولاية. وكانت وجوه الجالسين إلى الطاولة في ركن من الغرفة تلوح وكأنها خلف نقاب من الضباب الخفيف.

كان توكاريف العجوز ينكب بصدره على الطاولة بالقرب من الرئيس، ويعبث بلحيته الخفيفة في انفعال، ويلقي بين الحين والآخر نظرة جانبية على رجل قصير أصلع مضى بصوته الجهير يدبج العبارات المطنبة الفارغة مثل بيض أفرغ من صفاره وبياضه.

لمح أكيم نظرة توكاريف الجانبية، وتذكر "فاقئ العيون"، وهو الديك العرّاك في بيته في الطفولة. فقد كانت له النظرة نفسها قبل أن يثب على غريمه.

مضى أكثر من ساعة على اجتماع اللجنة الحزبية للولاية وكان الرجل الأصلع رئيساً للجنة وقود السكك.

هدر مقلباً بأصابعه السريعة كومة أوراق:

ـ .... وهذه الأسباب الموضوعية لا تتيح إمكانية تنفيذ قرار لجنة الولاية، وإدارة السكك. وأكرر القول وبعد شهر لن يكون بوسعنا تقديم أكثر من أربعمئة متر مكعب من الحطب. أما مئة وثمانون ألف متر مكعب، فهذا.... ـ وتريث الأصلع ليختار الكلمة ـ طوباوية! ـ وزمّ فمه الصغير ليعبر عن تكدره.

واستطالت فترة صمت.

نقر فيدور غليونه بأظافره نافضاً الرماد عنه.

وقطع توكاريف الصمت بصوته الخشن الصادر من أقصى الحنجرة.

ـ ليس عندنا ما نهذر به هنا. لم يكن لدى لجنة الوقود حطب، ولا يوجد الآن، ولا أمل في أن يكون في المستقبل. أليس كذلك؟

هزّ الأصلع كتفه.

ـ اعذرني، أيها الرفيق، نحن هيأنا حطباً، ولكن انعدام وسائل الجر... ـ وشهق الرجل، ومسح هامته الصقيلة بمنديل مربع، وظل طويلاً يحاول إعادة المنديل إلى جيبه، فحشره تحت محفظته بعصبية.

قال دنيكو من زاويته:

ـ ماذا فعلتم لنقل الحطب؟ لقد مضى وقت طويل على اعتقال الأخصائيين القياديين الذين لهم علاقة في المؤامرة.

التفت الأصلع نحوه:

ـ أبلغت إدارة السكك ثلاث مرات: بدون نقليات من المستحيل....

أوقفه توكاريف قائلاً ببرود:

ـ سمعنا ذلك منذ حين ـ ورمق الأصلع بنظرة عداء ـ أتظن أننا أغبياء؟

شعر الأصلع بقشعريرة تسري في ظهره بسبب هذه الكلمات، أجاب الأصلع بصوت منخفض هذه المرة:

ـ أنا غير مسؤول عن أفعال أعداء الثورة.

فسأل أكيم:

ـ ولكن ألم تعرف أن تقطيع الحطب يجري على مسافة بعيدة عن الخط الحديدي.؟

ـ سمعت. ولكن لم يكن بوسعي أن أدل الرئاسة على نقائص في دائرة أخرى.

ألقى رئيس المجلس النقابي السؤال على الأصلع:

ـ كم عدد المستخدمين عندك؟

ـ حوالى مائتين.

قال توكاريف وبصق مستشاطاً:

ـ يعني كل تنبل ينقل متراً مكعباً في العام.

فتابع رئيس المجلس النقابي كلامه:

ـ نحن نعطي لكل لجنة الوقود جرايات خاصة نقتطعها من العمال. فماذا تفعلون؟ ماذا فعلتم بعربتي الطحين اللتين أعطيتا لكم لتوزع على العمال؟

وأمطروا الأصلع بالأسئلة الحادة من كل الجهات، فكان

يراوغ عنهم، كما يراوغ مدين عن دائنين غضاب يطالبونه بدفع ديونه.

كان يزيغ عن الأجوبة المباشرة زيوغ ثعبان الماء، ولكن عينيه كانتا تتلفتان إلى الوجوه، شاعراً في دخيلة نفسه بدنو الخطر. كان يطمع وهو في عصبية الرعديد بشيء واحد: أن يخرج من هنا بأسرع ما يمكن إلى مائدته الدسمة، حيث تنتظره زوجة لم تودع شبابها بعد ألفت أن تطالع في المساء رواية من روايات بول دي كوك.

كتب فيدور في دفتره، وهو ماضٍ في الاستماع إلى أجوبة الأصلع: "من رأيي يجب التدقيق في أمر هذا الرجل بشكل أعمق. ليست المسألة هنا مجرد عدم اقتدار في العمل. عندي شيء عنه... لنقطع الحديث معه، ونخلي سبيله، ونتفرغ نحن للأمر".

قرأ رئيس اللجنة الملاحظة المقدمة له، وهز رأسه لفيدور.

نهض فيدور، وذهب إلى التلفون في المجاز، وعندما عاد كان رئيس اللجنة قد وصل في قراءته إلى نهاية القرار:

".... إقصاء رئاسة لجنة الوقود للتخريب الواضح. ونقل قضية الحطب إلى هيئات التحقيق".

وكان الأصلع يتوقع أسوأ من ذلك، حقاً إن الإقصاء عن العمل بسبب التخريب يضع أمانته تحت الشبهات، ولكن ذلك لا قيمة له، أما قضية بوياركا فهي لا تهمه، لأنها ليست في منطقته:

"فو، اللعنة. تصورتهم اكتشفوا شيئاً....".

جمع الأوراق في محفظته، وقال مطمئن النفس تقريباً.

ـ بالطبع، أنا أخصائي غير حزبي، ولكم الحق في عدم الوثوق بي، إلا أن ضميري نظيف، إذا لم أقم بعمل، فمعنى ذلك إنه لم يكن بوسعي القيام به.

لم يرد عليه أحد، وخرج الأصلع، وهبط السلم مسرعاً، وفتح الباب إلى الشارع متنفساً الصعداء.

سأله رجل في معطف عسكري:

ـ ما اسمك، أيها المواطن؟

تلعثم الأصلع واجف القلب:

ـ تشير.... فينسكي....

عندما خرج الرجل الغريب اجتمع ثلاثة عشر شخصاً متلاصقين إلى طاولة كبيرة في مكتب رئيس اللجنة التنفيذية للولاية.

ـ انظروا.... ـ قال جوخراي ناقراً بإصبعه خارطة منشورة ـ هذه محطة بوياركا، وعلى بعد سبعة أميال منها مكان قطع الأخشاب، هناك كُومت مائتان وعشرة آلاف متر مكعب من الأخشاب، عمل فيها جيش العمل ثمانية أشهر، وبُذلت عليها جهود جهيدة، وبالنتيجة تظهر خيانة. السكك والبلدة بلا حطب يجب نقله سبعة أميال إلى المحطة. وذلك يحتاج إلى ما لا يقل عن خمسة آلاف عربة تعمل خلال شهر كامل. هذا إذا قامت كل عربة برحلتين في اليوم جيئة وذهاباً. وأقرب قرية تبعد خمسة عشر ميلاً. وبالإضافة إلى ذلك تجوب عصابة أورليك تلك الأنحاء.... أتفهمون ماذا يعني هذا؟... انظروا.

حسب الخطة، كان يجب البدء في قطع الأخشاب من هنا، والاتجاه صوب المحطة، أما هؤلاء الأراذل فقد قطعوا الأخشاب في قلب الغابة. والغاية واضحة: نحن لا نستطيع نقل الأخشاب المقطوعة إلى خطوط السكك. وهذا صحيح، نحن لا نستطيع الحصول حتى على مئة عربة. ومن هذه الزاوية ضربونا....! إنهم لا يقلون خطراً عن المتآمرين.

وهبطت قبضة جوخراي ثقيلة على ورقة الخارطة المشمعة.

وتمثل كل واحد من الثلاثة عشر تمثلاً واضحاً كل فظاعة الوضع الذي سينجم عن ذلك، والذي لم يتحدث عنه جوخراي. فالشتاء على الأبواب. والمستشفيات، والمدارس، والمؤسسات، ومئات الألوف من الناس تحت قبضة الصقيع، ومحطات القطار تمور بالناس مثل بيوت النمل، والقطار يأتي مرة واحدة في الأسبوع.

وغرق كل واحد في أفكاره.

وفكّ جوخراي قبضة يده.

ـ هناك مخرج واحد، أيها الرفاق: أن نمد، خلال ثلاثة أشهر، خطاً حديدياً ضيقاً من المحطة إلى مكان تقطيع الأخشاب ـ أي لسبعة أميال ـ على شرط أن يُمد خلال شهر ونصف الشهر إلى بداية منطقة القطع.

وأنا أشتغل في هذا الأمر منذ أسبوع. وهو يحتاج ـ وهنا تقطع صوت جوخراي في حنجرته الجافة ـ إلى ثلاثمئة وخمسين عاملاً، ومهندسين اثنين. وهناك قضبان حديدية، وسبع قاطرات في بوشا فوديتسا. وقد وجدها الكومسوموليون هناك في

المستودعات. أرادوا قبل الحرب أن يمدوا خطاً ضيقاً من هناك إلى البلدة. ولكن لا توجد في محطة بوياركا أماكن يعيش فيها العمال. ليس هناك إلا مدرسة الغابة وهي خرائب. ونحن مضطرون إلى إرسال العمال إلى هناك جماعات، كل واحدة منها تعمل هناك أسبوعين فقط، فإنها لا تقاوم أكثر.

لنرسل الكومسومولين إلى هناك، ما رأيك، يا أكيم؟ ـ ثم تابع كلامه من دون أن ينتظر الجواب ـ الكومسومول سيدفع إلى هناك بالعدد الذي يستطيعه من أعضائه: أولاً منظمة سولومينكا، وقسم من كومسومولي البلدة. إن المهمة صعبة جداً، ولكن إذا قلنا للأولاد إن ذلك ينقذ البلدة والسكك، فإنهم سيفعلون ذلك.

هز رئيس السكك رأسه في شك، وقال في تعب:

ـ أخشى أن لا طائل وراء ذلك. مد سبعة أميال في مكان مقفر، وفي الظروف الحالية: الفصل خريف، ثم الأمطار، وبعد ذلك الصقيع.

اعترض جوخراي من دون أن يدير إليه رأسه:

ـ كان يجب أن تولي أهمية أكثر لمسألة قطع الأخشاب، يا أندريه فاسيليفتش. سنبني الخط الفرعي، ولن نتجمد مكتوفي الأيدي.

شُحنت صناديق الأدوات الأخيرة، واتخذ فريق القطار أماكنه. كانت السماء تسح رذاذاً خفيفاً. وكانت قطرات المطر تتدحرج كالحبوب الزجاجية على سترة ريتا الجلدية اللامعة من البلل.

شدت ريتا على يد توكاريف بقوة وهي تودعه، وقالت بنعومة:

ـ نرجو لكم التوفيق.

نظر إليها العجوز من تحت حاجبيه الكثين الشائبين نظرة حنون. وغمغم راداً على أفكاره:

ـ نعم، أثقلونا بالمتاعب. عليهم اللعنة... راقبوا الأمر هنا. إذا حصل تعويق، اضغطوا في المكان اللازم. فإن هؤلاء المتبطلين لا يشتغلون إلا بالمماطلة، والآن حان وقت الصعود إلى القطار، يا بنيتي.

زرر العجوز سترته بإحكام، وسألته ريتا في آخر لحظة، وكأن ذلك عرضاً:

ـ ألا يذهب كورتشاغين معك؟ لا أراه بين الفتيان.

ـ ذهب يوم أمس مع المشرف الفني على عربة ترولي ليحضر شيئاً لوصولنا.

جاء جاركي ودوبافا وآنا بورخارت مسرعين نحوهما على رصيف المحطة، وكانت آنا تلقي سترتها على كتفيها بإهمال، وبين إصبعيها الرقيقتين سيكارة منطفئة.

سألت ريتا السؤال الأخير، وهي تنظر إلى القادمين:

ـ كيف تجري دراستك مع كورتشاغين ؟

نظر توكاريف إليها مندهشاً:

ـ أي دراسة إذا كان الفتى تحت رعايتك؟

حدثني عنك أكثر من مرة. ومدحك كثيراً.

استمعت ريتا إلى كلماته بتشكك.

ـ أصحيح هذا يا رفيق توكاريف؟ كان يخرج مني إليك ليفهم منك ما لم يفهمه مني.

ضحك العجوز:

ـ يأتي إليَّ؟ . لم تقع عليه عيناي.

زأر القطار. وصرخ كلافيتشيك من العربة:

ـ يا رفيقة أوستينوفيتش، اتركي لنا العم، لا يجوز ذلك! ماذا سنفعل بدونه؟

وهم التشيكي بأن يقول شيئاً آخر، إلا أنه صمت حين لاحظ القادمين الثلاثة. لمح خطفاً بريق القلق في عيني آنا، والتقطت عيناه في حسرة ابتسامتها الوداعية لدوبافا، فابتعد عن النافذة في اندفاع.

كان المطر الخريفي يلطم الوجه. والسحب الرمادية الداكنة المشبعة بالماء تدب واطئة فوق الأرض. وكان الخريف قد سلخ شوطاً كبيراً من عمره وعرى كتل الأشجار، فكان هذا العجوز يقف جهماً يخفي تغضنات قشرته تحت التصويف البني. خلع الخريف القاسي أدثرته الزغباء، فكان يقف أجرد أعجف.

كانت محطة صغيرة تنزوي وحيدة وسط الغابة، وقد خرج من رصيف البضاعة الحجري نحو الغابة شريط من الأرض المقلوبة حديثاً. وكان الناس يمرون عليه كالنمل.

كانت الأرض اللزجة تُعجن تحت الأحذية فترسل صوتاً كريهاً. وكان الناس يحفرون عند السدة بهمة، فتصوت العتلات تصويتاً أصم، وتصر الأرفاش على الأحجار.

والمطر ماضٍ في تناثره، وكأنه يتساقط من خلال شبكة

دقيقة، وتنفذ القطرات الباردة خلال الثياب. كان المطر يمسح عمل الناس، فيسيل الطين من السدة عجيناً كثيفاً.

الثياب مبللة إلى آخر خيط فيها ثقيلة باردة، ولكن الناس لم يتركوا العمل إلا في ساعة متأخرة من المساء. ومع كل يوم كان شريط الأرض المحفورة المقلوبة يمتد في الغابة أبعد فأبعد...

على مسافة قريبة من المحطة لاح هيكل بناية حجري عابس. كانت أيدي النهابين قد جردت البناية من كل ما يمكن أن يسلب. اقتطعته أو مزقته منذ زمن بعيد. فبقيت في مكان النوافذ والأبواب ثغرات، وفي مكان أبواب المواقد ثقوب سود. وكانت روافد السقف ترى من خلال الثقوب فيه.

وبقيت الأرضية الإسمنتية وحدها في الحجرات الرحيبة الأربع غير ممسوسة. وكان أربعمئة من البشر يتمددون عليها ليلاً في ملابسهم المبللة كلياً، والملطخة بالوحل، كانوا يعصرون ملابسهم عند الباب، فتسيل منها خطوط من الماء الموحل. وكانوا يقذفون المطر اللعين والوحل بالشتائم اللاذعة، ويستلقون بصفوف متلاصقة على الأرض الإسمنتية المفروشة بقليل من القش، محاولين أن يدفئ بعضهم بعضاً. وكانت الملابس تزفر بخاراً، ولكنها لا تجف. وكان المطر ينفذ إلى الأرض من خلال الأكياس المسدلة على أطر النوافذ، ويضرب بقايا الحدائد على السقف ضربات متتابعة، بينما كانت الريح تصفر في فتحات الباب.

وفي الصباح كانوا يشربون الشاي في عنبر متداعٍ اتخذ مطبخاً، ويخرجون إلى السدة. وفي الغداء كانوا يتناولون عصيدة

العدس دائماً، وبتكرار قاتل، ورطلاً ونصف رطل من الخبز الأسود كالفحم.

كان ذلك كل ما استطاعت البلدة أن تقدمه.

اتخذت شقة مدير المحطة منزلاً للمشرف الفني فاليريان نيكوديموفيتش باتوشكين، العجوز الطويل الجاف العود ذي الغضنين العميقين على خده، وللتكنيكي فاكولينكو القصير المتين ذي الأنف الممتلئ في وجه خشن الملامح.

وكان توكاريف ينام في الحجرة الصغيرة لمسؤول اللجنة الاستثنائية خوليافا، القصير الساقين، الذي لا يستقر في مكان كالزئبق.

تحملت فصيلة البناء الحرمانات بعناد مستعر.

وكانت السدة مع كل يوم تزداد توغلاً في الغابة.

حقاً إن تسعة من الفصيلة هربوا من العمل. وبعد بضعة أيام هرب خمسة آخرون .

وتلقى البناة الضربة الأولى في الأسبوع الثاني من العمل، عندما لم يأتِ الخبز من البلدة مع قطار المساء.

أيقظ دوبافا توكاريف وأبلغه بذلك.

ألقى سكرتير الجماعة الحزبية ساقيه المشعرتين على الأرض، وهرش تحت إبطه. وتمتم مع نفسه:

ـ بدأت الألعاب!

وشرع يلبس ملابسه على عجل.

دلف إلى الغرفة خوليافا المستدير كالكرة، فأمره توكاريف:

ـ اذهب إلى التلفون، وتلفن للشعبة الخاصة، ثم حذر

دوبافا ـ أما أنت فلا تخبر أحداً عن الخبز.

بعد نصف ساعة من التشاتم مع العاملين على الخطوط التلفونية، أفلح خوليافا الملحاح في الاتصال بمساعد رئيس الشعبة الخاصة جوخراي.

كان توكاريف يستمع إلى تشاتم خوليافا ويضع قدماً ويرفع أخرى من نفاد الصبر.

هدر جوخراي في السماعة بوعيد:

ـ ماذا؟ لم يرسل الخبز لكم؟ سأعرف حالاً من فعل ذلك.

صرخ توكاريف في السماعة غاضباً:

ـ حدثني ماذا سنطعم الناس غداً؟

يبدو أن جوخراي يفكر في شيء. بعد فترة صمت طويلة سمع توكاريف صوت جوخراي:

ـ سنرسل الخبز ليلاً. سأرسل ليتكه بالسيارة، فهو يعرف الطريق. سيكون الخبز عندكم في الصباح.

ما كاد الفجر يبزغ حتى تقدمت من المحطة سيارة ملطخة بالوحل، محملة بأكياس الخبز، وخرج منها ليتكه الابن تعبان شاحباً بعد ليلة من السهر.

وتوتر الكفاح من أجل بناء الخط. أعلنت إدارة السكك أنها لا تملك عوارض للقضبان ولم تجد سلطات البلدة وسائط لنقل القضبان، ولا قاطرات لموقع البناء، بينما ظهر أن القاطرات نفسها بحاجة إلى تصليحات كبيرة. أنهت الجماعة الأولى فترة عملها، ولم تأتِ أخرى لتحل محلها. ولم يكن من الممكن أن يُبقى في العمل أناس استنزفت كل قواهم.

اجتمع نشطاء الحزب طوال الليل في العنبر القديم على ضوء قنديل.

وفي الصباح سافر توكاريف ودوبافا وكلافيتشيك إلى البلدة، وأخذوا معهم ستة رجال لتصليح القاطرات وجلب القضبان. وبُعث كلافيتشيك، بصفته خبازاً، ليكون مراقباً في قسم التموين، بينما سافر الآخرون إلى بوشا ـ فوديتسا.

وما زال المطر يهطل.

أخرج كورتشاغين قدمه من الطين اللزج بصعوبة، وأشعره البرد القارس في باطن قدمه بأن النعل البالي قد انفصل تماماً عن أعلى الحذاء. منذ مجيئه إلى هنا كان يقاسي العذاب من جراء حذائه الرطب دائماً، المصوّت بالوحل، والآن انخلع أحد النعلين، فوطأ الوحل اللزج اللاذع البرودة بقدم عارية. وأوقفه حذاؤه عن العمل. أخرج قطعة النعل من الطين، ونظر إليه في يأس، وشتم ناكثاً كلمته التي قطعها على نفسه. سار إلى العنبر بفردة حذائه. وجلس بالقرب من المطبخ السيّار، وخلع لفافة قدمه الموحلة، ووضع قدمه المخدرة بالبرد عند الموقد.

كانت أوداركا زوجة حارس الطرق ومساعدة الطباخ الآن تقطع البنجر على طاولة المطبخ. لقد حبت الطبيعة هذه المرأة التي لم تتجاوز بعد سن الشباب بكل ما تشتهي: كانت كتفاها عريضتين ككتفي رجل، وصدرها واسعاً، وردفاها ممتلئين جسيمين. كانت تستعمل السكين باقتدار، حتى ظهر على الطاولة بسرعة تل من البنجر المقطع.

ألقت أوداركا على بافل نظرة باردة، وسألت بلهجة خالية من الحفاوة، وحملت عليه قائلة:

- هل جئت للغداء؟ جئت مبكراً بعض الشيء. يبدو أنك هارب من الشغل. أين تضع قدمك؟ هذا مطبخ وليس حماماً.

ودخل الطباخ الكهل. قال بافل مبيناً سبب وجوده:

- تقطع النعل.

نظر الطباخ إلى النعل المتهرئ، وأومأ برأسه إلى أوداركا:

- زوجها نصف إسكافي، ويستطيع أن يساعدك. وإلا فإنك ستهلك وأنت بلا حذاء.

رنت أوداركا إلى بافل، وهي تسمع كلام الطباخ، وارتبكت قليلاً، واعترفت قائلة:

- ظننتك متهرباً من العمل.

ابتسم بافل مسامحاً. نظرت أوداركا إلى حذائه نظرة عارف. قالت بعطف:

- زوجي لن يرقعه لك، لأنه لا يصلح للترقيع، ولكنني سأجلب لك كالوشا قديماً عندي في البيت حتى لا تتلف قدمك، يبدو أنك تتعذب منه كثيراً! إذا أضر بك القرس اليوم أو غداً فستهلك.

ووضعت السكين وخرجت.

بعد قليل عادت تحمل كالوشاً عميقاً، وقطعة من الخيش، وعندما استقرت القدم المدفأة الملفوفة بقطعة الخيش في الكالوش الدافئ نظر بافل إلى زوجة حارس الطرق بامتنان صامت.

وصل توكاريف من البلدة مغضباً، وجمع في غرفة

خوليافا نشطاء الحزب، وأبلغهم بأنباء غير سارة، معلناً للمجتمعين:

- عراقيل في كل مكان، أينما وليّت وجهك ورأيت العجلات تدور ولكن في أماكنها! يبدو أننا لم نصطد غير عدد قليل من هؤلاء البيض، وسنقضي عمرنا في اصطيادهم. وأقول لكم باقتضاب يا أولاد: إن الوضع سيئ، لم يجمعوا الوجبة الثانية، ولا أحد يعرف كم سيرسلون. والقرس على الأبواب، وعلينا أن نجتاز المستنقع قبل حلوله مهما كلف الأمر، لأن الأرض إذا جمدت لن نستطيع أن نفعل شيئاً، والأمر على النحو التالي: بينما هم مشغولون في المدينة باصطياد جميع العابثين هناك، ينبغي علينا هنا أن نضاعف سرعة عملنا، يجب أن نمد الخط ولو نموت في سبيله. لن نكون بلاشفة إذا عجزنا عن ذلك بل عجينة - لم يتحدث توكاريف بصوت عالٍ مبحوح مألوف له بل بصوت متوتر متصلب. ونمّت عيناه اللامعتان من تحت حاجبين مقطبين عن عزم وعناد.

- اليوم سنعقد اجتماعاً مغلقاً، ونتحدث بالأمر لجماعتنا، ونذهب جميعاً إلى العمل غداً، في الصباح نترك غير الحزبيين يذهبون، ونبقى نحن. وهذا قرار لجنة الولاية - وقدم القرار إلى بانكراتوف مطوياً أربع طويات.

واستطاع كورتشاغين أن يقرأ عبر كتف بانكراتوف:

ترى اللجنة من الضروري بقاء جميع أعضاء الكومسومول في العمل، ولا يسمح بإعفائهم قبل شحن أول إرسالية من الحطب.

عن سكرتير لجنة كومسومول الولاية.

ر. أوستينوفيتش.

العنبر الضيق غاص بمئة وعشرين رجلاً، وقف بعضهم عند الحائط، وآخرون صعدوا على الطاولات، بل وقسم منهم على المطبخ السيار.

افتتح بانكراتوف الاجتماع. وكان خطاب توكاريف قصيراً، إلا أن ختامه أصعق الجميع.

ـ الشيوعيون والكومسوموليون لا يذهبون إلى البلدة غداً.

وأكدت حركة يده في الهواء قطعية القرار. وبددت هذه الحركة جميع الآمال في العودة إلى البلدة، إلى الأهل، والخروج من هذه الحمأة. وفي الوهلة الأولى لم يُفهم شيء بسبب الصيحات. وخفقت ذبالة القنديل الخافتة من حركة الأجسام. ولاحت الظلال على الوجوه وازداد ضجيج الأصوات.

وتكلم فريق عن "الراحة في البيت" حالماً، واعترض آخرون، وأعلنوا عن تعبهم في صياح. وصمت كثيرون وتكلم واحد فقط عن تخليه. ارتفع صوته المنزعج من ركنه متخللاً بالشتائم:

ـ إلى الشيطان! أنا لن أبقى يوماً واحداً هنا! الناس يُرسلون للأعمال الشاقة لجريمة ارتكبوها. ونحن لأي شيء؟ أبقونا أسبوعين، وهذا يكفي. ابحثوا عن حمقى آخرين! ليأتِ الذين اتخذوا القرار، وليبنوا بأنفسهم، وليبقَ مَنْ يرغب في الخوض في هذا الوحل. أما أنا فلي حياة واحدة، سأسافر غداً.

أشعل أوكونيف عود ثقاب يريد أن يرى وجه المتخلي الذي

كان واقفاً وراءه. وأضاء العود للحظة وجهاً جهماً شوهه الغيظ. وفماً فاغراً. عرف أوكونيف أنه ابن محاسب من لجنة تموين الولاية.

ـ ماذا تفحص؟ لست لصاً لأتخفى.

انطفأ عود ثقاب. ونهض بانكراتوف بكل قامته.

ـ مَنْ هذر هناك؟ من يحسب المهمة الحزبية أعمالاً شاقة؟ ـ سأل بصوت أصم مجيلاً بصره في الواقفين على مقربة منه ـ أيها الأخوة، لا ذهاب لنا إلى البلدة، ومكاننا هنا، إذا تركنا العمل سيجمد الناس، أيها الأخوة، بقدر ما نسرع في إنهاء العمل سنسرع في العودة. والهروب من هنا، كما يريد ذاك الخرع مخالف لفكرتنا وضبطنا.

ولم يكن بانكراتوف يحب الخطب الطويلة، ولكن هذه الخطبة القصيرة قطعها الصوت الغاضب نفسه:

ـ وغير الحزبيين يعودون؟

أجاب بانكراتوف قطعاً:

ـ نعم.

تقدم من الطاولة شاب في معطف مدني قصير شاقاً طريقه خلال المزدحمين، وطارت بطاقة صغيرة فوق الطاولة كالوطواط، وضربت صدر بانكراتوف، وسقطت على الطاولة.

ـ هذه البطاقة، خذوها من فضلكم. أنا لا أضحي بصحتي من جراء هذه القطعة من الورق!

وغطت على نهاية الجملة أصوات هدرت في العنبر:

- كيف تجرؤ على رميها؟

- وغد خائن!

- دخل إلى الكومسومول ليضمن له ركناً دافئاً.

- أطردوه من هنا!

- سنعلمك يا قملة التيفوس!

نكس المتخلي عن بطاقته رأسه، وانسل نحو باب الخروج. فسحوا الطريق له، وابتعدوا عنه كالمجذوم. صر الباب الذي انسد وراءه.

التقط بانكراتوف بإصبعيه البطاقة الملقاة على الطاولة، وقربها من ذبالة القنديل. واحترق الورق المقوى، والتوى وهو يحترق.

..... ترددت طلقة في الغابة، وابتعد فرس من العنبر المتداعي يعدو بفارسه نحو الغابة. وخرج الناس يتراكضون من المدرسة والعنبر، وعثر شخص بالمصادفة على قطعة من الخشب المعاكس ألقمت في خصاصة الباب. واشتعل عود ثقاب، وحجب الناس الريح بثيابهم عن اللهب المتذبذب، وقرأوا:

"اتركوا المحطة جميعاً، وعودوا من حيث جئتم. ومن يتخلف يرمَّ بطلقة في جبينه، سنرميكم جميعاً إلى آخر رجل، ولن يرحم أحد. أعطيكم مهلة إلى الليلة القادمة".

والتوقيع: "الأتمان تشيسنوك".

وكان تشيسنوك من عصابة أورليك.

في غرفة ريتا كراسة يومياتها مفتوحة على الطاولة

"٢ كانون الأول

في الصباح تساقط أول ثلج في هذا العام.

برد قارس، التقيت بفياتشيسلاف أولشينسكي على السلم. وسرنا سوية. قال أولشينسكي:

ـ يستهويني دائماً أول الثلج. والقرس شديد، فتنة، أليس كذلك؟ ".

وتذكرت بوياركا، فأجبته بأن القرس والثلج لا يثيران في نفسي غبطة أبداً، بل حزناً، وحدثته عن السبب فقال:

ـ هذا شيء ذاتي، إذا سلمنا بأفكارك تعيّن علينا أن نعتبر الضحك وكل مظهر من مظاهر المرح في زمن الحرب، مثلاً، شيئاً محرماً، ولكن ذلك لا يوجد في الحياة. المآسي هناك، في خط الجبهة، فإن القرب من الموت هناك يطغى على الإحساس بالحياة. ولكن الناس يضحكون حتى هناك، والحياة بعيداً عن الجبهة هي نفسها: ضحك، ودموع، ترح وفرح، وظمأ إلى المباهج، والمتع، القلق والحب...

ومن الصعب أن تميز من كلمات اولشينسكي هل هو يسخر أم لا. إن اولشينسكي هو ممثل مفوضية الشعب للشؤون الخارجية. وهو عضو في الحزب منذ عام ١٩١٧. لباسه أوروبي، ووجهه حليق دائماً حلاقة متقنة ومعطر قليلاً. وهو يسكن في شقة سيغال في بيتنا. ويزورني في الأمسيات. والتحدث معه ممتع، فهو يعرف الغرب، وقد عاش زمناً طويلاً في باريس، ولكن لا أظن أننا سنصبح صديقين متقاربين، والسبب هو أنه يرى فيَّ قبل كل شيء امرأة، وبعد ذلك فقط،

رفيقة في الحزب. حقاً إنه لا يموه ميوله وأفكاره، وعنده الشجاعة الكافية ليقول الحقيقة، وليست نوازعه فظة. وهو يعرف كيف يجعلها جميلة. ولكنني لا أميل إليه.

إن بساطة جوخراي الخشنة قليلاً أقرب إلى نفسي بشكل لا يُقاس من أناقة اولشينسكي الأوروبية.

نحن نحصل على تقارير مقتضبة من بوياركا. في كل يوم تمد مئة وخمسون متراً من القضبان.

إنهم يضعون العوارض على الأرض المتجمدة مباشرة، في الأماكن المحفورة لها، مائتان وأربعون رجلاً فقط يعملون هناك. نصف الوجبة الثانية فروا من العمل. فإن الظروف شاقة حقاً. فكيف سيعملون في الصقيع؟... دوبافا هناك منذ أسبوع. استطاعوا أن يصلحوا خمس قاطرات في بوشا ـ فوديتسا من بين القاطرات الثماني، والثلاث الباقيات ليس لها قطع غيار.

رفعت إدارة الترام قضية جنائية على دميتري دوبافا: إنه وأفراد فريقه حجزوا كل عربات الترام المكشوفة الذاهبة من بوشا ـ فوديتسا إلى البلدة.

أنزلوا الركاب، وشحنوا عليها القضبان للخط الضيق. وأخذوا تسع عشرة عربة على خط البلدة إلى المحطة. وساعدهم عمال الترام بكل قواهم.

وخلال الليل شحن كومسومو ليو سولومينكا الباقون القضبان في المحطة، بينما راح دميتري دوبافا وأفراد فريقه ينقلون القضبان إلى بوياركا.

رفض أكيم أن يعرض على المكتب قضية دوبافا. حدثنا

دميتري دوبافا عن المماطلة السخيفة والبيروقراطية في إدراة الترام. فقد رفضوا إعطاء أكثر من عربتين مكشوفتين، وقد ألقى توفتا على دوبافا موعظة خلقية:

ـ حان الوقت للتخلي عن طرق حرب الأنصار، الآن يمكن أن يعاقب على ذلك بالسجن، أتزعم أن التوصل إلى اتفاق وعدم اللجوء إلى صدام مسلح مستحيلان؟

أنا لم أرَ دوبافا على هذا النحو من الضراوة.

ـ ولماذا لم تتوصل أنت، أيها المكتبي، إلى اتفاق؟ قاعد هنا، دواة الحبر، وتحرك لسانك. لو ذهبت إلى بوياركا من دون قضبان لقتلوني. يجب أن ترسل إلى هناك بدلاً من التسكع هنا ـ سيضعك توكاريف على السفود ـ هدر دميتري دوبافا مرسلاً صوته في لجنة الولاية كلها.

كتب توفتا شكوى على دوبافا، ولكن أكيم طلب إليَّ أن أخرج، وتحدث معه زهاء عشر دقائق. وخرج توفتا من أكيم أحمر الوجه غاضباً.

٣ كانون الأول

جاءت إلى لجنة الولاية شكوى أخرى من اللجنة الاستثنائية لشؤون النقل هذه المرة، ظهر أن بانكراتوف واوكونيف، وبعض الرفاق الآخرين ذهبوا إلى محطة موتوفيلوفكا، وأخذوا من المباني الفارغة الأبواب وأطر الشبابيك. وعندما شحنوها في قطار العمال حاول وكيل اللجنة الاستثنائية في المحطة اعتقالهم فجردوه من سلاحه، ولما تحرك القطار فقط أعادوا له المسدس بعد أن أخرجوا منه العتاد. وحملوا الأبواب والشبابيك معهم.

ويتهم قسم تجهيزات السكك توكاريف بأخذه عشرين بوداً من المسامير من مستودعات بوياركا من دون ترخيص.

وقد أعطاها إلى الفلاحين لقاء مساعدتهم في نقل روافد طويلة من المنشرة لتستخدم عوارض للخط الحديدي.

تحدثت مع الرفيق جوخراي عن هذه الأمور وضحك قائلاً: "سنسوي كل هذه الأمور".

الوضع في بناء الخط متوتراً جداً، ولكل يوم قيمته الغالية. نحن نضطر إلى الإلحاح في أتفه الأشياء. وبين الحين والآخر نجمع المعرقلين في لجنة الولاية. إن الفتيان في بناء الخط يتجاوزون الروتينيات باطراد.

جلب أولشينسكي لي موقداً كهربائياً صغيراً. وأنا وأوليا يورينيفا ندفئ أيدينا عليه. ولكنه لا يدفئ الغرفة على أي حال ـ كيف ستمر هذه الليلة القارسة على الذين يعملون في الغابة؟ تقول أولغا إن المستشفى بارد جداً، والمرضى لا يخرجون من تحت بطانياتهم. يدفئون مرة كل ثلاثة أيام.

لا، يا رفيق أولشينسكي، المأساة في الجبهة هي مأساة في المؤخرة أيضاً.

٤ كانون الأول

ظل الثلج يتساقط طوال الليل. يكتبون أن كل شيء في بوياركا قد تغطى بالثلج. وتوقف الفتيان عن العمل لينظفوا الطريق. اليوم أصدرت لجنة الولاية قراراً بأن ينتهي العمل في بناء المرحلة الأولى، أي إلى حدود منطقة قطع الأخشاب بتاريخ أقصاه ١ كانون الثاني ١٩٢٢. عندما نقل القرار إلى بوياركا قيل

إن توكاريف أجاب: "سننفذه إذا لم نهلك".

لم أسمع شيئاً عن كورتشاغين. العجيب إنه لم يشتبك في قضية شبيهة "بقضية" بانكراتوف. أنا لا أعرف حتى الآن لماذا لا يريد أن يقابلني.

٥ كانون الأول

يوم أمس أطلق قطاع الطرق النار على موقع بناء الخط.

الخيول تضع حوافرها بحذر على الثلج الناعم الهش. وبين الحين والآخر يطأ حافر غصناً مدفوناً تحت الثلج، ويكسره مقرقعاً، فيحمحم الحصان، ويتراجع جافلاً، ولكنه يعاود الجري بعد أن يتلقى ضربة بالبندقية ما بين أذنيه المرسلتين إلى الخلف، ويلحق ببقية الخيول.

عبر زهاء عشرة خيول الحافة المرتفعة التي كان يقع وراءها شريط من الأرض السوداء التي لم يغطها الثلج بعد.

في تلك البقعة ربط الفرسان خيولهم. وطقطقت الركاب مصطدمة بعضها ببعض. ونفض جواد الفارس الأمامي كل جسمه العرق بسبب الجري الطويل محدثاً ضوضاء. وقال الراكب المتقدم بالأوكرانية:

- إنهم كثيرون جداً هنا ولكننا سنضع خوف الرب في أفئدتهم. حالاً. قال الأتمان يجب أن يكونوا في الغد مطرودين من هنا. إنهم يقتربون من الحطب سريعاً...

ساروا نحو المحطة في صف واحد، بمحاذاة الخط الضيق. ولما اقتربوا من فرجة الغابة عند المدرسة القديمة أبطأوا السير، وتوقفوا وراء الأشجار من دون أن يخرجوا إلى الفرجة.

بددت طلقة سجو الليل المظلم. وانزلقت تلة من الثلج كالسنجاب من غصن شجرة بتولا بدت فضية في ضوء القمر. ولمعت بين الأشجار فوهات البنادق مرسلة شرراً، ونفذ الرصاص في الجبس الهش، فهشم زجاج النوافذ الذي جلبه بانكراتوف، وصدرت منه قرقعة شاكية.

انتزع صوت الرصاص النائمين على الأرض الإسمنتية، وأوقفهم على أقدامهم، ولكن الذعر أعادهم إلى الأرض متساقطين بعضهم على بعض حين تطايرت الحشرات المهلكة في الغرف.

- إلى اين؟ - أمسك دوبافا بمعطف بافل.

- إلى الفناء.

همس دميتري دوبافا بحرارة:

- تمدد، أيها الأحمق! سيقتلونك في لحظة ظهورك.

كانا مستلقين في الغرفة بالقرب من الباب تماماً. التصق دوبافا بالأرض ماداً يده بالمسدس صوب الباب، وقرفص كورتشاغين ، متلمساً بأصابعه رؤوس الطلقات في عيون مسدسه بحركة عصبية. كانت فيها خمس رصاصات. وتلمس العيون الفارغة. وأدار الأسطوانة.

توقف الرمي. وساد سكون غريب.

أمر دوبافا الممددين على الأرض همساً:

- يا فتيان، كل من عنده سلاح يتجمع هنا.

فتح كورتشاغين الباب بحذر، فرجة الغابة خالية، وقطع الثلج تتساقط بعد أن تحوم في الهواء.

أما في الغابة فكانوا هناك يسوطون خيولهم.

في الظهيرة وصلت عربة ترولي من البلدة، ونزل منها جوخراي وأكيم. استقبلهما توكاريف وخولياڤا. أنزلوا من عربة الترولي رشاشة من طراز "مكسيم"، وبعض مخازن العتاد وعشرين بندقية، ونصبوا الرشاشة على الرصيف.

وركضوا مسرعين نحو مكان الأعمال. كانت حواشي معطف جوخراي تترك أثراً ملتوياً على الثلج، كانت مشيته مترنحة، كمشية الدب، فهو لم يتخلَّ بعد عن عادته القديمة في تدوير ساقية كالبركار، وكأنما لا يزال يسير على سطح مدمرة متمايلة. وكان توكاريف مضطراً، بين الحين والآخر، إلى أن يركض للحاق برفيقيه. وكان أكيم الطويل القامة يحرك قدميه على حركة قدمي فيدور.

ـ غارة العصابة تهونه. هناك أكمة متحدرة تعترض تماماً. بلية مسلَّطة علينا، عليها اللعنة! سنضطر إلى أن نحفر كثيراً من التراب.

توقف العجوز، وأدار ظهره للريح، وأشعل سيكارة مكوراً كفيه، وبعد أن نفث الدخان بعض المرات أخذ يلحق باللذين سبقاه. توقف أكيم ينتظره، بينما مضى جوخراي في سبيله غير متريث.

سأل أكيم توكاريف :

ـ هل لديكم من القوة ما يكفيكم لمد الخط في الموعد المحدد؟

لم يُجب توكاريف رأساً، إلا أنه قال بعد برهة:

ـ اسمع، يا بني! إذا أخذت المسألة بشكلها العام لا يمكن مد الخط في الموعد المحدد، ولكن لا يجوز أيضاً عدم إتمامه وهذا جوهر المسألة.

لحقا بفيدور، وسارا إلى جانبه. وبدأ توكاريف يتحدث منفعلاً:

ـ وهنا تبدأ "لكن" هذه. أنا وباتوشكين وحدنا نعرف أن مد الخط بمثل هذه الظروف اللعينة، وبمثل هذه المعدات وعدد العمال، مستحيل. ولكن إلى جانب ذلك يعرف الجميع من دون استثناء أنه يجب إتمام مده. ولهذا السبب أجزت لنفسي أن أقول "سننفذه إذا لم نهلك". أحكما بأنفسكما، نحن ماضون في الحفر منذ أكثر من شهر، والوجبة الرابعة توشك أن تنتهي من مدة عملها، وبينما الجماعة الأساسية من العمال تعمل مع الوجبات الأربع من دون انقطاع وقوة الشباب هي التي تجعلها تصمد. إن نصفهم قد أصيب بالبرد. عندما تنظر إلى هؤلاء الفتية ينعصر قلبك عليهم. لا يقدرون بثمن.... إن هذا الجب الملعون سيودي بحياة بعضهم.

كان الخط الضيق الكامل كلياً يمتد إلى مسافة كيلومتر واحد من المحطة.

وبعدها تمتد إلى مسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر تقريباً خشبات طويلة مغروزة في الأرض تبدو مثل سياج ألقت به الريح أرضاً. إنها عوارض السكة. وأبعد من ذلك، حتى الأكمة ذاتها، ليس هناك سوى شريط من الأرض فقط.

في هذا المكان كانت تعمل جماعة البنائين الأولى التي

يقوها بانكراتوف. أربعون شخصاً كانوا يضعون العوارض في الأرض. أفرغ فلاح ذو لحية صهباء وحذاء جديد من الليف زلاجة من الخشبات على شريط الأرض غير متعجل. بينما كانت زلاجات أخرى تفرغ على مسافة أبعد وكان هناك قضيبان حديديان طويلان ملقيين على الأرض يستخدمان لقياس مستوى العوارض. كانت الفؤوس والمخلات والمجارف تُستخدم لرص الأرض وتسويتها.

مد العوارض عمل مجهد بطيء . فإنها يجب أن توضع على الأرض بمتانة وثبات بحيث تستقر القضبان باستواء على كل عارضة منها.

وكان يعرف تكنيك مد العوارض رجل واحد هو عامل بناء الطرق لاغوتين، الشيخ ذو اللحية المشطورة السوداء والشعر الذي لم تشب شعره فيه وهو في سنه الرابعة والخمسين. وقد عمل مع الوجبات الأربع متطوعاً، وتحمل مع الشباب كل المشاق، واستحق احترام جميع العاملين. إن هذا الرجل اللا حزبي (والد تاليا) كان دائماً يحتل مكان الشرف في جميع المداولات الحزبية. واعتزازاً بذلك قطع عهداً بأن لا يتخلى عن البناء.

كان يقول كلما استبدلت وجبة بأخرى، ويبقى مع الوجبة الجديدة:

ـ كيف يمكنني أن أترككم؟ سيرتبك عليكم الأمر بدوني، فإن مد العوارض يحتاج إلى عين بصير، إلى تجربة، أنا أفنيت عمري كله مع هذه العوارض في طول روسيا وعرضها.

وكان باتوشكين يثق به، ونادراً ما يتفقد منطقة عمله. عندما اقترب توكاريف مع جوخراي وأكيم من المشتغلين كان بانكراتوف يحفر بالفأس موضعاً لعارضة وهو عرق محمر.

ما كاد أكيم يعرفه، فقد نحف بانكراتوف، ولاح عظما وجنتيه العريضان أكثر بروزاً، وأربد وجهه الذي لم يغسل جيداً وضمر.

قال وقدم إلى أكيم يده الحارة الرطبة:

ـ آه، حضرت الولاية!

كفت الأرفاش عن التصويت. ورأى أكيم في ما حوله وجوهاً شاحبة. كانت المعاطف والسترات المخلوعة ملقاة على الثلج مباشرة.

بعد أن تحدث توكاريف مع لاغوتين أمسك بانكراتوف، وقاد القادمين إلى موقع الحفر. سار بانكراتوف إلى جانب فيدور صامتاً.

سأله فيدور بلهجة جادة:

ـ حدثني، يا بانكراتوف، ماذا حدث لكم مع وكيل اللجنة الاستثنائية في موتوفيلوفكا؟ ألا ترى أنكم تجاوزتم الحد بعض الشيء مع هذا الوكيل الذي جُرّد من سلاحه؟

ابتسم بانكراتوف بارتباك:

ـ جردناه من السلاح حسب الاتفاق. هو الذي طلب ذلك. إنه فتى طيب وقد حدثناه عن كل أوضاعنا. فقال لنا: "لا يحق لي، يا أولاد، أن أسمح لكم بأخذ الأبواب والشبابيك فهناك أمر من الرفيق دزرجينسكي عن إيقاف نهب ممتلكات السكك. ومدير

المحطة يعاديني لأن هذا الوغد يسرق، وأنا واقف له بالمرصاد. وإذا سمحت لكم سيخبر عني الدائرة، وأحاكم أمام محكمة ثورية. جردوني من السلاح وأمضوا في حال سبيلكم. وإذا لم يخبر المدير عن الأمر فسينتهي عند هذا الحد". وفعلنا ما نصح به، فنحن لم نأخذ الأبواب والشبابيك لأنفسنا!...

وأضاف بانكراتوف حين لاحظ ألق ضحكة في عيني جوخراي:

ـ لنتحمل التبعية وحدنا، فلا تضايقوا ذلك الشاب، يا رفيق جوخراي.

ـ كل ذلك مضى وانقضى، ولا يجوز أن تكرر مثل هذه الأشياء في المستقبل، فذلك خرق للضبط، إننا نملك القوة الكافية لتحطيم البيروقراطية بطريقة منظمة. حسناً، لنتحدث عن أشياء أهم ـ وبدأ فيدور يسأل عن تفاصيل الغارة.

على بعد أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر عن المحطة كانت الأرفاش تضرب الأرض بشدة، كان الناس يشقون الأكمة التي كانت تقف في طريقهم.

وعلى الجانبين وقف سبعة أشخاص مسلحين بكل ما لدى فرقة العمل من السلاح: قربينة خولياڤا، ومسدسات كورتشاغين، وبانكراتوف، ودوباڤا، وخوموتوف.

كان باتوشكين جالساً على رأس الأكمة يكتب أرقاماً في دفتر السجل حيث بقي المهندس الوحيد في موقع العمل. فقد فضل فاكولينكو المحاكمة بتهمة الهروب على الموت برصاص قطاع الطرق، وعاد إلى البلدة في الصباح بعد ليلة الحادث.

ـ سنقضي أسبوعين في حفر الأكمة، فإن الأرض قد تجمدت ـ قال بتوشكين بصوت خفيض لخوموتوف الواقف أمامه، الأهوج المتجهم دائماً، المقتصد بالكلام.

أجابه خوموتوف:

ـ هم يعطوننا لإنجاز الطريق كله خمسة وعشرين يوماً فقط، بينما أنت تخصص للأكمة خمسة عشر يوماً ـ وأمسك بشفته طرف شاربه غاضباً.

ـ ليس هذا الموعد واقعياً. حقاً، إنني لم أشتغل في ظروف كهذه، ومع مثل هؤلاء الناس. وقد أكون على خطأ، كما حدث لي مرتين.

في تلك اللحظة وصل جوخراي وأكيم وبانكراتوف إلى الأكمة. أبصرهم الذين كانوا على الأكمة.

ـ انظر، من هذا؟ ـ قال ذلك بيتكا تروفيموف الميكانيكي الشاب ذو العينين الضيقتين من ورش السكك الذي كان يرتدي سويتراً ممزقاً من مرفقيه، ولكز كورتشاغين بكوعه، مشيراً بإصبعه إلى أسفل الأكمة. وفي تلك اللحظة انطلق كورتشاغين هابطاً الأكمة من دون أن يضع الرفش من يديه. وتبسمت عيناه بدفء تحت ظليلة خوذته.

وشد فيدور على يده مدة أطول من الآخرين:

ـ مرحباً، يا بافل، ما كدت أعرفك في هذا الهندام العجيب.

ضحك بانكراتوف ضحكة معوجة:

ـ لا بأس بهندامه، كل أصابعه الخمس طالعة للتهوية. وفضلاً عن ذلك أخذ الهاربون معطفه معهم. فأعطاه أوكونيف

شريكه في الكومونة سترته هذه. لا بأس بذلك، بافل فتى لا تعوزه الحرارة.

ـ سيتدفأ أسبوعاً آخر على الأرضية الإسمنتية. القش الذي عليها غير نافع تقريباً، ثم "يدفأ في التابوت".

ـ قال بانكراتوف ذلك لأكيم بلهجة حزينة.

اعترض أوكونيف الأسود الحاجبين، الأفطس قليلاً، مقلصاً عينيه الماكرتين:

ـ لن نفرط في بافل. سننتخبه طباخاً في المطبخ يساعد أوداركا. فهناك، إذا لم يكن غبياً، سيأكل أكثر. ويتدفأ. إن لم يكن عند الموقد، فبالقرب من أوداركا على الأقل.

وغطى على كلماته ضحك شامل.

في ذلك اليوم ضحكوا للمرة الأولى.

فحص فيدور الأكمة، ثم ركب الزلاجة مع توكاريف، وباتوشكين، وذهبوا إلى موقع قطع الأخشاب، ولما عادوا من هناك كان الرجال يحفرون الأكمة بنفس الصلابة. نظر فيدور إلى أرفاش العاملين، وإلى الظهور التي أحنتها شدة الجهد، وقال لأكيم بصوت خفيض:

ـ لا حاجة إلى الاجتماع، لا يحتاج أحدهم إلى حث. كنت على حق يا بانكراتوف حين قلت إنهم لا يُقدرون بثمن. هنا يُسقى الفولاذ.

حدقت عينا جوخراي إلى حفاري الأرض بإعجاب، وفخر شديد وحنان، فقبل وقت قصير فقط كان قسم من هؤلاء الحفارين يصلصل بحرابه في عشية العصيان. أما الآن فيشغلهم

قصد واحد هو توصيل شرايين الخط الحديدي إلى ثروات الحطب المنشودة

ـ مصدر الدفء والحياة.

أثبت باتوشكين لفيدور بأدب وبإقناع أن من المستحيل حفر الأكمة في أقل من أسبوعين، وأصغى فيدور، وقرر شيئاً في سره:

ـ أتركوا العمل في الأكمة، وأشرعوا في شق الطريق وراءها، سنعالج الأكمة بطريقة أخرى.

قضى جوخراي وقتاً طويلاً عند التلفون في المحطة. وكان خوليافا يحرس عند الباب. فسمع من وراء ظهره صوت فيدور العالي النبرة:

ـ تلفن الآن باسمي إلى هيئة أركان المنطقة العسكرية، وليحولوا فوج بوزيريفسكي إلى منطقة البناء حالاً. من الضروري تنظيف المنطقة من الشقاة. أرسلوا من القاعدة القطار المصفح مع رجال النسف. وسأتكفل أنا بالباقي. سأعود ليلاً. أرسلوا ليتكه مع السيارة إلى المحطة في نحو الثانية عشرة.

في العنبر تحدث جوخراي بعد خطاب قصير ألقاه أكيم. انقضت ساعة خَلَسا في محادثة رفاقية.

تحدث فيدور للبنائين عن استحالة تأجيل موعد إكمال الخط المحدد بالأول من كانون الثاني.

ـ سنقوم بالعمل بعد الآن في حالة وضع حربي. الشيوعيون يشكلون سرية من قوات المهمات الخاصة. ويعين الرفيق دوبافا آمراً للسرية. وتحصل جميع جماعات العمل الست على مهمات

محددة. وتُقسم الأعمال المتبقية على الجماعات الست بالتساوي وستحصل كل جماعة على حصتها من العمل. وجميع الأعمال يجب أن تتم في نحو الأول من كانون الثاني. وللجماعة التي تتم عملها قبل الموعد الحق في الاستراحة والعودة إلى البلدة.

وفضلاً عن ذلك ستقدم هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية للولاية توصية إلى اللجنة التنفيذية المركزية لعموم أوكرانيا بمنح وسام الراية الحمراء إلى أحسن عامل في هذه الجماعة.

وحدد رؤساء جماعات العمال: للأولى الرفيق بانكراتوف، وللثانية الرفيق دوبافا، وللثالثة الرفيق خوموتوف، وللرابعة الرفيق لاغوتين، وللخامسة الرفيق كورتشاغين. وللسادسة الرفيق أوكونيف.

وأنهى جوخراي خطابه قائلاً:

ـ أما رئيس موقع البناء، وقائده الفكري ومنظمه فيبقى انتون نيكيفوروفيتش توكاريف من دون تبديل.

وصفقت الأيدي وكأن سرباً من الطيور طار وصفق بأجنحته، وابتسمت الوجوه الكالحة، وأنهت العبارة الأخيرة الدعابية الودود التي قالها رجل جدي جذب انتباه المجتمعين الطويل بعاصفة من الضحك.

ودَّع حوالى عشرين شخصاً أكيم وفيدور إلى عربة الترولي محتشدين حولها.

ودَّع فيدور كورتشاغين، ونظر إلى كالوشه المغطى بالثلج وقال بصوت خفيض:

ـ سأرسل لك حذاءً، ألم تجمد قدميك بعد؟

ـ يبدو كذلك... أخذتا تتورمان ـ أجاب بافل، وتذكر رجاؤه القديم، فأمسك فيدور من كمه ـ ألا تعطيني بعض الخراطيش لمسدس الناغان؟ عندي ثلاث إطلاقات حية فقط.

هزّ جوخراي رأسه متأسفاً، ولكنه رأى خيبة في عيني بافل، فعدل عن قوله وفك مسدسه الموزر.

ـ هذه هديتي لك.

لم يصدق بافل لأول وهلة أنه يُهدى شيئاً حلم به منذ زمن طويل، إلا أن جوخراي ألقى حمالة المسدس على كتف بافل.

ـ خذه، خذه! أنا أعرف أن عينيك تحومان عليه من زمان. ولكن احذر عليه، لا ترمِ جماعتك به. وهذه ثلاثة أمشاط كاملة له.

أحدقت ببافل نظرات ظاهرة الحسد وصاح أحدهم:

ـ بافل، بادلني إياه بحذاء وفروة.

ضرب بانكراتوف بافل على ظهره بخبث:

ـ بدله بحذاء لبادي. فأنت على أي حال لن تعيش في هذا الكالوش إلى عيد الميلاد.

وضع جوخراي قدمه على مرقاة عربة الترولي ليكتب ترخيصاً بالمسدس المهدى.

في الصباح الباكر تقدم من المحطة القطار المصفح مقرقعاً بمحولات السكة. وتصاعد البخار المنطلق كريش البجع الأبيض الناعم متبدداً على الفور في الهواء المتجمد الصافي. وأطل من العلب المصفحة أشخاص مدرّعين بالجلد. وبعد بضع ساعات دفن ثلاثة نسافين من القطار المصفح كتلتين سوداوين كبيرتين

كثمرتي القرع عميقاً في باطن الأكمة، وأخرجوا منهما فتائل طويلة، وأطلقوا طلقات للإنذار، وفي الحال تراكض الناس إلى جميع الجهات مبتعدين عن الأكمة التي أصبحت مخيفة الآن. وبعود ثقاب قُرب من نهاية فتيل توهج توهجاً فوسفورياً.

وللحظة واحدة جمدت قلوب مئات الناس. وساد صمت معذب لدقيقتين أو ثلاث... اهتزت الأرض، ومزقت قوة رهيبة أعلى الأكمة، وارتفعت إلى الأعلى كتل كبيرة من التراب. وكان الانفجار الثاني أقوى من الأول، وسرى الهدير الرهيب في الغابة المحيطة، مالئاً إياها بخليط من الأصوات المنبعثة من الأكمة التي استحالت ركاماً.

وهناك، في المكان الذي كانت الأكمة تحتله انفرجت حفرة عميقة، وعلى بعد عشرات الأمتار حولها تناثرت الأرض المتفتتة على الثلج الناعم كمسحوق السكر.

وتراكض الناس إلى الحفرة التي خلفها الانفجار حاملين المعاول والمجارف.

برحيل جوخراي من موقع البناء احتدمت مباراة عنيدة ـ نضال من أجل الأولوية.

قبيل الفجر بوقت طويل نهض كورتشاغين بهدوء من دون أن يوقظ أحداً، وذهب إلى المطبخ لا يكاد يحرك رجليه المتخشبتين على الأرض الباردة. بعد أن أغلى ماء في السخان عاد وأيقظ جماعته.

وعندما استيقظت جماعة العمل كلها كان ضوء الصباح الوليد يملأ الدنيا.

في فترة الشاي الصباحية في العنبر شق بانكراتوف طريقه إلى الطاولة التي جلس وراءها دوبافا وأفراد جماعته. وقال له متأثراً:

ـ أنظر، يا دميتري! ها هو بافل قد أيقظ جماعته مع أول خيط من الفجر، وهم الآن قد حفروا خمسة عشر متراً في أغلب الظن. والأولاد يقولون إنه ملأ جماعته من ورش القطار بالعزيمة، فقرروا أن ينهوا حصتهم من العمل في الخامس والعشرين من كانون الأول. يريد أن يضربنا جميعاً على أنوفنا، ولكنني أقول: أصبر وسنرى.

ابتسم دوبافا متضايقاً. كان يعرف جيداً لماذا تأثر سكرتير كومسومول الميناء النهري لتصرف جماعة ورش القطار. وهو أيضاً، دوبافا صديق بافل، قد أثاره ذلك، عزم بافل على منافسة فريق العمل كله من دون أن يقول كلمة عن ذلك.

قال بانكراتوف:

ـ الصداقة شيء، والعمل شيء آخر، هنا يفوز المتفاني الجسور.

حوالى الظهر انقطع عمل جماعة كورتشاغين بصورة مفاجئة بعد أن كان يسير في حماس. لاحظ الحارس الواقف عند البنادق الموضوعة في مشاجبها جماعة من الخيالة بين الأشجار، فأطلق رصاصة الإنذار.

ـ إلى السلاح، يا إخوان! الشقاة ـ صاح بافل، وألقى المجرفة، وانطلق نحو الشجرة التي علّق عليها مسدسه الموزر.

تخاطف أفراد الجماعة الأسلحة الموجودة، استلقوا على

الثلج مباشرة، عند حافة الطريق. لوَّح الفرسان في المقدمة بقبعاتهم. وصاح أحدهم:

ـ على مهلكم، يا رفاق! نحن منكم!

ظهر خمسون فارساً يرتدون القبعات البوديونوفية ذات النجوم الحمر، وتقدموا في الطريق.

وتبين أن مفرزة من فوج بوزيريفسكي جاءت لزيارة موقع البناء. لفتت انتباه بافل أذن فرس الآمر المبتورة، كانت فرساً رمادية جميلة على جبهتها طرة بيضاء، تتوثب غير مستقرة في مكان، "ترقص" تحت فارسها، ارتدت مجفلة إلى الوراء حين ركض بافل إليها، وأمسك مقودها.

ـ ليسكا، يا حلوة! ها قد التقينا مرة أخرى! تخطتك الرصاصة، يا جميلة، يا وحيدة الأذن.

وطوق عنق الفرس الدقيق بحنان، ومسَّد بيده منخريها المرتجفين. ثبت الآمر بصره في بافل، ولما عرفه ندت منه آهة تعجب:

ـ أنت كورتشاغين! عرفت الفرس، ولكنك لم ترفع بصرك إلى سيريدا. يا مرحباً، يا صاح!

في البلدة تم التشديد على جميع القوى، وظهر أثر ذلك في موقع البناء في الحال. أفرغ جاركي لجنة كومسومول المنطقة بعد أن أرسل بقية أفراد المنظمة إلى بوياركا، ولم يبقَ في سولومينكا إلا الفتيات. كما استطاع جاركي أن يرسل إلى موقع البناء جماعة جديدة.من طلاب مدرسة السكك المهنية.

وقال في شيء من المزاح وهو يعلن كل ذلك لأكيم:

ـ بقيت أنا والبروليتاريا النسائية وحدها. سأضع تاليا لاغوتينا في مكاني، ونكتب على الباب "القسم النسائي". وأذهب إلى بوياركا. يحرجني أن أبقى الرجل الوحيد، وحولي نساء، الفتيات ينظرن إليَّ في ريبة، أغلب الظن أنهن يثرثرن في ما بينهن قائلات "فرَّق الجميع، وبقي هو بطة محجلة".

أو أسوأ من هذا، أرجو أن تأذن لي بالذهاب.

رفض أكيم ضاحكاً.

توافد الناس على بوياركا. كما وصل ستون طالباً من مدرسة السكك المهنية.

استطاع جوخراي أن يقنع إدارة السكك بإرسال أربع عربات ركاب ليعيش فيها القادمون الجدد.

أعفيت جماعة دوبافا من العمل، وأرسلت إلى بوشا ـ فوديستا لتجلب إلى الخط الجديد القاطرة، وخمس وستين عربة مكشوفة تسير على الخط الضيق. واعتبرت هذه المهمة جزءاً من حصتها في عملهم في البناء.

نصح دوبافا توكاريف قبيل السفر باستدعاء كلافيتشيك إلى موقع البناء، وتسليمه الجماعة الجديدة، وأصدر توكاريف هذا الأمر غير عارف بالسبب الحقيقي الذي حمل دوبافا على تذكر التشيكي. وكان السبب مذكرة من آنا أرسلت مع القادمين الجدد.

كتبت آنا له: "دميتري! أعددنا لكم، أنا وكلافيتشيك، مجموعة كبيرة من المؤلفات. تحيتنا الحارة لك ولجميع الصداميين في بوياركا. ما أروعكم من فتية! نتمنى لكم مزيداً من القوة والحماس. يوم أمس وزعنا آخر احتياطات الحطب

الموجودة في المستودعات.

طلب كلافيتشيك أن أرسل لك تحيته. إنه فتى رائع! يخبز لكم بنفسه، ولا يثق بأحد في المخبز. يدير الطحين بنفسه، ويعجن العجين. وقد حصل على طحين جيد من مكان ما، وخبزه ممتاز ليس كالخبز الذي أحصل عليه. وفي الأمسيات يجتمع رفاقنا عندي: لاغوتينا وارتيوخين وكلافيتشيك، وأحياناً جاركي. والدراسة تتقدم قليلاً، ولكننا في الغالب نمضي الوقت في الحديث عن كل شيء، وعن الجميع، وفي أغلب الأحيان عنكم. الفتيات غاضبات على توكاريف لرفضه السماح لهن بالذهاب إلى موقع البناء. وهن يؤكدن على أنهن سيتحملن المشاق أسوة بالرجال. وتقول تاليا: "سألبس ملابس أبيَ، وأظهر أمامه فليحاول إخراجي من هناك".

أظن أنها ستفعل ذلك. بلغ تحيتي للأسود العينين. آنا".

هبّت عاصفة ثلجية فجأة. غطت السماء سحب رمادية تتحرك منخفضة. وتساقط الثلج بكثافة. وفي المساء أعولت الريح في المداخن ودوت بين الأشجار ملاحقة دوامة ثلجية.

ظلت العاصفة تهدر وتعربد طوال الليل. ويتجمد الناس حتى العظام، على الرغم من أن الموقد ظل متقداً طوال الليل، ذلك لأن المحطة الخَرِبة لم تكن تحتفظ بالدفء.

في الصباح كان الناس الخارجون إلى العمل تغوص أرجلهم في الثلج العميق، وكانت الشمس فوق الأشجار تلوح مثل كتلة ملتهبة في السماء الزرقاء الخالية من كل سحابة.

أزالت جماعة كورتشاغين غطاء الثلج من موقع عملها. الآن

فقط أحس بافل بمبلغ معاناته المؤلمة من البرد. لم تدفئه سترة أوكونيف القديمة، وكان كالوشه يمتلئ بالثلج. أضاعه مرات في أكوام الثلج. وكان حذاء القدم الأخرى موشكاً على التمزق كلياً. وبرزت في عنقه دملتان كبيرتان بسبب النوم على الأرض. وكان يستعمل الفوطة التي أعطاها له توكاريف لفافاً له.

كان بافل الهزيل ذو العينين الملتهبتين يرفع الثلج بمجرفته الخشبية العريضة بادي الهمة.

وكان قطار ركاب يدب داخلاً المحطة في الوقت نفسه، وكانت قاطرته اللاهثة تجره بالكاد إذ لم تكن في صندوقها خشبة واحدة، بينما كانت آخر الخشبات محترقة في موقده.

صاح سائق القطار بمدير المحطة:

- إذا تعطوننا حطباً نذهب، وإلا حولوا القطار إلى خط التخزين حتى يكون هنا ما يتحرك به!.

حولوا القطار إلى خط التخزين، وأخبروا الركاب الزعالى بسبب التوقف. وارتفع التذمر والسباب في العربات الممتلئة بالناس.

نصح مدير المحطة مرافقي العربات:

- تحدثوا مع العجوز. ها هو على الرصيف. إنه رئيس موقع البناء، ويستطيع أن يأمر بنقل الأخشاب إلى القاطرة على زلاجات. إنهم يستعملونها عوارض للخط.

فذهب هؤلاء للقاء توكاريف الذي قال لهم:

- أعطيكم حطباً، ولكن ليس بلا مقابل. إنه مادتنا في

البناء، وقع عندنا ثلج كثير. وفي القطار ستمئة أو سبعمئة راكب. ليبق الأطفال والنساء في العربات، وليأت الآخرون وليأخذوا المجارف، ويرفعوا الثلج حتى المساء. ولقاء ذلك سيحصلون على الوقود ـ وإذا رفضوا اتركوهم يقعدون حتى العام الجديد.

تحدثت أصوات دهشة وراء كورتشاغين:

ـ انظروا، يا فتيان، إلى هؤلاء القادمين الكثيرين! انظروا، بينهم نساء أيضاً!

التفت بافل.

تقدم منه توكاريف، وقال:

ـ هؤلاء مائة، أعطهم عملاً، ولا تدعهم يتسكعون.

وزع كورتشاغين العمل على القادمين الجدد. كان بينهم رجل مديد القامة في معطف المشتغلين في السكك له ياقة فرائية، وقبعة دافئة من فراء الاستراخان أخذ يدير المجرفة في يديه مغتاظاً، واحتج مخاطباً امرأة شابة كانت واقفة بالقرب منه ترتدي قبعة من فراء عجل البحر في أعلاها خصلة وبرية:

ـ لا أريد أن أرفع الثلج، ولا يحق لأحد أن يجبرني على ذلك. أستطيع أن أدير العمل لو يطلبون إليَّ باعتباري مهندس سكك، ولكن لا أنا ولا أنت ملزمان على رفع الثلج. إن هذا غير منصوص عليه في القواعد المتبعة. والعجوز يتصرف خلافاً للقانون. سأحمله المسؤولية، من هو المشرف هنا؟ ـ سأل العامل القريب منه.

تقدم كورتشاغين :

ـ لماذا لا تعمل، أيها المواطن؟

صعد الرجل نظرة احتقار في كورتشاغين من قدميه حتى رأسه.

ـ ومن أنت ؟

ـ أنا عامل.

ـ إذاً لا حديث لي معك. أرسل لي المشرف، أو الذي عندكم...

نظر كورتشاغين إليه شزراً.

ـ لا تعمل إذا لا تريد العمل، ولكنك لن تركب القطار من دون تأشيرتنا على بطاقتك، هذا أمر رئيس البناء.

ـ وأنت أيتها المواطنة ترفضين أيضاً؟ ـ التفت بافل نحو المرأة ـ وصعق فجأة فقد رأى أمامه تونيا تومانوفا.

وعرفته تونيا بصعوبة وهو في أسماله المهلهلة، وحذائه العجيب، والفوطة القذرة حول عنقه، ووجهه لم يغسل منذ وقت طويل. كانت عيناه فقط تتقدان ناراً كما في الماضي. إن هذا الرث الشبيه بصعلوك متشرد كان حبيبها منذ وقت ليس بالطويل جداً. فما أكثر ما تغير كل شيء!

كانت قد تزوجت منذ فترة قصيرة، وهي وزوجها مسافران الآن إلى المدينة حيث يحتل زوجها منصباً مهماً في إدارة السكك. وها هي قد التقت هنا بهواها الصبوي. تحرجت حتى من أن تمد له يدها. فماذا سيظن فاسيلي؟ وضايقها أن ينحدر كورتشاغين هذا الانحدار. يبدو أن صبي الوقاد لم يرتفع أكثر من عامل حفر.

وقفت مترددة، واحمرت من الارتباك. واغتاظ مهندس

السكك مما بدا له تصرفاً وقحاً من جانب الصعلوك الذي ثبت بصره في زوجته، ألقى المجرفة على الأرض وتقدم من تونيا.

ـ لنذهب يا تونيا. أنا لا أستطيع أن أتحمل النظر إلى هذا اللازاروني.

وكان كورتشاغين يعرف ماذا تعني "لازاروني"[1] من قراءته لكتاب "جوزيبه غاريبالدي".

ـ إذا كنت لازاروني، فأنت لا أكثر من برجوازي فالت ـ رد بافل على المهندس بصوت أجش، ونقل بصره إلى تونيا، وأضاف بجفاء: ـ خذي المجرفة يا رفيقة تومانوفا، وقفي في الصف. ولا تقتدي بهذا الثور المسمن. اعذريني، أنا لا أعرف علاقتك به.

وابتسم بافل بجفاء، وهو ينظر إلى حذاء تونيا الفرائي، وأضاف عرضاً:

ـ أنا لا أنصحك بالبقاء. قبل أيام هاجم الشقاة المكان. ـ واستدار ومشى إلى جماعته يخفق بكالوشه.

أثرت الكلمات الأخيرة على مهندس السكك أيضاً.

وأقنعته تونيا بمواصلة العمل.

في المساء عاد الناس إلى المحطة بعد أن أنهوا العمل. سار زوج تونيا إلى الأمام متعجلاً ليحجز مكانين في القطار. وتوقفت تونيا لتفسح الطريق للعمال، وقد سار كورتشاغين في مؤخرة

---

(١) بالإيطالية تعني الفقير الذي يعيش على التسول أو الأعمال الطارئة. المترجم.

الجميع منهكاً، معتمداً على مجرفته.

قالت تونيا وهي تسير إلى جانبه:

ـ مرحباً، بافلوشا، اعترف أنني لم أتوقع أن أراك على هذه الحال، أمن المعقول أنك لم تستحق من السلطة شيئاً أحسن من حفر الأرض؟ كنت أظن أنك قد أصبحت منذ وقت طويل قوميساراً، أو شيئاً من هذا القبيل. انظر كيف صارت حياتك ...

توقف بافل. ورمق تونيا بنظرة استغراب وأخيراً وجد الكلمة المناسبة الأكثر أدباً:

ـ وأنا أيضاً لم أتوقع أن ألتقي بك وأنت على هذه الحال... جامدة.

احمرت شحمتا أذني تونيا.

ـ ما تزال على غلظتك!

ألقى بافل مجرفته على كتفه، ومشى. وبعد أن سار بضع خطوات أجاب:

ـ غلظتي أخف مما يسمى رقتك تجوزاً، يا رفيقة تومانوفا. لا حاجة إلى القلق على حياتي، فكل شيء فيها بخير، بينما حياتك صارت أسوأ مما توقعت. قبل عامين كنت أحسن، فلم تكوني تخجلين من مد يدك إلى عامل. أما الآن فأنت تفوحين نفتالينا ـ وأقول لك بإخلاص ليس عندي ما أكلمك به.

تلقى بافل رسالة من أرتيم. كتب الأخ عن زفافه القريب، وطلب من بافل أن يحضره مهما يكن من الأمر شيء.

انتزعت الريح من يدي كورتشاغين الورقة البيضاء، وارتفعت في الهواء مثل حمامة. إنه لن يحضر الزفاف، فهل من

المعقول أن يترك العمل؟ بالأمس فقط سبق الدب بانكراتوف جماعته، وتقدم عليها بسرعة أذهلت الجميع، إن عامل الشحن هذا كان يسير قدماً ليحرز قصب السبق، فقد هدوءه المعتاد، وأثار حماس جماعته إلى العمل بوتائر جنونية.

راقب باتوشكين الضراوة الصامتة التي يعمل فيها الرجال، وسأل نفسه حاكاً صدغيه باندهاش: "أي ناس هؤلاء؟ وأي قوة عجيبة؟ إذا استمر الطقس على هذا المنوال ولو ثمانية أيام أخر، فإننا سنصل إلى موقع قطع الأخشاب. يعني: لو عشت دهراً وتعلمت دهراً فستظل جاهلاً في الشيخوخة، هؤلاء الناس يضربون بعملهم جميع التقديرات والمعدلات".

وصل كلافيتشيك من البلدة حاملاً معه آخر وجبة من خبزه. قابل توكاريف، وأخذ يبحث عن كورتشاغين في العمل. تبادل الرجلان التحية بمودة، وأخرج كلافيتشيك من الكيس، وهو يبتسم، سترة جلدية فرائية سويدية صفراء جميلة، ومسد بكفه على جلدها اللدن وقال:

ـ هذه لك.... أتحزر ممن؟ ... هوه! أنت غير نبيه! أرسلتها لك الرفيقة أوستينوفيتش حتى لا تتجمد، يا أحمق. أهداها الرفيق أولشينسكي لها فأخذتها من يده، وأعطتها لي لأسلمها لك، قال أكيم لها إنك تعمل في سترة في هذا الزمهرير. عوج أولشينسكي أنفه قليلاً، وقال: "أستطيع أن أرسل لهذا الرفيق معطفاً عسكرياً". فضحكت ريتا وقالت: لا بأس. سيسهل عليه العمل في السترة أكثر! تسلمها!

أمسك بافل السترة الثمينة في يده مندهشاً، وبعد تردد كسا

بها جسمه المتثلج. وسرعان ما أدفأ الفراء الناعم كتفيه وصدره.

كتبت ريتا:

"٢٠ كانون الأول

عواصف ثلجية متتابعة. ثلج وريح. صار عمال بوياركا قاب قوسين من "الهدف". ولكن الصقيع والعاصفة الثلجية أوقفاهم. إنهم غارقون في الثلج. وحفر الأرض المتجمدة صعب. لم يبقَ إلا ثلاثة أرباع كيلومتر، ولكنها الأصعب.

توكاريف يعلن أن التيفوئيد ظهر في موقع البناء، وأصاب ثلاثة.

٢٢ كانون الأول

لم يأتِ أحد من بوياركا لحضور دورة لجنة الولاية. فك الشقاة الخط على قطار محمل بالقمح على بعد سبعة عشر كيلومتراً من بوياركا. وبناء على أمر من ممثل مفوضية الغذاء حول فريق البناء كله إلى هناك.

٢٣ كانون الأول

نقلوا من بوياركا إلى البلدة سبعة مصابين آخرين بالتيفوئيد من بينهم أوكونيف. كنت في المحطة. أنزلوا من دافعات الصدام في عربات القطار القادم من خاركوف جثثاً جمدها البرد، والمستشفيات باردة. ملعونة هذه العاصفة الثلجية! متى ستنتهي؟

٢٤ كانون الأول

عدت من جوخراي الساعة، ظهر أن الخبر صحيح. لقد أغار أورليك بكل قوام عصابته على بوياركا. وجرت معركة بين

العصابة وجماعتنا استمرت ساعتين. وقد قطع الشقاة الاتصال، وفي صباح اليوم فقط استطاع جوخراي أن يحصل على المعلومات الدقيقة. رد الشقاة على أعقابهم. وجرح توكاريف. نفذت رصاصة إلى صدره. وسيجلبونه اليوم. وصرع فرانتز كلافيتشيك الذي كان في تلك الليلة آمر الحرس. وهو الذي لاحظ الشقاة، وأطلق إشارة الإنذار، ولكن المهاجمين أصابوه قبل أن يتسنى له الوقت للوصول إلى المدرسة، ومزقوه بالحراب، وجُرح أحد عشر شخصاً من فريق العمل. والآن هناك القطار المصفح وكوكبتان من الخيالة.

أصبح بانكراتوف رئيس البناء. في النهار لحق بوزيريفسكي بقسم من الشقاة في عزبة غلوبوكي، وقتلهم على بكرة أبيهم. وقسم من غير الحزبيين عاد إلى البلدة بمحاذاة الدرب غير منتظرين القطار.

٢٥ كانون الأول

جلبوا توكاريف والجرحى الآخرين. وضعوهم في المستشفى. وعد الأطباء بإنقاذ العجوز. وهو في حالة إغماء والآخرون ليسوا في خطر.

تلقت اللجنة الحزبية للولاية ونحن برقية من بوياركا تقول: "رداً على غارات الشقاة نتعهد لكم، نحن بناة الخط الضيق المجتمعين في هذه اللحظة مع طاقم القطار المصفح "من أجل سلطة السوفييتات" ورجال الجيش الأحمر من فوج الخيالة، بأنه على الرغم من جميع العقبات سنوفر الحطب للبلدة في نحو الأول من كانون الثاني. إننا نشرع بالعمل باذلين كل قوانا. عاش

الحزب الشيوعي الذي بعثنا إلى هنا! رئيس الاجتماع كورتشاغين. السكرتير برزين".

دفن كلافيتشيك في سولومينكا بمراسم الشرف العسكرية.

الأخشاب العزيزة على مقربة دانية. ولكن التقدم نحوها بطء بشكل مؤلم: في كل يوم ينتزع التيفوئيد عشرات من الأيدي الضرورية.

عاد كورتشاغين إلى المحطة مترنحاً كالسكران على ساقين موشكتين أن تخوناه. كان يزاول عمله ودرجة حرارته مرتفعة منذ وقت طويل، ولكنه اليوم شعر، والحرارة تلهبه، بأن الألم أقوى من المعتاد.

إن حمى التيفوئيد التي أضنت الفريق تسللت إلى بافل أيضاً. إلا أن جسمه القوي قاوم، وظل خمسة أيام يجد القوة على النهوض من القش المفروش على الأرض الإسمنتية، والخروج مع جماعته إلى العمل. لم تنقذه السترة الجلدية الدافئة، ولا الحذاء اللبادي الطويل الذي أرسله فيدور، والذي لبسه على قدمين أضر بهما الصقيع.

في كل خطوة يخطوها كان يشعر بوخز موجع في صدره، وتصطك أسنانه كمن أصيب بقشعريرة، ويغيم بصره ويخيل إليه أن الأشجار تدور في أرجوحة غريبة.

وصل إلى المحطة بعد لأي شديد. وأذهلته ضوضاء غير اعتيادية، ونظر، ورأى قطاراً طويلاً يمتد على طول المحطة. وعلى العربات المكشوفة قاطرات صغيرة، وقضبان حديدية، وعوارض. وكان الناس القادمون مع القطار يفرغونها. سار بضع

خطوات أخرى، واختل توازنه. شعر بوهن حين ارتطم رأسه بالأرض. وألهب الثلج خده الحار ببرد لطيف.

عثروا عليه بعد بضع ساعات، وحملوه إلى العنبر، كان ثقيل الأنفاس، ولم يتعرف على المحيطين به، وأعلن معاون الطبيب الذي جلب من القطار المصفح بأنه مصاب "بالتهاب الرئتين، وبحمى التيفوئيد، ودرجة حرارته ٤١,٥ درجة مئوية. ولا حاجة إلى الكلام عن التهاب المفاصل، والورمين على الرقبة فتلك أشياء تافهة، فإن المرضين الأولين كافيان تماماً لنقله إلى العالم الآخر".

وبذل بانكراتوف ودوبافا الذي وصل من البلدة، كل ما هو ممكن لإنقاذ بافل.

وعهد إلى اليوشا كوخانسكي، وهو من بلدة بافل نفسها، توصيل بافل إلى بلدته.

واستطاع بانكراتوف ودوبافا بمساعدة جماعة كورتشاغين كلها، وبضغط خوليافا أن يركبا كورتشاغين المغمى عليه واليوشا في القطار المكتظ بالركاب. الذين لم يسمحوا لهم خوفاً من عدوى التيفوس، وقاوموا، وهددوا بإلقاء المريض أثناء السفر.

وصرخ خوليافا ملوحاً بالناغان أمام أنوف الحائلين دون ركوب المريض:

ـ مرضه غير معدٍ! سيسافر ولو اضطررنا إلى إخلاء القطار منكم جميعاً! احذروا، أيها المسوخ، إذا مسه أحد منكم بيده مساً، فسأخبر المحطات على الخط بإخراجكم من القطار،

وحجزكم. ـ ثم أضاف مهدداً ـ خذ هذا المسدس الموزر يا اليوشا. إنه مسدس بافل، أرمِ به كل من يحاول إخراجه.

تحرك القطار. تقدم بانكراتوف من دوبافا على الرصيف الذي خلا.

ـ ما رأيك، هل سيعيش؟

ولم يحصل على جواب.

ـ لنذهب يا دميتري، وليكن ما سيكون.

الآن نحن مسؤولون عن كل شيء، يجب أن ننزل القطارات في الليل، وفي الصباح سنحاول أن نسخنها.

تلفن خوليافا إلى جميع زملائه ممثلي اللجنة الاستثنائية على طول الخط الحديدي. وطلب إليهم بحرارة أن لا يسمحوا للمسافرين بإنزال المريض كورتشاغين، ولم يهجع للنوم إلا بعد أن أخذ وعداً قاطعاً بـ "عدم السماح".

في محطة التقاء الطرق أخرجوا إلى الرصيف من إحدى عربات قطار المسافرين جثة شاب أشقر مجهول. لم يعرف أحد هويته ولا سبب موته. وتذكر ممثلو اللجنة الاستثنائية في المحطة رجاء خوليافا، وركضوا إلى العربة ليمنعوا إخراجه، ولكنهم حين تأكدوا من موت الشاب أمروا بإرسال الجثة إلى غرفة الجثث في نقطة نقل الجرحى في المحطة.

تلفنوا في الحال إلى خوليافا في بوياركا، ناعين له الفتى الذي كان قلقاً على حياته.

وأرسلت برقية قصيرة من بوياركا إلى لجنة الولاية عن وفاة كورتشاغين.

بينما أوصل اليوشا كوخانسكي المريض كورتشاغين إلى ذويه، انهد هو أيضاً بحمى التيفوئيد.

"٩ كانون الثاني

لماذا أحس بضيق شديد؟ قبل أن أجلس للكتابة بكيت. من كان يصدق أن ريتا أيضاً ستبكي، وتنتحب هذا النحيب الموجع! أمن المعقول إن الدموع دائماً إمارة على ضعف الإرادة؟ وسببها اليوم مصاب جسيم. لماذا حدث؟ لماذا حدث اليوم، يوم النصر الكبير، يوم الانتصار على فظاعة البرد ويوم امتلاء محطات السكك الحديدية بالوقود الثمين، يوم أن عدت تواً من احتفال النصر في الدورة الموسعة لسوفييت البلدة، حيث كرم بناة الخط الأبطال؟ إنه النصر الذي ضحا اثنان بحياتهما في سبيله: كلافيتشيك وكورتشاغين.

إن موت بافل كشف لي عن الحقيقة: إنه عزيز عليَّ أكثر مما كنت أظن.

وبهذا أقطع مذكراتي، ولا أعرف هل سأعود إليها يوماً ما. سأكتب غداً إلى خاركوف عن موافقتي للعمل في اللجنة المركزية لكومسومول أوكرانيا".

الفصل الثالث

انتصر الشباب. ولم يصرع التيفوئيد كورتشاغين . كان بافل على شفا الموت للمرة الرابعة، وارتد إلى الحياة. وبعد شهر فقط نهض على قدميه الواهنتين نحيفاً شاحباً، وحاول المشي في الغرفة مستنداً إلى الحائط. وصل إلى النافذة تسنده أمه، ونظر إلى الطريق طويلاً. لمعت أمام عينيه برك خلّفها الثلج الذائب. كان الثلج في الفناء في مستهل ذوبانه في بواكير الربيع.

أمام النافذة تماماً حط عصفور رمادي الصدر على غصن شجرة كرز، ونظر إلى بافل متوجاً بعينين متلصصتين.

ـ إذاً، فقد اجتزنا، أنا وأنت، محنة الشتاء؟

تحدث بافل خافت الصوت، ناقراً بإصبعه على النافذة.

نظرت الأم إليه هلعة.

ـ مع من تتحدث؟

ـ أتحدث مع عصفور... طار... الماكر ـ وابتسم ابتسامة واهنة.

كان الربيع في ريعانه. وأخذ كورتشاغين يفكر في العودة إلى البلدة، جمع من القوة ما يكفيه للسير، إلا أن شيئاً غامضاً كان يعل جسمه، ذات مرة، بينما كان سائراً في الحديقة، شعر

فجأة بألم ممض في عموده الفقري أوقعه على الأرض.

وجر نفسه إلى الغرفة بصعوبة. وفي اليوم التالي أجرى له الطبيب فحصاً دقيقاً واكتشف انبعاجاً عميقاً في عموده الفقري، فسأل مستغرباً:

ـ من أين جاءك هذا؟

ـ هذا أثر حجارة يا دكتور، قلعتها قذيفة مدفع من الرصيف فأصابتني من الخلف عندما كنا نحارب قرب مدينة روفنو.

ـ وكيف كنت تمشي؟ ألم يضايقك ذلك؟

ـ لا، عند ذاك استلقيت ساعتين أو نحوهما، ثم ركبت الحصان ثانية، والآن فقط أجده يضايقني لأول مرة.

وفحص الطبيب الانبعاج مقطب الجبين.

ـ أجل، يا عزيزي، شيء مؤذٍ، العمود الفقري لا تروق له مثل هذه الهزات. دعنا نتأمل بأن لا يعود هذا ثانية. ألبس يا رفيق كورتشاغين.

ونظر الطبيب إلى مريضه في عطف وجزع لم يستطع إخفاءهما جيداً.

كان أرتيم يعيش مع عائلة زوجته الشابة العاطلة عن العمل ستيشا. وكانت عائلتها ريفية فقيرة. ذات مرة ذهب بافل لزيارة أرتيم. فرأى صبياً وسخاً ذا عينين منغوليتين يركض في الفناء الصغير القذر. حين أبصره الطفل ثبت فيه عينيه من دون لياقة. وسأل وهو منشغل في تدوير إصبعه في منخريه:

ـ ماذا تريد؟ ربما جئت للسرقة؟ من الخير لك أن تنصرف، فإن أمنا عصبية المزاج!

فتحت نافذة صغيرة في البيت الواطئ القديم، وهتف أرتيم:

ـ أدخل، بافلوشا!

كانت امرأة عجوز ذات وجه أصفر كالرق مشغولة بكماشة عند الموقد. ألقت على بافل نظرة جانبية خاطفة غير ودية، وأعرضت عنه، عائدة إلى تحريك القدور.

صعدت فتاتان صغيرتان ذواتا غدائر قصيرة على الموقد بسرعة، وراحتا تنظران من هناك بفضول المتوحشات.

جلس أرتيم وراء الطاولة خجلاً بعض الشيء، لم يحظَ زواجه بموافقه أمه ولا أخيه. فهما لم يعرفا السبب في تخلي أرتيم، وهو سليل عائلة بروليتارية، عن صداقة ثلاثة أعوام لغاليا الحسناء، ابنة الحجار، العاملة الخياطة، والوقوع في "حبائل" ستيشا الجاهلة، في عائلة مؤلفة من خمسة أفواه من دون أي معيل. كان أرتيم بعد عمله في مستودعات القطار يبذل جهده على المحراث ليعيد الحياة إلى حقل منحول.

كان أرتيم يعرف أن بافل غير راضٍ عن انحيازه إلى "عنصر برجوازي صغير" على حد قوله، والآن أنشأ يراقب أخاه وهو يتفحص ما حوله.

جلسا يتبادلان عبارات ضئيلة الأهمية تُقال في العادة عند اللقاء وهمَّ بافل بالانصراف، إلا أن أرتيم أوقفه:

ـ انتظر، لتتناول شيئاً من الطعام معنا. ستجلب ستيشا حليباً بعد لحظات، يعني ستسافر غداً؟ لا تزال ضعيفاً، يا بافل.

دخلت ستيشا الحجرة، وسلمت، وطلبت إلى أرتيم أن

يساعدها في حمل شيء من الجرن. وبقي بافل وحده مع العجوز الضنينة الكلام. ترامى من النافذة جرس كنيسة يقرع. ألقت العجوز الكماشة، وغمغمت مستاءة:

ـ الله فوق، والعمل الملعون يبتلع كل الوقت، ولا يترك فرصة للصلاة ـ ونزعت المنديل من رقبتها، وسارت، وهي تنظر إلى الضيف بطرف عينها، إلى الركن الذي وضعت فيه صور القديسين الكئيبة المسودة من طول العهد. وضمت ثلاث أصابع عظمية، ورسمت علامة الصليب، وهمست بشفتين ذابلتين:

"أبانا الذي في السماء مبارك اسمك".

في الفناء قفز الطفل على خنوص أسود مسترخي الأذن، وصرخ على هذا الحيوان الدائر القابع هامزاً إياه بقدميه الحافيتين، ممسكاً شعر رقبته بيديه الصغيرتين:

ـ هيا، تحرك! هيا لا تتدلل!

ركض الخنزير بالطفل في الفناء، محاولاً أن يلقيه عن نفسه، إلا أن العفريت الأحول أحكم قبضته عليه.

قطعت العجوز الصلاة، وأخرجت رأسها من النافذة:

ـ سأقطع رقبتك، يابن الملعون! انزل عن الخنزير يا طاعون!

استطاع الخنزير أخيراً أن يلقي الطفل عنه، وعادت العجوز راضية إلى الإيقونات، واكتسى وجهها نقاب المتعبد، وتابعت صلاتها.

ـ ليأتِ ملكوتك...

ظهر الطفل عند الباب باكياً. وقال وهو يمسح أنفه

المخدوش بكمه، وينشج متوجعاً:

ـ أعطني كعكة يا ماما!

التفتت العجوز مغتاظة:

ـ دعني أصلي، أيها الشيطان الأحول. سأطعمك حالاً يابن الكلبة!... ـ واختطفت من المصطبة سوطاً، واختفى الطفل في الحال، وضحكت الفتاتان من على الموقد ضحكاً خافتاً.

وعادت العجوز إلى الصلاة للمرة الثالثة.

نهض بافل، وخرج من دون أن ينتظر أخاه، وبينما كان يغلق البوابة لاحظ رأس العجوز في طرف النافذة الصغيرة. كانت تراقبه.

"أي روح شريرة جرت أرتيم إلى هنا؟ الآن لا يستطيع أن يتخلص حتى الموت. ستلد له ستيشا كل عام. وسينطمر مثل خنفساء في كومة من الروث. وقد يترك عمله في المستودعات، لا قدر الله ـ فكر بذلك بافل مكتئباً وهو يسير في شارع البلدة المقفر ـ كنت أظن أنني سأجذبه إلى الحياة السياسية".

كان مسروراً لأنه سيسافر في الغد إلى المدينة. حيث خلّف أصدقاءه، والأعزاء على قلبه. كانت المدينة تجذبه بسلطانها، وحيويتها، وضوضاء سيول الناس التي لا تنقطع، وهدير ترامها، ومنبهات سياراتها. والشيء الرئيسي إنه كان يحن إلى المباني الآجرية الضخمة، والورش المسوّدة، إلى الآلات، وإلى الدندنة الخافتة التي ترسلها البكرات. كان يحن إلى هناك، حيث تدور الدواليب العملاقة دوراناً خاطفاً، وتفوح بزيت الآلات، وكل ذلك أصبح جزءاً من نفسه. كان بافل يحس وهو يجوب الشوارع

هذه البلدة الصغيرة، بانقباض. ولا غرابة في أن تصبح البلدة غريبة عليه، بل وكان يضايقه أن يخرج للتنزه نهاراً. كان إذا مرَّ بالنساء الثرثارات الجالسات على مداخل البيوت يسمع حديثهن السريع:

- من فزاعة الطيور هذا؟

- يبدو فتى متبطلاً، مسلولاً.

- سترته ثمينة، مسروقة حتماً.

وكان يسمع كلمات أخرى كثيرة تبعث التقزز في نفسه.

لقد اقتلعت جذوره من هنا منذ زمن طويل. وأصبحت المدينة أقرب إلى نفسه وأحب. أخوة قوية وتفتح للحياة وعمل.

وصل كورتشاغين إلى غابة الصنوبر سارحاً مع أفكاره، وتوقف عند مفرق الطرق، إلى اليمين السجن القديم الجهم المفصول عن الغابة بسياج عالٍ ينتهي بزوائد حادة، ووراءه مباني المستشفى البيضاء.

هنا، في الساحة الواسعة شنقت فاليا ورفيقاها. وقف صامتاً في ذلك المكان الذي نصبت فيه المشنقة، ثم اتجه نحو المنخفض. ونظر إلى الأسفل، وخرج إلى فسحة المقبرة الجماعية.

زينت أيد حنون صف القبور بأكاليل من أغصان الشربين، وأحاطت المقبرة الصغيرة بسياج أخضر. وعلى حافة المنخفض تطل أشجار صنوبر رشيقة. وكان بساط ناعم من العشب الفتي يفرش منحدرات المنخفض.

هذا طرف البلدة، والمكان هادئ وكئيب، ترسل فيه أوراق

الأشجار حفيفاً خافتاً، وتتنسم الأرض المبعوثة بأرج الربيع. هنا صرع إخوان العقيدة بشجاعة لتكون الحياة رائعة للذين ولدوا في الفاقة، للذين ولدوا وهم في إسار العبودية .

رفع بافل يده ببطء، وخلع قبعته، وأفعم قلبه شجن عظيم.

إن الحياة أعز شيء لدى الإنسان، وهي تتاح له مرة واحدة، فيجب أن يحياها من دون أسف على أعوام انقضت بالألم والعذاب، من دون لذع العار من ماضٍ وضيع تافه، حتى إذا جاءت ساعة احتضاره استطاع أن يقول: كل حياتي، وكل قواي كانت موهوبة لأروع شيء في العالم ـ للنضال من أجل تحرير الإنسانية. يجب أن يعيش الإنسان كل لحظات حياته. فقد يقطعها فجأة مرض خبيث، أو حادث فاجع.

غادر كورتشاغين مقبرة الأخوة تملؤه هذه الأفكار.

في البيت كانت أمه الحزينة تعد لسفر ابنها. رأى بافل، وهو يراقبها، إنها تخفي عنه دموعها.

قالت بصوت خافت، وهي تضع في حقيبة نظيفة أمتعة ابنها الهزيلة:

ـ هلا بقيت، يا عزيزي بافل؟ يحز في قلبي أن أعيش وحيدة وأنا في شيخوختي، ما أكثر الأبناء، ولكنهم حين يكبرون يتفرقون كل مفرّق. ما الذي يجذبك إلى المدينة؟ يمكنك أن تعيش هنا أيضاً، أم أنت أيضاً وجدت لنفسك سمانة مقصوصة الشعر؟ لا أحد يخبرني بشيء، أنا العجوز. تزوج أرتيم من دون أن يخبرني وأنا لا أنتظر منك شيئاً أهون. أنا لا أراكما إلا عندما تصابان بالعجز.

أمسك بافل كتفها، وجذبها إليه:

ـ لا سمّانة لي، يا أماه! ولكن أتعرفين، وأنت المجربة، أن الطيور على أشكالها تقع؟ فهل تحسبينني سمّاناً؟

جعلها تبتسم.

ـ قطعت على نفسي عهداً يا ماما بأن لا أغازل الفتيات حتى نقضي على البرجوازيين في العالم كله. أتقولين إن الانتظار سيكون طويلاً؟ لا، يا أماه، لن يعمّر البرجوازيون طويلاً... ستصبح لكل الناس جمهورية واحدة، وأنتم العجائز والشيوخ، الذين أفنيتم العمر في العمل ستستريحون في إيطاليا، البلد الدافئ المطل على البحر. ليس في إيطاليا شتاء يا ماما، سنرسلكم إلى قصور البرجوازيين فتدفئون عظامكم الهرمة في الشمس. أما نحن فسنسافر إلى أمريكا ونقضي على البرجوازيين هناك أيضاً.

ـ لن أعيش، يا ولدي، إلى اليوم الذي تحقق فيه حكايتك السحرية... كان جدك أيضاً جواب آفاق، بحاراً، قاطع الطريق سامحه الله! حارب في سيباستوبول حتى عاد إلى البيت بلا ذراع ولا ساق. وقد علقوا على صدره وسامين، وميداليتين قيصريتين فضيتين، ومات طاعن السن في فقر مدقع. كان حاد الطباع أيضاً. ضرب ذات مرة واحداً من أصحاب السلطة على رأسه بعكازته، وسجن سنة تقريباً، حبسوه، ولم تتشفع له أوسمته، عندما أنظر إليك أجد أمامي صورة من جدك تماماً.

ـ لماذا نجعل الوداع موجعاً على هذا النحو يا أماه؟ أعطيني الأوكورديون، فأنا لم أضعه في يدي منذ زمن طويل.

أحنى رأسه على صفوف الأوكورديون الصدفية. وأدهش الأم بالنغم الجديد الذي عزفه.

لم يعزف كما كان يعزف عادة، خلا عزفه من النغم الطائش المازح، والزغردات النزقة، والضربات المتدافعة، خلا من تلك العنجهية السكرى التي اشتهر بها الفتى بافل في البلدة كلها. كانت موسيقاه رخيمة، ولم تفقد قوتها، ولكنها أضحت أكثر عمقاً.

ذهب بافل إلى المحطة وحده.

أقنع أمه بالبقاء في البيت، لم يرد أن تذرف الدمع عند الوداع.

كان الناس يتقحمون القطار تقحماً، شغل بافل رفاً شاغراً في الأعلى تماماً، وراقب الناس المتصايحين المستثارين يتزاحمون في الممرات.

كانوا يحملون الأكياس أيضاً، ويحشرونها تحت المقاعد.

وعندما تحرك القطار كان الناس قد هدأوا، فأخذوا يأكلون، كشأنهم دائماً في مثل هذه الأحوال.

وسرعان ما غفا بافل.

كان أول بيت عزم على زيارته يقع في شارع كريشتشاتيك في وسط المدينة. صعد الدرجات ببطء. كل ما حوله مألوف له، لم يتغير منه شيء. سار على الجسر، تاركاً يده تنزلق على درابزينه الأملس. ووصل إلى بداية المنحدر الثاني من الجسر. وتوقف مسحوراً. كان الجسر خالياً. والليل في الأفق اللا نهائي يغطي الآماد المهيبة بظلمة مخملية، والنجوم الهائلة العدد

تتوامض بضوء فوسفوري متغامزة. وهناك في الأسفل، حيث تلتحم الأرض بالسماء في حد غير منظور، تنثر المدينة في الظلام ملايين الأضواء....

التقى كورتشاغين بعدة أشخاص يصعدون الدرج، وأصواتهم القوية التي زاد الجدل حدتها بددت سكون الليل. انتزع بافل بصره من المدينة، وأخذ ينزل الدرجات.

علم كورتشاغين من الرجل القائم بالخدمة في مكتب ترخيصات الدخول إلى الشعبة الخاصة إن جوخراي غادر المدينة منذ زمن بعيد.

واستجوب الرجل بافل بأسئلة كثيرة، وبعد أن أيقن أنه يعرف جوخراي شخصياً، عند ذاك فقط حكى له أن جوخراي قد استدعي إلى طشقند منذ شهرين للعمل في جبهة تركستان. جزع بافل جزعاً شديداً حتى أنه لم يسأل عن التفاصيل، واستدار صامتاً، وخرج إلى الشارع، وداهمه تعب مفاجئ جعله يجلس على درجات المدخل.

مرَّ ترام مالئاً الشارع بقرقعة ورنين. وعلى الرصيفين سيل موصول من الناس. المدينة تموج بالحياة ـ بضحك النساء السعيد، بأصوات رجالية جهيرة، وصبوية ناغمة، وشائخة متحشرجة تالفة. والناس يسيرون من دون انقطاع في خطو عجول دائماً. وعربات الترام شديدة الإضاءة، ومصابيح السيارات تتوهج قوية، والأنوار الكهربائية تشتعل كالنار حول إعلان دار سينما مجاورة. والناس في كل مكان يملأون الشارع بكلام لا يفتر. هذا مساء المدينة الكبيرة.

خففت ضجة الشارع العام ولغطه حدة المرارة التي أثارها نبأ غياب فيدور في نفس بافل. إلى أين يذهب؟ إن العودة إلى سولومينكا حيث كان أصدقاؤه تكلفه قطع مسافة طويلة. وفجأة خطر بباله البيت الواقع في شارع الجامعة غير بعيد عنه. سيذهب إلى هناك الآن. كانت ريتا أول من أراد أن يزورها بعد زيارته لفيدور. هناك سيكون بوسعه أن يبيت عند أكيم أو ميخائيل.

ورأى الضوء من بعيد في النافذة الجانبية في الأعلى. وجاهد أن يكون هادئاً، وجذب إليه الباب البلوطي. وتوقف في فسحة الطابق بضع ثوانٍ. سمع أصواتاً وعزف قيثار تأتيه من خلال باب غرفة ريتا.

"اهوه، إذاً، فالعزف على القيثار مباح أيضاً؟ تلطف النظام" ـ اهتدى كورتشاغين إلى هذا القرار مع نفسه، ودق الباب بقبضته دقاً خفيفاً، وزمَّ شفتيه وهو يتوجس انفعالاً.

فتحت الباب امرأة لا يعرفها، شابة لها عقصتان في صدغيها. نظرت إلى كورتشاغين نظرة تساؤل:

ـ من تريد؟

ولم تغلق الباب. ونظرة خاطفة ألقاها على جو الغرفة حدس ردها.

ـ هل ممكن أن أرى أوستينوفيتش؟

ـ غير موجودة. سافرت إلى خاركوف في كانون الثاني، وسمعت أنها سافرت من هناك إلى موسكو.

ـ والرفيق أكيم هل يعيش هنا أم سافر أيضاً؟

الرفيق أكيم غير موجود أيضاً. هو الآن سكرتير كومسومول

ولاية اوديسا.

ولم يبق أمام بافل غير الإياب. وذوت بهجة العودة إلى المدينة.

الآن صار عليه أن يفكر جدياً بالمبيت.

ـ إذا مضيت في زيارة الأصدقاء على هذا النحو أتعبت قدمي من دون أن أجد أحداً ـ غمغم كورتشاغين مع نفسه جزعاً موغر الصدر بالمرارة. ومع ذلك فقد عزم على أن يجرب حظه مرة أخرى، أن يعثر على بانكراتوف. كان عامل الشحن هذا يعيش على مقربة من المرفأ، والوصول إليه أقرب من الذهاب إلى سولومينكا.

ووصل في آخر الأمر إلى شقة بانكراتوف متعباً تماماً، وطرق الباب الذي كان مصبوغاً بلون أصفر في زمن ما، وقرر مع نفسه: "إذا كان هذا أيضاً غير موجود فسأكف عن التجوال. سأنزل تحت قارب، وأقضي ليلتي هناك".

فتحت الباب امرأة عجوز تشد رأسها بمنديل بسيط معقود تحت ذقنها. إنها أم بانكرانوف.

ـ هل ايغنات في البيت، أيها الأم؟

ـ جاء منذ لحظة، هل تريده؟

لم تعرف بافل، فالتفتت إلى الوراء وصاحت:

ـ ايغنات ، جاء شخص يطلبك.

دخل بافل الغرفة معها، ووضع حقيبته على الأرض، التفت بانكراتوف من وراء مائدته، وهو يمضغ بقية لقمة.

ـ اجلس إذا كنت تريد مقابلتي، وتحدث عما تريد، ريثما

أعبئ معدتي بشيء من الحساء، فأنا على الماء منذ الصباح ـ وأخذ بانكراتوف بيده ملعقة خشبية كبيرة.

جلس بافل بجانب بانكراتوف على كرسي خاسف، وخلع طاقيته، ومسح بها جبينه على عادته القديمة. وفكر مع نفسه:

"أتراني قد تغيرت إلى هذه الدرجة فلم يعرفني ايغنات؟".

وضع بانكراتوف ملعقتين من حساء البورش في فمه، ولما لم يتلق من الضيف جواباً، أدار نحوه رأسه:

ـ هيا، حدثني، ماذا تريد؟

وجمدت يده الحاملة لقمة من الخبز وهي في منتصف الطريق إلى فمه. وتمتم في ذهول:

ـ أي... على مهلك.... يا للعجب!...

ولم يصطبر بافل وهو يرى وجه رفيقه المحمر من الدهشة، وضحك.

ـ بافل! اعتبرناك ميتاً! ...قف! ما اسمك؟

خرجت الأم والأخت الكبرى من الغرفة المجاورة على صيحة بانكراتوف. وفي آخر الأمر آمن الثلاثة بأن أمامهم كورتشاغين الحقيقي.

رقد أهل البيت منذ وقت طويل، وبانكراتوف ماضٍ في سرد الحوادث التي وقعت له خلال أربعة أشهر:

ـ منذ الشتاء سافر جاركي وميتيا وميخائيلو إلى خاركوف. وليس مجرد سفر إلى مكان ما، بل دخل الملاعين إلى الجامعة الشيوعية. جاركي وميتيا في السنة التحضيرية، وميخائيلو في السنة الأولى. وقد اجتمع هناك خمسة عشر شخصاً من بيننا.

وفي سورة الحماس تقدمت أنا أيضاً بطلب. قلت لنفسي يجب أن أكثف دماغي الرخو بعض الشيء. ولكن لجنة القبول سرحتني.

ونخر بانكراتوف في غضب، وتابع كلامه:

ـ في البداية مشت القضية على ما يرام. كل الشروط متوفرة. عندي بطاقة حزبية، ومدة عملي في الكومسومول كافية. ولا غبار على وضعي الاجتماعي ومنشئي، ولكن عندما وصلت القضية إلى المعرفة السياسية تخلخلت.

تعصى عليَّ رفيق من اللجنة. ألقى عليَّ هذا السؤال:

"حدثني، يا رفيق بانكراتوف، أي معلومات لك عن الفلسفة؟" وأنت تعرف، لم تكن لي أي معلومات. ولكن تذكرت عامل شحن كان عندنا، طالب مدرسة تحوّل إلى متشرد. وقد اشتغل عامل شحن هواية. حدثنا ذات مرة أنه في أحد الأزمنة كان في اليونان علماء يعتبرون أنفسهم أسياد العارفين وقد سموا بالفلاسفة. ومن بينهم شخص نسيت اسمه، لعله ديوغين، قضى كل عمره في برميل، إلخ.... واعتبر أحسن أخصائي مِن بينهم مَنْ يثبت أربعين مرة أن الأسود هو أبيض، والأبيض هو أسود. وباختصار كانوا من الثرثرة بمكان جليل. وهكذا تذكرت قصة هذا الطالب، وفكرت مع نفسي: "إن عضو اللجنة هذا يريد أن يجر لساني". وكان هذا ينظر إليَّ نظرة مكر، فقطعت عليه الطريق قائلاً: "الفلسفة لغو وهراء. ولا أرغب، أيها الرفاق، في أن أصدع رأسي بها على الإطلاق. أما بخصوص تاريخ الحزب فعلى الرحب والسعة". وفي الحال تناوشوني

قائلين: "من أين لك هذه الأخبار عن الفلسفة؟" وفي هذه المرة أيضاً دبرت الأمر وزدت على ما قاله طالب المدرسة زيادة جعلت لجنة القبول كلها تضج بالضحك. وغضبت. وقلت: "أتحسبونني مغفلاً؟" وتناولت قبعتي وعدت إلى البيت.

وفي ما بعد التقيت بعضو اللجنة هذا في لجنة الولاية الحزبية، وتحدثت معه لمدة ثلاث ساعات. وتبين أن طالب المدرسة قد اختلط عليه الأمر، وظهر أن الفلسفة مسألة حكيمة ذات شأن.

بينما نجح دوبافا وجاركي في امتحان القبول. ولكن إذا كان ميتيا دوبافا قد درس على الأقل، فإن جاركي لا يختلف كثيراً عني. لا بد أن وسامه قد ساعده. وباختصار بقيت أنا في مكاني وعينت هنا مساعداً لمدير رصيف البضائع. في الماضي كنت أتنازع مع المدراء حول شؤون الشبيبة، والآن أصبحت أنا نفسي أدير قسماً اقتصادياً. الآن إذا صادفت متبطلاً أو دماغاً ناشفاً أعنفه وأهزه بصفتي مديراً، وبصفتي سكرتيراً. إنه لا يستطيع أن يتحايل علي، وأرجو المعذرة. سأكمل الحديث عن نفسي - في ما بعد، أي أخبار لم أحدثك بها؟ أنت تعرف عن أكيم، لم يبق من رفاقنا القدامى إلا توفتا لاصقاً في مكانه في لجنة الولاية. وتوكاريف سكرتير لجنة الحزب المنطقية في سولومينكا. وأوكونيف زميلك في الكومونة يعمل في لجنة الكومسومول المنطقية، وتالياً، في قسم الإرشاد السياسي، وتسفيتايف يعمل في مكانك في ورش التصليح، وأنا قليل المعرفة به، نتقابل في لجنة الولاية، يبدو أنه فتى لا يخلو من ذكاء، ولكنه معتد بنفسه. وإذا كنت لا تزال تذكر آنا بورخارت فهي في سولومينكا أيضاً،

تترأس القسم النسائي من لجنة الولاية الحزبية. أما عن الآخرين فقد حدثتك. نعم، يا بافل، أرسل الحزب كثيراً من الناس للدراسة. وجميع نشطاء الحزب القدامى يدرسون الآن في المدرسة الحزبية لسوفييت الولاية. وهم يعدون بإرسالي أيضاً في السنة القادمة.

وناما بعد منتصف الليل بوقت طويل. وعندما استيقظ كورتشاغين في الصباح كان ايغنات قد خرج من البيت إلى المرفأ. وقدمت دوسيا أخت ايغنات، وهي فتاة كبيرة الجسم شبيهة بأخيها، الشاي لبافل، وثرثرت في مرح عن كل ما خطر ببالها من التوافه. وكان والد بانكراتوف ميكانيكي البواخر خارجاً في سفر.

وتهيأ كورتشاغين للخروج. وذكرته دوسيا عند توديعه:

ـ لا تنس أننا في انتظارك للغداء.

... في لجنة الولاية حركة معتادة. وباب الدخول لا يعرف السكون. المماشي والحجرات مزدحمة بالناس، وضربات الآلات الكاتبة تصل مكتومة من وراء الأبواب.

وقف بافلِ في ممشى متلفتاً ليعثر على وجه شخص يعرفه، ولما لم يجد أحداً دخل إلى غرفة السكرتير، كان سكرتير لجنة الولاية الحزبية يجلس وراء مكتب كبير مرتدياً قميصاً أزرق، قابل كورتشاغين بنظرة قصيرة، من دون أن يرفع رأسه، ومضى يكتب.

جلس بافل قبالته، ونظر بتفحص إلى خليفة أكيم.

سأل السكرتير واضعاً نقطة في نهاية ورقة مكتوبة:

ـ عن أي قضية جئت؟

وقص بافل له قصته.

ـ من الضروري، يا رفيق، أن تعيد تسجيلي في سجلات المنظمة، وترسلني إلى الورش، أصدر أمراً بذلك.

دفع السكرتير بجسمه إلى ظهر الكرسي. وأجاب في تردد:

ـ سنعيدك بالطبع، ومن دون شك، ولكن لا يحسن إرسالك إلى الورش، فهناك يعمل تسفيتايف عضو لجنة الولاية للدورة الأخيرة. سنستفيد منك في مكان آخر.

تقلصت عينا كورتشاغين :

ـ أنا لا أريد الذهاب إلى الورش للتدخل في عمل تسفيتايف، بل لأعمل في اختصاصي في الورشة، لا سكرتيراً للكومسومول هناك، ولما كنت ما أزال ضعيف البنية أرجو ألا ترسلني إلى عمل آخر.

وافق السكرتير. وخربش على الورقة كلمات عدة.

ـ قدم هذه للرفيق توفتا وسيرتب لك كل شيء.

في قسم الشؤون الشخصية كان توفتا ينهال على مساعده المسجل باللوم والتقريع. أصغى بافل إلى الشتائم المتبادلة برهة، ولما رأى أنها ستستمر طويلاً، قاطع رئيس القسم المتأجج غضباً.

ـ توفتا، أكمل شتائمك معه في ما بعد. هذه مذكرة مرسلة لك، فتعال نسجل أوراقي.

نظر توفتا إلى المذكرة طويلاً، ثم حول بصره إلى كورتشاغين، وأخيراً أخذ يعي:

ـ أي! يعني لم تمت؟ ماذا سيكون الآن؟

شطبت اسمك من السجلات، وقد أرسلت بطاقتك بنفسي إلى اللجنة المركزية. ثم أنك لم تُسجل في الإحصاء العام لعموم روسيا. وجميع الذين لم يُسجلوا من جديد يحذفون حسب تعليمات اللجنة المركزية للكومسومول. ولهذا لا يبقى أمامك إلا شيء واحد، هو أن تقدم طلب انتساب جديداً، وفق القواعد العامة ـ قال توفتا ذلك بلهجة قاطعة.

وتجهم كورتشاغين :

ـ أما تزال كما كنت؟ شاباً، ولكنك أسوأ من فأر عجوز في أرشيف الولاية، متى ستصير إنساناً يا توفتا؟

قفز توفتا من مكانه، وكأنما لسعه برغوث.

ـ رجائي إليك أن لا تلقي عليَّ محاضرة، فأنا مسؤول عن عملي. والتعليمات لا تُكتب لأخرقها. أما إهانتي بكلمة "فأر" فسأحملك مسؤوليتها.

ونطق توفتا بالعبارة الأخيرة بتهديد، ساحباً نحوه حزمة من الرسائل غير المفتوحة، مظهراً بكل هيئته أن المقابلة قد انتهت.

سار بافل نحو الباب متمهلاً، ولكنه تذكر شيئاً، فعاد إلى المكتب، واسترجع مذكرة السكرتير الموضوعة أمام توفتا الذي راقب حركة بافل. إن توفتا هذا الشاب العجوز الحاقد المماحك ذا الأذنين المنتصبتين كان كريهاً ومضحكاً في الوقت ذاته.

قال كورتشاغين بسخرية هادئة:

ـ لا بأس، يمكنك بالطبع أن تعتبرني "مخلاً بالإحصائيات" ولكن قل لي: كيف تتحايل في فرض توبيخات على من مات

فجأة من دون أن يقدم تبليغاً عن موته سلفاً؟ فإن ذلك يمكن أن يحصل لكل إنسان. قد يمرض فجأة، ويموت فجأة، بينما لا توجد تعليمات عن مثل هذه الأحوال في أغلب الظن.

ـ ها ـ ها ـ ها ـ هدر مساعد توفتا مرحاً من دون أن يستطيع التزام جانب الحياد حتى النهاية.

انكسر سن القلم في يد توفتا، فألقاه على الأرض ولكنه لم يتسنَّ له وقت ليجيب خصمه. فقد دخل الغرفة بضعة أشخاص دفعة واحدة، متكلمين بصوت عالٍ ومتضاحكين، وكان بينهم أوكونيف. في الدهشة السارة، والأسئلة الكثيرة! وبعد بضع دقائق دخلت جماعة أخرى من الشبيبة، وكانت بينهم أولغا يورينفا. وقد صافحته وقتاً طويلاً ذاهلة ولكنها فرحة.

وجعلوا بافل يقص لهم كل شيء منذ البداية مرة أخرى، ونسي بافل أمر توفتا وسط فرح رفاقه الصادق، وصداقتهم المخلصة، وعطفهم، ومصافحتهم القوية، وتربيتهم الحنون الودي على ظهره.

وفي نهاية القصة نقل بافل لرفاقه حديثه مع توفتا. صدرت حوله صيحات اندهاش مستاءة. ورمت أولغا نظرة شزراء على توفتا، ودخلت غرفة السكرتير.

ـ لنذهب إلى نجدانوف! سينتف ريشه ـ وأمسك أوكونيف كتف بافل بعد أن قال هذه الكلمات، وسارا وراء أولغا مع حشد من الرفاق.

قالت أولغا محتدة:

ـ يجب إعفاؤه من عمله، وإرساله إلى بانكراتوف في المرفأ

ليعمل عامل شحن عاماً. إن توفتا بيروقراطي مختوم!

ابتسم سكرتير لجنة كومسومول الولاية ابتسامة متسامحة وهو يصغي إلى مطالب أوكونيف وأولغا والآخرين في إقصاء توفتا من قسم الذاتية.

قال نجدانوف مهدئاً أولغا:

ـ لا حاجة إلى الكلام عن إعادة كورتشاغين ، سيكتبون له بطاقة حالاً، وأنا أتفق معكم أيضاً في أن توفتا متمسك بالشكليات، وذلك هو عيبه الأساسي، ولكن يجب الاعتراف بأن عرضه للقضية كان جيداً. أينما اشتغلت رأيت سجل اللجان الكومسومولية وإحصائياتها في حالة فوضى لا تصدق، ولا يمكن الاعتماد على أي رقم فيها. أما في قسم الذاتية في منظمتنا فإن الإحصاء جيد. أنتم تعرفون أنفسكم أن توفتا أحياناً يبقى في قسمه حتى الليل. وهذا ما أراه: إعفاؤه ممكن دائماً، ولكن إذا شغل مكانه فتى صريح متفتح الذهن، وغير نافع كإحصائي فإن البيروقراطية ستزول، إلا أن الإحصاء سيزول أيضاً. دعوه يعمل، وسأنظف دماغه. وهذا سيؤثر فيه بعض الوقت، وسنرى.

وافق أوكونيف:

ـ لا بأس، عليه اللعنة، لنذهب إلى بافلوشا إلى سولومينكا، سيُعقد اليوم في نادينا اجتماع للنشطاء، لا أحد يعرف عنك وفجأة: "الكلام لكورتشاغين!" أنت شاطر، يا بافل، لم تمت، ولكن أي نفع للبروليتاريا منك إذا مت؟ ـ استخلص أوكونيف مازحاً، وحضن بافل، وسار به إلى الممشى.

ـ هل ستأتين، يا أولغا؟

ـ بالتأكيد.

لم ينتظر أهل بانكراتوف حتى مجيء كورتشاغين إلى الغداء، وهو لم يعد حتى في الليل، فقد أخذه أوكونيف إلى غرفته المنفردة في دار السوفييت. وأطعمه ما تيسر له، ووضع على المنضدة أمام بافل حزمة جرائد وكتابين سميكين عن أصول اجتماعات مكتب كومسومول المنطقة ونصحه قائلاً:

ـ انظر في هذه المواد، عندما كنت مصاباً بالتيفوئيد تضيع الوقت عبثاً، جرت أشياء كثيرة هنا، اقرأ، واطلع على ما كان، وما هو كائن. سأعود في المساء، وسنذهب سوية إلى النادي. وإذا تعبت استلق ونم.

حشر أوكونيف في جيوبه حزمة من الوثائق والقسائم (كان أوكونيف يتجاهل المحفظة مبدئياً فقد كانت موضوعة تحت السرير). وقام بدورة وداعية في الغرفة وخرج.

عندما عاد في المساء كانت أرض الغرفة قد غطيت بالجرائد المفتوحة، وقد أخرجت كومة كتب من تحت السرير. وكان قسم منها مصفوفاً على المنضدة، وكان بافل جالساً على السرير يقرأ الرسائل الأخيرة للجنة المركزية التي وجدها تحت وسادة صديقه.

ـ ماذا صنعت من غرفتي، أيها المحتال! ـ صاح أوكونيف، بحنق مفتعل ـ على مهلك، يا رفيق! أنت تقرأ وثائق سرية! هذه نتيجة من يدخل مثلك في بيته!

وضع بافل الرسالة جانباً وهو يبتسم وقال:

ـ في هذه بالذات لا يوجد سر. ولكن ما تستعمله ظليلة

لمصباحك كان وثيقة سرية حقاً. ألا ترى كيف احترقت حوافيها؟ تناول أوكونيف الورقة المحروقة، ونظر إلى العنوان، وضرب جبينه بباطن كفه.

ـ بحثت عنها ثلاثة أيام، من دون أن أجد لها أثراً! والآن أتذكر أن فولينتسيف صنع منها قبل ثلاثة أيام ظليلة للمصباح. ثم أخذ بنفسه يبحث عنها في كل مكان، ـ وطوى أوكونيف الورقة بعناية، ووضعها تحت الفراش وقال مهدئاً ـ سنرتب كل شيء في ما بعد، والآن لنتناول لقمة ونذهب إلى النادي. أجلس إلى الطاولة يا بافلوشا!

أخرج أوكونيف من أحد جيوبه سمكة مجففة طويلة ملفوفة في جريدة، ومن جيب آخر قطعتين من الخبز، ونقل الورق إلى حافة الطاولة، ونشر جريدة على المكان الفارغ، وأمسك السمكة من رأسها، وأخذ يضربها على الطاولة.

وقصّ أوكونيف المبتهج الأخبار على بافل وهو يجلس إلى الطاولة مجتهداً في لوك الطعام بفكيه، مازجاً الفكاهة بكلام جدي.

في النادي قاد أوكونيف كورتشاغين عبر مدخل خاص إلى ما وراء المسرح. كانت تاليا لاغوتينا وآنا بورخارت جالستين في حلقة متماسكة من كومسومولِيي عمال السكك، في زاوية من القاعة الفسيحة إلى يمين المسرح، قرب البيانو. وكان فولينتسيف سكرتير الكومسومول في مستودعات القطار يجلس قبالة آنا مهتزاً على كرسيه. كان له وجه محمر مثل تفاحة في شهر آب، وشعر وحاجبان بلون قمحي وعليه سترة جلدية مستهلكة كلياً، كانت

من قبل سوداء.

وإلى جانبه جلس، تسفيتايف مرتفقاً غطاء البيانو بلا كلفة. كان شاباً جميلاً له شفتان محددتان بقوة، وكانت ياقة قميصه محلولة، سمع أوكونيف نهاية عبارة آنا وهو يتقدم نحو الجماعة:

ـ هناك بعض الناس يريدون تعقيد قبول الرفاق الجدد، ولتسفيتايف مثل هذه النزعة.

قال تسفيتايف بصرامة وازدراء غليظ:

ـ الكومسومول ليس معبراً.

هتفت تاليا وقد لمحت أوكونيف:

ـ انظروا! إن نيقولاي اليوم يلمع مثل سماور مجلو!..

وجذبوا أوكونيف إلى الحلقة وأمطروه بالأسئلة:

ـ أين كنت؟

ـ دعونا نبدأ.

مد أوكونيف ذراعاً إلى الأمام مهدئاً.

لا تستعجلوا يا أولاد، سيأتي توكاريف الآن ونفتتح الجلسة.

لاحظت آنا:

ـ ها هو قادم!

وبالفعل كان سكرتير لجنة الحزب المنطقية مقبلاً نحوهم. هرع أوكونيف للقائه.

ـ لنذهب، يا أب، وراء المسرح، سأريك واحداً من معارفك.

ـ وأي شيء بعد؟ ـ تمتم العجوز ممتصاً سيكارته، إلا أن أوكونيف كان يجره من يده.

.... رن الجرس الصغير في يد أوكونيف بشدة أسكنت حتى أعند المولعين بالكلام الكثير.

لاح وراء ظهر توكاريف رأس العبقري مبدع "البيان الشيوعي" تحيطه هالة من الشعر الغزير مثل لبدة أسد، في إطار من أغصان خضر. بينما كان اوكونيف يفتتح الاجتماع كان توكاريف ينظر إلى كورتشاغين الواقف في المدخل إلى خلفية المسرح.

ـ أيها الرفاق! طلب أحد الرفاق الموجودين هنا أن يقول كلمة قبل البدء في مناقشة مهمات المنظمة التالية، وتوكاريف وأنا نرى من الضروري أن تُعطى له الفرصة للكلام.

ترددت في القاعة أصوات مؤيدة، فابتدر أوكونيف قائلاً:

ـ بافل كورتشاغين يلقي كلمة.

كان من بين المائة الحاضرين في القاعة ثمانون شخصاً على الأقل يعرفون كورتشاغين، وحينما ظهر في مقدمة المسرح الشاب الشاحب بقامته الطويلة المألوفة، وبدأ يتحدث، قابلته من القاعة هتافات الفرح والتصفيق الشديد.

ـ أيها الرفاق الأعزاء!

كان صوت كورتشاغين موزوناً، ولكنه لا يخلو من انفعال.

ـ هكذا كان من نصيبي، أيها الأصدقاء، أن أعود إليكم، وأحتل مكاني في صفوفكم. وأنا سعيد بعودتي. إنني أرى هنا عدداً كبيراً من أصدقائي. وقد قرأت عند أوكونيف أن عدد رفاقنا

في سولومينكا قد زاد إلى الثلث، وأنه في الورش والمستودعات قضى على صانعي قداحات السكائر، وأن القاطرات الميتة في مقبرة القاطرات تؤخذَ الآن للتصليح وتُعاد لها الحياة، وهذا يعني أن بلادنا تولد من جديد، وتكتسب قوة. وهناك شيء يعاش من أجله. وهل يمكنني أن أموت في مثل هذا الزمن! ـ وبرقت في عيني كورتشاغين ابتسامة سعيدة.

ونزل كورتشاغين إلى القاعة وسط صيحات الترحيب، واتجه إلى المكان الذي جلست فيه آنا وتاليا. وصافح بعض الأيدي بسرعة. وتلاصق الأصدقاء وجلس كورتشاغين. وضعت تاليا يدها على يد بافل، تشد عليها بقوة.

وكانت عينا آنا متسعتين ورموشها لا تكاد تخفق. وفي نظرتها دهشة وحفاوة.

سارت الأيام، ولم يكن جائزاً أن توصف بالاعتيادية. فقد كان كل يوم يجلب شيئاً جديداً، وكان كورتشاغين وهو يوزع أوقاته في الصباح، يلاحظ في حزن أن ساعات اليوم قليلة. إن شيئاً مما فكر في عمله يبقى غير منجز.

سكن بافل مع أوكونيف، واشتغل مساعد مصلح كهربائياً في الورش.

وقد تجادل مع نيقولاي أوكونيف وقتاً طويلاً حتى أقنعه بالموافقة على بقائه مؤقتاً خارج العمل القيادي.

هاجمه أوكونيف عندئذٍ:

ـ عندنا نقص في الرجال، وأنت تريد أن تتبرد في الورشة، لا تحدثني عن المرض، فقد قضيت أنا بعد التيفوئيد شهراً كاملاً

أسير بالعصا إلى لجنة المنطقة. أنا أعرفك يا بافل. ليس السبب يتعلق في المرض ـ حدثني عن السبب الجذري.

ـ يوجد سبب جذري، يا نيقولاي، هو أنني أريد أن أدرس.

هدر أوكونيف بانتصار:

ـ آه! هكذا إذاً! أنت تريد الدراسة، وأنا، أتحسبني لا أريد؟ هذه أنانية يا أخ. يعني سنذير نحن العجلة، وأنت تدرس؟ لا، يا عزيزي، غداً ستعمل كمنظم.

إلا أن أوكونيف أذعن بعد نقاش طويل.

ـ سأتركك شهرين، فقدّر طيبتي، ولكنك لن تستطيع العمل مع تسفيتايف وقتاً طويلاً، له اعتداد كبير في نفسه.

قابل تسفيتايف عودة كورتشاغين إلى الورش في حذر. كان على يقين من أنه بمجيء كورتشاغين سيبدأ نضال من أجل القيادة، فتهيأ هذا المريض بالخيلاء إلى أن يبدي مقاومة. ولكنه اقتنع منذ الأيام الأولى بخطل تصوراته، فإن كورتشاغين، بعد أن علم بنية مكتب الكومسومول في ضمه إليه، ذهب بنفسه إلى غرفة سكرتير الكومسومول، وأقنعه برفع هذه القضية من جدول العمل مستشهداً باتفاقه مع أوكونيف. وتسلم في الخلية الكومسومولية لورشته حلقة للتثقيف السياسي، ولكنه لم يسعَ إلى عمل في المكتب. ومع ذلك، وعلى الرغم من وجوده خارج القيادة الرسمية، فإن تأثيره كان يُحس في عمل كومسومول الورش كله، وقد خلص تسفيتايف من وضع صعب أكثر من مرة وبطريقة ودية غير ملحوظة.

ذات مرة راقب تسفيتايف، وهو داخل إلى الورشة، أعضاء

الخلية الكومسوملية وثلاثين من اللاحزبيين يغسلون النوافذ، وينظفون الآلات، كاشطين عنها الوسخ المتراكم منذ زمن طويل، مخرجين إلى الفناء المهملات والقراضات. وكان بافل يمسح الأرض الإسمنتية الملطخة بالمازوت والزيت بممسحة كبيرة.

- لم هذا التلميع؟ - سأل تسفيتايف بافل بدهشة، فأجابه بافل باقتضاب:

- لا نريد أن نشتغل في القذارة، هذه الورشة لم يغسلها أحد منذ عشرين عاماً. ونحن سنجعل الورشة جديدة في ظرف أسبوع.

هز تسفيتايف كتفيه، وخرج.

ولم يكتفِ عمال ورشة الكهرباء في عملهم هذا، فأخذوا ينظفون في الفناء. كان هذا الفناء الكبير مكاناً للنفايات منذ زمان بعيد، ومباءة لكل ما يخطر على بال! مئات من عجلات العربات، وأكوام من الحديد الصدئ، والقضبان، والدعامات، وعلب المحاور - بضعة آلاف طن من المعدن تصدأ في العراء. وأوقفت الإدارة العمل في الفناء:

- هناك أعمال أهم، وليس تنظيف الفناء بحاجة ملحة.

عند ذاك رصف عمال الورشة بالآجر قطعة من الأرض عند المدخل إلى ورشتهم، وشدوا إليه شبكة حديدية لتنظيف الوحل من الأحذية عند الدخول إلى الورشة، وتوقفوا عند هذا الحد. إلا أن أعمال التنظيف استمرت داخل الورشة في الأمسيات بعد انتهاء العمل. وعندما جاء كبير المهندسين ستريج إلى الورشة بعد

أسبوع كانت منورة كلها. ذلك لأن النوافذ الكبيرة ذات الشبكات الحديدية فتحت الطريق لأشعة الشمس بعد أن أزيل عنها الغبار المخلوط بالمازوت والمتراكم منذ زمن طويل، فنفذت الأشعة إلى ورشة الآلات، وانعكست بسطوع على الأجزاء النحاسية المجاورة من محركات الديزل، وكانت الأجزاء الثقيلة من الآلات قد طليت باللون الأخضر وحتى على برامق العجلات رسم بعضهم سهاماً صفراء باهتمام.

ـ أصم! ... ـ تعجب ستريج.

في الزاوية القصية من الورشة شرع بعض العمال ينتهون من عملهم. فاتجه ستريج إلى هناك. التقى به كورتشاغين يحمل علبة مملوءة بالطلاء الجاهز. فأوقفه المهندس.

ـ انتظر، يا عزيزي. أنا أستحسن ما تقومون به. ولكن من أعطاكم الطلاء؟ أنا منعت صرفه من دون إذن مني ـ فإنه مادة قليلة عندنا. أن صبغ أجزاء القاطرة أهم مما تفعلونه.

ـ نحن جمعنا الطلاء من علب الطلاء المستهلكة المرمية. قضينا يومين في حك العلب القديمة، وجمعنا خمسة وعشرين رطلاً. كل شيء هنا حسب القانون أيها الرفيق المهندس.

حمّ المهندس ثانية، ولكن في شيء من الارتباك.

ـ عندئذٍ بوسعكم أن تفعلوا بالطبع ـ حم....

إنه عمل طريف على أي حال... بمَ تفسر ذلك؟...

بما يوصف بالنزعة الاختيارية لتنظيف الورشة؟

أفعلتم ذلك بعد انتهاء العمل؟

أحس بافل في صوت المهندس بنبرة من الحيرة الصادقة.

ـ بالطبع، وماذا تظن؟

ـ نعم، ولكن....

ـ وما موقع "لكن" هنا أيها الرفيق ستريج؟ من قال لك إن البلاشفة يتركون هذه القذارة كما هي؟ انتظر وسنوسع هذه القضية أكثر. سيكون هناك ما ستنظر إليه وتبدي دهشتك.

ومشى بافل إلى الباب متحاشياً المهندس باحتراس كيلا يلطخه بالطلاء.

كان بافل في الأمسيات يظل إلى ساعة متأخرة في المكتبة العامة. وقد أقام فيها علاقة قوية مع موظفات المكتبة الثلاث جميعهن. واستخدم كل ما لديه من وسائل الدعاية، وحصل أخيراً على الحق المرجو في الاطلاع على الكتب بحرية. كان يضع السلم على دواليب الكتب الضخمة، ويجلس عليه ساعات متفحصاً الكتاب تلو الكتاب بحثاً عما هو ممتع ومهم. كانت غالبية الكتب قديمة. والمؤلفات الجديدة تقبع متواضعة في دولاب واحد صغير وضعت فيه الكراريس التي جمعت عرضاً، والعائدة إلى عهد الحرب الأهلية، و"رأس المال" لماركس، و"العقب الحديدية" وبعض الكتب الأخرى. ووجد كورتشاغين بين الكتب القديمة رواية "اسبرتاكوس"، فعكف عليها ليلتين، ووضعها في الدولاب إلى جانب أعمال مكسيم غوركي. ومثل هذه النقلات لأمتع الكتب وأقربها إلى نفسه استمرت طوال الوقت.

ولم تعترض موظفات المكتبة على ذلك! فقد كان ذلك لا يعنيهن في شيء.

حطمت حادثة بدت في بادئ الأمر ضئيلة الأهمية الهدوء الرتيب في المنظمة الكومسومولية تحطيماً شديداً. كسر كوستيكا فيدين عضو مكتب خلية ورشة التصليح، وهو شاب بطيء الحركة ذو وجه مجذّر أفطس الأنف مثقباً أمريكياً غالي الثمن بينما كان يثقب صفيحة حديدية. وكان سبب الكسر يعود إلى إهماله المعيب، بل وأسوأ من ذلك، عن عمد تقريباً. وقد جرى الحادث في الصباح، حين طلب كبير العمال الأقدم خودورروف من كوستيكا ثقب بعض الثقوب في الصفيحة. ورفض كوستيكا في أول الأمر ولكنه بعد إلحاح خودورروف أخذ الصفيحة وبدأ يثقبها. وكان عمال الورشة لا يحبون خودورروف بسبب تشدده المفرط. وكان من قبل منشفياً، ولم يساهم أي مساهمة في الحياة الاجتماعية، ولم يكن ينظر إلى الكومسومولين نظرة ارتياح، ولكنه كان يعرف عمله جيداً، ويقوم بالتزاماته بنزاهة. وقد لاحظ كبير العمال هذا أن كوستيكا يثقب "على الناشف" من دون أن يسكب الزيت على الثقب، فتقدم مسرعاً من آلة التثقيب، وأوقفه.

ـ هل أنت أعمى أم جديد على العمل؟ ـ صرخ على كوستيكا عارفاً بأن المثقب سيتعطل في مثل هذه الحال.

إلا أن كوستيكا جأر على كبير العمال، وشغل الآلة ثانية، وذهب خودورروف ليشتكي لدى مدير الورشة، بينما ركض كوستيكا، من دون أن يوقف الآلة ليبحث عن المزيتة ليكون كل شيء على ما يرام لدى مجيء المدير، وفي المدة التي استغرقها في البحث عن المزيتة، والعودة كان المثقب قد انكسر. وقدم مدير الورشة تقريراً عن فصل فيدين. ودافع مكتب خلية

الكومسومول عن كوستيكا منطلقاً من تحامل خودوروف على الكومسومولِيين النشطاء. وأصرت الإدارة، وحوّلت القضية إلى مكتب اللجنة الكومسومولية في الورش. ومن هناك بدأت القضية تتطور.

كان من بين أعضاء المكتب الخمسة ثلاثة يؤيدون توبيخ كوستيكا، ونقله إلى عمل آخر. وكان تسفيتايف من بينهم، بينما لم يعتبر الاثنان الآخران كوستيكا مذنباً بشكل عام.

كان الاجتماع منعقداً في غرفة تسفيتايف، حيث توجد منضدة كبيرة مغطاة بقماشة حمراء، وبعض المصاطب الطويلة، والمقاعد المصنوعة خصيصاً من قبل الكومسومولِيين من ورشة النجارة. وكان على الجدران صور الزعماء، ووراء المنضدة راية كومسومول الورش منشورة على طول الحائط.

كان تسفيتايف حداداً في المهنة، وبفضل قابليته في الأشهر الأربعة الأخيرة ترقى إلى العمل القيادي في المنظمة الكومسومولية، وتفرغ له، وصار عضواً في مكتب كومسومول المنطقة، وفي لجنة الكومسومول للولاية. وقد كان يشتغل حداداً في المصنع الميكانيكي بينما كان مستجداً في ورش التصليح. ومنذ الأيام الأولى جمع المقاليد في يديه وقبض عليها بقوة. وخنق في الحال باعتداده وعزمه مبادرة الكومسومولِيين الشخصية، وأخذ كل شيء على عاتقه، ولما لم يستطع شمول العمل كله، شرع يتهم مساعديه بالتواني.

وحتى الغرفة كانت تزين تحت إشرافه.

ترأس تسفيتايف الاجتماع منسرحاً في الكرسي الوثير

الوحيد الذي جلب إلى هنا من النادي. وكان الاجتماع مغلقاً. وعندما طلب خوموتوف المنظف الحزبي الكلام، طرق الباب المغلق بالمزلاج، وتجهم تسفيتايف متذمراً. وتكرر الطرق، ونهضت كاتيوشا زيلينوفا، وسحبت المزلاج. وكان كورتشاغين وراء الباب، فتركته يدخل.

اتجه كورتشاغين نحو مصطبة فارغة، وإذا بتسفيتايف يناديه:

ـ كورتشاغين ! عندنا اجتماع مغلق للمكتب. وصعد الدم في وجه بافل، واستدار نحو المنضدة ببطء.

ـ أنا أعرف ذلك. ولكن يهمني أن أعرف رأيكم في قضية كوستيكا. وأريد أن أثير مسألة جديدة تتعلق بها. فهل تعترض على وجودي؟

ـ لا اعتراض، ولكنك تعرف أن الاجتماعات المغلقة لا يحضرها إلا أعضاء المكتب فقط. فإن المناقشة تصعب حتى يكثر الحاضرون. ولكن ما دمت قد جئت فاجلس.

كانت هذه أول مرة يتلقى فيها بافل مثل هذه الصفعة. ظهرت طيّة على جبينه بين الحاجبين.

ـ ولم كل هذه الرسميات؟ ـ أعرب خوموتوف عن عدم رضاه، ولكن كورتشاغين أوقفه بإيماءة، وجلس على مقعد. وبدأ خوموتوف يتكلم: ـ حقاً أن خودوروف انعزالي. ولكن الضبط عندنا ليس على ما ينبغي. إذا أخذ جميع الكومسموليين يكسرون المثاقب على هذا النحو، فلن يبقى لدينا ما نعمل به. وهذا مثل سيئ للا حزبيين، وضار بشكل عام، وبرأيي يجب أن

يصدر تحذيراً للفتى.

لم يدعه تسفيتايف يكمل كلامه، وشرع يعترض، وعرف كورتشاغين الوضع في المكتب بعد أن أصغى حوالى عشر دقائق. وعندما وضعت القضية في التصويت طلب الكلام. وقبل تسفيتايف على مضض.

- أحب أيها الرفاق، أن أطلعكم على رأيي في قضية كوستيكا.

كان صوت كورتشاغين أكثر حدة مما كان يريد.

- إن قضية كوستيكا هي إمارة، وليست المسألة الرئيسة هي تصرف كوستيكا بالذات. بالأمس جمعت بعض الأرقام. - وأخرج بافل من جيبه دفتر ملاحظات. - أخذتها من مسجل أوقات الدوام. فأصغوا باهتمام: ثلاثة وعشرون بالمائة من الكومسموليين يتأخرون عن العمل كل يوم ما بين خمس دقائق إلى خمس عشرة. وقد أصبح ذلك عرفاً سائداً. سبعة عشر بالمائة من الكومسموليين يتغيبون عن العمل من يوم إلى يومين في الشهر الواحد بانتظام، بينما يتغيب أربعة عشر بالمائة من الشباب اللا حزبيين، أن هذه الأرقام أوجع من وقع السياط. كما سجلت على الماشي شيئاً آخر. يتغيب أربعة بالمائة يوماً واحداً في الشهر من بين الحزبيين ويتأخر عن العمل منهم أربعة بالمائة أيضاً. ويتغيب من بين كبار السن اللا حزبيين أحد عشر بالمائة يوماً واحداً في الشهر، ويتأخر ثلاثة عشر بالمائة. ويتحمل الشبان تسعين بالمائة من تبعة كسر الآلات، من بينهم يؤلف المستجدون في العمل سبعة بالمائة فقط. ومن هذه الأرقام

يستخلص أننا نعمل أسوأ بكثير من الحزبيين والعمال الكبار في السن. ولكن الوضع هذا لا يسري في كل مكان على مستوى واحد. الوضع في قسم الحدادة ممتاز، وعند الكهربائيين مقبول، وفي بقية الأقسام على مستوى واحد تقريباً، وأعتقد أن الرفيق خوموتوف قال ربع ما يجب أن يُقال عن الضبط. إن أمامنا مهمة هي تسوية هذه التعرجات. وأنا لا أريد الإثارة وإلقاء الخطب، ولكنه خليق بنا أن نضع حداً للتهاون والتراخي. ويقول العمال القدامى بصراحة: إنهم كانوا يعملون لصاحب العمل أحسن، كانوا يعملون للرأسمالي بصورة أدق.

والآن، حين أصبحنا أسياداً، لا مبرر لها. واللوم لا يقع على كوستيكا أو آخر غيره بقدر ما يقع علينا نحن، لأننا لسنا فقط لم نناضل ضد هذا الشر كما ينبغي، بل بالعكس، دافعنا تحت هذه الذريعة أو تلك، عن أمثال كوستيكا.

قبل دقائق قال ساموخين وبوتيلياك هنا أن كوستيكا شاب من الجماعة، ونشيط، ويقوم بالواجبات الاجتماعية. ولا ضير إذا كسر مثقباً، فإن ذلك يحدث لكل شخص. وعلاوة على ذلك فهو من جماعتنا، وكبير العمال غريب... على الرغم من أن أحداً لم يجرب جذب خودوروف إلى جانبنا... إن هذا المتزمت يملك ثلاثين عاماً من الخدمة! ولنترك الكلام عن موقفه السياسي. إنه الآن على حق، إنه، وهو الغريب، يحرص على ممتلكات الدولة، بينما نحن نحطم الأدوات المستوردة. فماذا تُسمى هذه المفارقة؟ أرى من الضروري الآن أن نوجه الضربة الأولى، ونقوم بالهجوم في هذا الاتجاه.

وأقترح أن يفصل فيدين من الكومسومول باعتباره متهاوناً، ومفككاً للإنتاج. ويُكتب عن قضيته في الجريدة الحائطية، وبصراحة ومن دون خوف من أي أقوال تضمن هذه الأرقام في مقال افتتاحي. إننا نملك القوة، وعندنا من نعتمد عليه. والجمهرة الأساسية من الكومسومولين منتجون جيدون. من بينهم ستون شخصاً تحملوا تجربة بوياركا، وهي مدرسة، أصدق مدرسة. وبمساعدتهم وبمساهمتهم سنسوي هذه التعرجات. فقط يجب التخلص إلى الأبد من طريقة المعالجة الموجودة الآن.

إن كورتشاغين الهادئ الصامت في العادة كان يتحدث في تلك اللحظة بحرارة وحدة. وكان تسفيتايف لأول مرة يراقب بافل في شكله الحقيقي. وقد أدرك صواب بافل، ولكن شعور الحذر نفسه منعه من أن يتفق معه. وفهم خطاب كورتشاغين كنقد حاد لوضع المنظمة العام، وكتقويض لمنزلته، فقرر دحر بافل. وقد بدأ اعتراضاته مباشرة باتهام كورتشاغين بالدفاع عن المنشفي خودورروف.

وجرت مجادلة قوية لمدة ثلاث ساعات. وفي ساعة متأخرة من الليل توصل المتجادلون إلى نتائج لها: إن تسفيتايف، بعد أن هزمه منطق صلب من الوقائع، وفقد الأكثرية التي تحولت إلى جانب كورتشاغين، قام بخطوة خاطئة، وخرق الديمقراطية: فقد اقترح قبيل التصويت الحاسم أن يخرج كورتشاغين من الغرفة.

ـ حسناً، سأخرج، ولو أن ذلك لا يشرفك يا تسفيتايف. فقط أحذرك من أنك إذا أصررت على رأيك فإنني سأطرح

القضية غداً على اجتماع عام، وأنا واثق من أنك لن تجمع أغلبية هناك. أنت لست على حق، يا تسفيتايف. وأرى، يا رفيق خوموتوف، أنك ملزم بنقل هذه القضية إلى المنظمة الحزبية، قبل انعقاد الاجتماع العام.

فصرخ تسفيتايف مهدداً:

ـ بمَّ تخوفني أنت؟ أنا أعرف الطريق إلى هناك بدونك، وسنتحدث عنك أيضاً. إذا كنت لا تعمل فدع الآخرين يعملون.

أغلق بافل الباب، ومسح بكفه جبينه الحار، وقطع الإدارة الخالية إلى المخرج. وفي الشارع استنشق الهواء ملء صدره. ودخن سيكارة، واتجه نحو البيت الصغير على تل باتييفا، حيث كان يعيش توكاريف.

وجد بافل توكاريف بتناول عشاءه.

ـ حدثني ماذا عندكم من جديد. داريا، أجلبي له صحناً من العصيدة، ـ قال توكاريف ذلك وأجلس بافل على المائدة.

كانت داريا فومينيشنا، زوجة توكاريف، على الضد من زوجها، فارعة الطول، ممتلئة الجسم. وضعت أمام بافل صحناً من عصيدة جريش الدخن، ومسحت شفتيها المبللتين بمئزرها الأبيض، وقالت بطيبة قلب:

ـ كل، يا عزيزي.

في الماضي، عندما كان توكاريف يشتغل في ورش التصليح، كان بافل كثيراً ما يطيل الجلوس هنا إلى وقت متأخر، ولكنه الآن، بعد عودته إلى المدينة، يزور العجوز في بيته لأول مرة.

أصغى البراد إلى بافل بانتباه. ولم يقل شيئاً، بل ظل يرفع الملعقة وينزلها بانهماك، مدمدماً مع نفسه وبعد أن أتى على العصيدة مسح شاربيه بالمنديل، وسعل.

ـ أنت على حق، بالطبع. كان يجب علينا أن نعالج هذه القضية معالجة حقيقية منذ زمان. إن الورش تضم العدد الأساسي من المشتغلين في المنطقة، ومن هنا يجب ان ننطلق. إذاً قد اشتبكتما، أنت وتسفيتايف؟ سيئ. إنه شاب متغطرس بالطبع ولكن كانت لك تجربة في العمل بين الأولاد، بالمناسبة ماذا تفعل في الورش؟

ـ اشتغل في أحد الأقسام. وبشكل عام أجاهد قليلاً في كل مكان. والتزم حلقة للتثقيف السياسي في خليتي.

ـ وماذا تفعل في المكتب؟

وتلجلج كورتشاغين.

ـ في الفترة الأولى، وأنا ما أزال ضعيفاً فكرت في شيء من الدراسة. فلم أشترك رسمياً في عمل قيادي.

ـ هكذا إذاً! ـ هتف توكاريف بعدم رضى ـ اسمع يا ولدي، صحتك الضعيفة هي التي أنقذتك من ضرب تستحقه. الآن هل تحسنت قليلاً؟

ـ نعم.

ـ إذاً، اشرع الآن بالعمل كما ينبغي. لا حاجة إلى التملص ولا خير في الجلوس على التل! واضح جداً أنك تتملص من المسؤولية. ولا عذر لك في ذلك. غداً عدّل كل شيء. سأعرف ماذا أقول لأوكونيف ـ أنهى توكاريف كلامه وقد شابت صوته

نبرة من عدم الرضا. قال بافل:

- لا تعاتبه بشيء، يا أبي! - أنا الذي طلبت إليه أن لا يحملني.

صفر توكاريف في استخفاف.

- طلبت، وسمح لك؟ لا بأس، ماذا بوسعنا أن نفعل لكم، أنتم الكومسموليين.... اقرأ لي الجرائد، يا ولدي، على عادتك القديمة... أخذ بصري يضعف.

صادق مكتب المنظمة الحزبية على رأي أغلبية مكتب الكومسومول. ووضعت مهمة صعبة ذات شأن أمام الحزبيين والكومسموليين، هي أن يضربوا بعملهم الشخصي مثلاً على الضبط في العمل. وهُز تسفيتايف من الأساس في المكتب. فحاول أن يتطاول في بادئ الأمر. إلا أن لوباخين السكرتير المسؤول الكهل ذا الوجه الأصفر الشاحب من السل الناشب فيه سد عليه الطرق، واستسلم تسفيتايف، واعترف بنصف أخطائه.

وفي اليوم التالي ظهرت في الجرائد الحائطية في الورش مقالات جذبت انتباه العمال. وقد قرأوها بصوت مسموع، وناقشوها. وفي المساء، في اجتماع الشبيبة الذي حضره عدد كبير من الناس على غير العادة كان الحديث لا يدور إلا على ما جاء في هذه المقالات.

وفصل كوستيكا، وأدخل إلى المكتب رفيق جديد، مرشد سياسي جديد هو كورتشاغين.

واستمع الحاضرون إلى نجدانوف بهدوء وصبر غير مألوفين. وقد تكلم هذا عن المهمات الجديدة وعن المرحلة

الجديدة التي دخلت فيها ورش السكك.

وبعد الاجتماع كان كورتشاغين في انتظار تسفيتايف في الشارع.

ـ لنذهب سوية. عندنا ما نتحدث به ـ قال كورتشاغين وهو يتقدم من تسفيتايف. فسأل هذا بصوت كامد:

ـ عن أي شيء؟

أمسكه بافل من ذراعه، وسار معه خطوات، وتوقف عند مصطبة.

ـ أجلس دقيقة ـ جلس بافل أولاً.

كان الطرف المشتعل من سيكارة تسفيتايف يتوهج مرة، ويخمد أخرى.

ـ قل لي، يا تسفيتايف ، لماذا تقف ضدي؟..

مضت دقائق عدة في الصمت.

ـ عن هذا؟ ظننت عندك مسألة ـ قال تسفيتايف بصوت مهتز متكلف الدهشة.

وضع بافل كفه على ركبته بقوة، وقال:

ـ انزل عن بغلتك يا دميتري. الدبلوماسيون وحدهم يتكلمون هذا الكلام. أما أنت فأجبني: لماذا لا أروق لك؟

تململ تسفيتايف.

ـ ما هذا الإلحاح؟ كيف أقف ضدك أنا نفسي اقترحت لك عملاً فرفضت. والآن تزعم أنني أبعدك.

لم يتلمس بافل في صوته إخلاصاً، فأخذ يتحدث متأثراً من دون أن ينزل يده عن ركبة تسفيتايف:

ـ إذا كنت لا تريد أن تجيب فسأتكلم أنا. أتظن أنني أقف في طريقك، وأحلم في أن أحتل مكانك؟ إذا لم يكن ذلك لما تخاصمنا على قضية كوستيكا. إن مثل هذه العلائق تضر بالعمل كله. لو كان ذلك يقتصر على إعاقتنا نحن الاثنين لما اهتممت، ولقلت لنفسي: ليفكر ما يريد. ولكننا غداً سنعمل سوية. فماذا سيحصل والحال هذه؟ اسمع إذاً، لا شيء يفرق بيننا. وأنا وأنت عاملان. وإذا كانت قضيتنا أعز من كل شيء عندك فأعطني يدك، وغداً سنبدأ العمل كصديقين. وإذا لم تخرج كل هذه السخافة من رأسك، وتستمر في إثارة المتاعب فإننا سنتخاصم بقسوة على كل عثرة في العمل. هذه يدي أمدها إليك فخذها ما دامت هي يد رفيق.

وأحس بافل في ارتياح كبير بأصابع تسفيتايف المعقدة على كفه.

انقضى أسبوع، وانتهى العمل في لجنة الحزب المنطقية وساد الهدوء الأقسام. ولكن توكاريف لم يخرج. جلس العجوز على مقعد يطالع المواد الجديدة بانتباه. وطرق الباب.

ـ أها! ـ أجاب توكاريف.

ودخل كورتشاغين، ووضع أمام سكرتير اللجنة استمارتين مملوءتين.

ـ ما هذا؟

ـ هذه، يا أب، نهاية لعدم المسؤولية، أظن الوقت قد حان. فإذا كنت متفقاً معي في الرأي أرجو مساندتك.

نظر توكاريف إلى العنوان، ثم نظر إلى الشاب بضع ثوانٍ،

وتناول القلم صامتاً. «في باب الأقدمية الحزبية للذين يوصون أن يكون الرفيق بافل اندريفيتش كورتشاغين مرشحاً في الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) خط بقوة "عام ١٩٠٣".

ووضع توقيعه الواضح على مقربة.

ـ خذ، يا بني، وأنا واثق من أنك لن تجلب العار إلى رأسي الأشيب أبداً .

... الجو خانق في الغرف، والفكرة واحدة في كل رأس: الخروج في أقرب وقت ممكن إلى المماشي المعرشة بأشجار الكستناء في سولومينكا المجاورة للمحطة.

ـ انتهِ، يا بافل، لم تبقَّ لي فضلة من قوة ـ توسل تسفيتايف متصبباً عرقاً. وأيدته كاتيوشا والآخرون.

أطبق كورتشاغين الكتاب، وأنهت الحلقة عملها.

وعندما نهض الجميع رن تلفون قديم من نوع "اريكسون" على الحائط قلقاً. ورد تسفيتايف على المكالمة محاولاً أن يعلو بصوته على أصوات المتحدثين في الغرفة.

علق السماعة، واستدار نحو كورتشاغين.

ـ في المحطة عربتان دبلوماسيتان للقنصلية البولونية وقد انطفأ الضوء فيهما، والقطار سيتحرك بعد ساعة، ويجب إصلاح التوصيلة. خذ يا بافل صندوق العدة واذهب إلى هناك. القضية مستعجلة.

كانت تقف على رصيف المحطة الأولى عربتان لامعتان للنقل الدولي إحداهما عربة صالون ذات نوافذ واسعة كانت ساطعة الضوء، بينما كانت جارتها مظلمة.

تقدم بافل من عربة البولمان المترفة، وأمسك المقبض بيده يريد الدخول إلى العربة.

طلع شخص من جوار المحطة مسرعاً، وأمسكه من كتفه:

- إلى أين، أيها المواطن؟

وكان الصوت مألوفاً، فالتفت بافل، والتقط بصره سترة جلدية، وقبعة عريضة في الأعلى، وأنفاً دقيقاً معكوفاً، ونظرة حذرة مرتابة.

وعرف أرتيوخين بافل بعد نظرة طويلة، فسقطت يده عن كتفه، وزال الجفاف المرتسم على وجهه، إلا أنه تفرس في الصندوق بنظرة متسائلة.

- إلى أين كنت ذاهباً؟

أخبره بافل بإيجاز. وظهر من وراء العربة شخص آخر.

- سأدعو الآن مرافقهم.

دخل كورتشاغين عربة الصالون وراء المرافق، ورأى بضعة أشخاص جالسين في ثياب سفر رقيقة، بينما جلست امرأة إلى طاولة مغطاة بمفرش حريري مورد وظهرها إلى الباب. عندما دخل كورتشاغين كانت تتحدث مع ضابط طويل واقف أمامها. فانقطع الحديث حين ظهر بافل.

فحص بافل بسرعة الأسلاك الخارجة من المصباح الأخير إلى الممشى، ووجدها بخير، فخرج من عربة الصالون مستمراً في البحث عن الخلل. وكان المرافق البدين ذو الرقبة الغليظة كرقبة ملاكم والبزة المزينة بأزرار نحاسية عليها نسر ذو رأس واحد يتعقبه من دون تهاون.

ـ لننتقل إلى العربة الثانية، فإن كل شيء هنا بحالة جيدة، والمراكم تعمل، والخلل هناك كما يبدو.

أدار المرافق المفتاح في الباب، ودخل الاثنان في الممشى المظلم، أضاء بافل سلك التوصيلة بالمصباح الكهربائي اليدوي ووجد سريعاً مكان الانقطاع. وبعد بضع دقائق أضاء المصباح الأول في الممشى مالئاً إياه بضوء باهت حليبي.

قال كورتشاغين للمرافق:

ـ يجب فتح المقصورة، لأن من الضروري تغيير المصابيح، فقد احترقت.

ـ إذاً، يجب استدعاء السيدة لأن المفتاح عندها. ـ وأخذ المرافق كورتشاغين معه غير راغب في تركه وحده.

دخلت المرأة المقصورة أولاً وتبعها بافل. وبقي المرافق عند الباب ساداً إياه بجسمه. لفتت نظر بافل حقيبتان جلديتان أنيقتان في شبكتين، ومعطف حريري ملقى على الأريكة بإهمال، وقارورة عطر، وحُق من الملخيت على الطاولة قرب النافذة. جلست المرأة على حافة الأريكة، معدلة شعرها الكتاني، وراحت تراقب عمل الكهربائي.

قال المرافق بتذلل حانياً بصعوبة رقبته الغليظة كرقبة الثور:

ـ أرجو من السيدة أن تسمح لي بالغياب دقيقة. السيد الرائد يريد بيرة باردة.

فقالت المرأة بصوت متصنع العذوبة:

ـ يمكنك أن تذهب.

جرى الحديث باللغة البولونية.

كان خط من ضوء الممشى يسقط على كتف المرأة. وكان ثوبها الأنيق المصنوع من أنعم حرير ليون، والمفصّل عند أحسن خياطي باريس يترك كتفيها ويديها عارية. وكانت حبة من الماس تتأرجح في شحمة أذنها الصغيرة مشعة لامعة. وكان كورتشاغين يرى كتف المرأة وذراعها فقط. وكان وجهها في الظل. أدار بافل المفك بسرعة وبدل فيشة التوصيلة في السقف وبعد بضع دقائق عاد الضوء إلى المقصورة. وبقي له أن يفحص المصباح الكهربائي الثاني فوق الأريكة حيث كانت المرأة جالسة.

قال كورتشاغين وهو يقف أمام المرأة:

ـ عليَّ أن أفحص هذا المصباح.

ـ أها، نعم، فأنا أعيقك ـ أجابت السيدة بلغة روسية صافية، ونهضت من الأريكة بخفة، ووقفت جنب بافل تقريباً. والآن تكشفت لناظريه بكليتها. خطا الحاجبين المزججين مألوفان له وكذلك الشفتان المزمومتان باستعلاء. ولم يكن هناك مجال للشك. إن أمامه نيلي ليشنسكي. وما كان من ابنة المحامي إلا أن لاحظت نظرته المندهشة. ولكن إذا كان كورتشاغين قد عرفها فإنها لم تفطن إلى أن الكهربائي الذي أمامها هو جارها المزعج وقد كبر خلال تلك السنوات الأربع.

حركت حاجبيها بازدراء رداً على دهشته، وسارت نحو باب المقصورة، وتوقفت هناك ضاربة برأس حذائها المصقول بنفاد صبر. شرع بافل يعمل على المصباح الثاني وفك المصباح ونظر إليه في الضوء، وسأل باللغة البولونية بشكل لم يتوقعه هو نفسه، ولم تتوقعه ليشنسكي بالأحرى:

ـ فكتور أيضاً هنا؟

ولم يستدر حين سأل هذا السؤال. فلم ير وجه نيلي، ولكن الصمت الطويل كان دليلاً على ارتباكها.

ـ أمن المعقول أنك تعرفه؟

ـ بل وأعرفه معرفة جيدة. فقد كنا جيراناً، ـ واستدار بافل نحوها. فسألت متلجلجة:

ـ أنت بافل، ابن؟...

ـ الطباخة ـ أكمل لها كورتشاغين.

ـ كم كبرت! أتذكرك صبياً متوحشاً.

وصعدت نيلي فيه بصرها من دون كلفة، من القدم حتى الرأس.

ـ ولماذا تسأل عن فكتور؟ بقدر ما تسعفني الذاكرة أنك لم تكن معه على وئام. قالت نيلي بصوتها الغنج، آملة أن تبدد السآمة بهذا اللقاء غير المتوقع.

غرز المفك المسمار اللولبي سريعاً في الجدار.

ـ بقي على فكتور دين غير مدفوع. عندما تلتقين به أخبريه بأنني لم أفقد الأمل في استرداده.

ـ قل لي كم هو مدين لك لكي أدفع دينه.

فهمت عن أي "حساب" تحدث كورتشاغين. فقد كانت تعرف كل قصة الوشاية به إلى البيتليوريين، إلا أن الرغبة في إغاظة هذا "الصعلوك" دفعتها إلى السخرية.

لزم بافل الصمت.

سألت نيلي بحزن:

ـ قل لي: هل صحيح أن بيتنا نهب، وهو صائر إلى خراب؟ أغلب الظن أن التعريشة وأحواض الزهور قد خربت جميعاً. ها؟

ـ البيت الآن لنا وليس لكم، وما الفائدة من تخريبه؟

ضحكت نيلي ضحكة مقتضبة هازئة.

ـ أهوه، لقنوك أنت أيضاً! ولكن بالمناسبة، هذه عربة البعثة البولونية، وأنا السيدة في هذه المقصورة، وأنت بقيت كما كنت عبداً، والآن تشتغل أيضاً ليكون لي ضوء، ولتكون القراءة على هذه الأريكة مريحة لي. في الماضي كانت أمك تغسل لنا الثياب، بينما كنت تجلب الماء. والآن قد التقينا ثانية في الحالة نفسها.

تحدثت في شماتة ظافرة. أزال بافل العازل عن طرف السلك بالسكين، ونظر إلى البولونية بسخرية سافرة.

ـ لو كان الأمر يتعلق بي لما دققت لك حتى مسماراً صدئاً، أيتها المواطنة، ولكن ما دام البرجوازيون قد ابتدعوا الدبلوماسيين فإننا سنلتزم بالأصول المتبعة، فلا نقطع رؤوسهم، بل ولا نغلظ القول على غرارك.

احمر خدا نيلي.

ـ ماذا كنت ستفعل بي لو كنتم قد وفقتم في احتلال فرصوفيا؟ تفرم لحمي أم تتخذني محظية؟

كانت واقفة عند الباب منحنية انحناءة رشيقة، وقد ارتعش منخراها المتعودان على الكوكايين. واشتعل الضوء فوق الأريكة. وانتصب بافل.

ـ ومن يحتاج إليك؟ ستموتين من الكوكايين من دون حاجة

إلى سيوفنا. وأنا لا أقبل بك حتى كامرأة.

وخطا إلى الباب خطوتين والصندوق في يده. وتنحت نيلي، وسمع وهو في نهاية الممشى شتيمتها:

ـ بلشفي لعين!

في مساء اليوم التالي عندما كان كورتشاغين متجهاً إلى المكتبة التقى بكاتيوشا زيلينوفا. قبضت على ردن بلوزته بقبضتها الصغيرة، ووقفت في طريقه مداعبة.

ـ إلى أين مسرع، يا سياسة ويا إرشاد؟

ـ إلى المكتبة، يا عمة، أفسحي لي الطريق ـ

أجابها كورتشاغين بلهجتها، وأمسك كتف كاتيوشا بلطف، ونحاها عن الرصيف بحذر. حررت كاتيوشا نفسها من يديه، وسارت إلى جانبه.

راحت كاتيوشا تستميله بإلحاح:

ـ اسمع، يا بافلوشا! لا يجوز قضاء الوقت كله بالدراسة... ها؟ لنذهب اليوم إلى حفلة. اليوم يجتمع الأولاد عند زينا غلاديش. والفتيات سألنني منذ وقت طويل أن آخذك إلى هناك. وأنت لا تعرف غير السياسة، أمن المعقول أنك لا تحب أن تمرح وتتسلى؟ لا تقرأ اليوم، وأرح رأسك.

ـ أي حفلة؟ ماذا سيفعلون هناك؟

ناكدته كاتيوشا ساخرة:

ـ ماذا يفعلون! إنهم لا يجتمعون للصلاة، بل لقضاء وقت مزح لا غير. وأنت تعزف على الأكورديون، أليس كذلك؟ وأنا لم أسمع عزفك قط، فاعمل لي معروفاً، وتعال. إن لعم زينا

أكورديوناً، ولكن العم لا يجيد العزف، والفتيات مهتمات بك، وأنت لا همّ لك إلاّ الكتاب. أين كُتب أن المرح محرم على الكومسومولي؟ لنذهب قبل أن أضجر من استمالتك، وأزعل معك شهراً.

إن كاتيوشا عاملة الملاط الواسعة العينين رفيقة جيدة، وكومسومولية حسنة. ولم يرد كورتشاغين أن يكدر الفتاة، فوافق على الرغم من أنه لم يتعود على ارتياد الحفلات، وكان يضيق بها.

كانت شقة سائق القطار غلاديش مزدحمة بالناس مكتومة الهواء. انتقل الكبار إلى الغرفة الثانية لكيلا يضايقوا الشبان، بينما اجتمع في الغرفة الأولى الكبيرة، وفي الشرفة زهاء خمسة عشر فتى وفتاة.

عندما قادت كاتيوشا بافل إلى الشرفة عبر الحديقة كان المجتمعون يلعبون لعبة تسمى "إطعام الحمام". في وسط الشرفة وضع كرسيان ظهراً لظهر، وبدعوة من ربة البيت، وهي مديرة اللعبة، جلس عليهما فتى وفتاة يدير أحدهما ظهره للآخر. وصاحت ربة البيت: "اطعما الحمام!" عند ذاك أدار الشابان رأسيهما إلى الوراء حتى التقت شفاههما في قبلة أمام الحاضرين. ثم دارت لعبة "الخاتم" و"ساعي البريد"، فكانت كل واحدة منها مصحوبة بالقبل حتماً. وفي لعبة "ساعي البريد" كان التقبيل ينتقل من الشرفة المضاءة إلى الغرفة حيث يطفأ الضوء أثناءه تحاشياً للأنظار. أما الذين لم ترق لهم هذه اللعب فقد كانت هناك شدة من ورق "غزل الزهرة" على منضدة صغيرة مستديرة في ركن. مدّت جارة بافل، وهي فتاة في

السادسة عشرة تسمى مورا، ورقة إليه متغنجة بعينيها الزرقاوين، وقالت بنعومة:

- البنفسج.

قبل بضعة أعوام شهد بافل مثل هذه الحفلات، وإذا لم يكن قد شارك فيها مشاركة مباشرة، فإنه قد اعتبرها ظاهرة طبيعية على أي حال، ولكنه الآن، حين انقطع كلياً عن الحياة السطحية الضيقة للبلدة الصغيرة أحس بأن هذه الحفلة قبيحة وسخيفة.

ومهما يكن من شيء فإن ورقة "الغزل" كانت في يده.

وقرأ مقابل كلمة "بنفسج": "أنت تعجبني كثيراً".

ونظر بافل إلى الفتاة. وقابلت الفتاة نظرته بنظرة من دون ارتباك.

- ولماذا؟

خرج السؤال من فمه ثقيلاً. ولكن مورا كانت قد أعدت الجواب مسبقاً:

- وردة - ومدت إليه ورقة ثانية.

كتبت مقابل كلمة "وردة": "أنت فتاي المثالي".

التفت كورتشاغين إلى الفتاة، وسأل محاولاً تطرية لهجته:

- لماذا تشغلين نفسك في هذا العبث؟

ارتبكت مورا وذُهلت.

- أحقاً لا يعجبك اعترافي؟ - ومطت شفتيها في تكدر مزاج.

ترك كورتشاغين سؤالها بلا جواب. ولكنه كان يريد أن يعرف محدثته. فوجه إليها أسئلة أجابت عنها الفتاة بطواعية.

وبعد بضع دقائق كان قد عرف أنها تدرس في المدرسة الثانوية، وأن أباها مفتش عربات، وأنها تعرف بافل منذ مدة طويلة، وكانت تريد التعرف عليه، سأل بافل:

ـ ما اسمك الكامل؟

ـ مورا فولينتسيف.

ـ أخوك سكرتير الخلية الكومسومولية في المستودعات؟

ـ نعم.

وعندئذٍ عرف كورتشاغين من هي محدثته. إن فولينتسيف، وهو من أنشط الكومسموليين في المنطقة، لم يكن، يبدو، يعير التفاتاً لأخته، فنمت ضيقة الأفق سطحية. وفي العام الأخير أخذت تتردد على حفلات القبل السخية في بيوت صديقاتها. وقد رأت كورتشاغين عند أخيها مرات عدة.

أحست مورا عند ذاك أن سلوكها لا يروق لبافل، وعندما دعوها للعبة "إطعام الحمام" ورأت على شفتي بافل ابتسامة استهجان ساخرة رفضت الدعوة رفضاً قاطعاً.

جلسا بضع دقائق أخرى! وتحدثت مورا عن نفسها وأقبلت زيلينوفا عليهما.

ـ هل أجلب لك الأوكورديون لتعزف؟ ـ وقلصت عينيها بخبث ونظرت إلى مورا سائلة:

ـ هل تعارفتما؟

أجلس بافل كاتيوشا إلى جانبه، وقال لها مستغلاً الضحك والصياح حوله:

ـ لن أعزف. سأخرج أنا ومورا من هنا حالاً.

قالت زيلينوفا معطية قولها دلالات كثيرة:

- اهوه! يعني وقعت ؟

- نعم، وقعت. هل يوجد كومسوموليون ما عدانا هنا؟ أم أنا وأنت فقط في "برج الحمام"؟

أجابت كاتيوشا بلهجة مصالحة:

- ها هم قد انتهوا من غرائبهم. والآن سنرقص.

- حسناً، أرقصي، يا شيخة، وأنا ومورا منصرفان على أي حال.

قدمت آنا بورخارت إلى أوكونيف ذات مساء. وكان كورتشاغين وحده في الغرفة.

- هل أنت مشغول جداً، يا بافل؟ ألا تريد أن نذهب إلى دورة سوفييت المدينة؟ سيكون ذهابنا إلى هناك سوية أمتع، على الأخص أننا سنعود متأخراً.

تهيأ كورتشاغين للذهاب بسرعة. كان مسدس الموزر معلقاً فوق سريره، إلا أنه ثقيل جداً. فأخرج مسدس أوكونيف "البراونينغ" من الطاولة ووضعه في جيبه. وكتب ورقة لأوكونيف، وخبأ المفتاح في المكان المتفق عليه.

التقيا ببانكراتوف وأولغا في المسرح. وجلسوا سوية، وفي الفترات تمشوا في الفسحة. واستمر الاجتماع إلى ساعة متأخرة من الليل كما توقعت آنا بورخارت. واقترحت أولغا:

- ربما نذهب إلى شقتي للمبيت؟ فإن الوقت متأخر، والطريق طويل.

قالت آنا رافضة:

ـ لا، فقد اتفقنا على الرجوع.

سار بانكراتوف وأولغا منحدرين في الشارع، بينما صعدت آنا وبافل في التل إلى سولومينكا.

كان الليل راكد الهواء، حالك الظلام، والمدينة هاجعة. وكان المشتركون في الدورة يتفرقون إلى مختلف الجهات في الشوارع الساكنة. تلاشى وقع خطاهم وأصواتهم رويداً رويداً. وابتعد بافل وآنا مسرعين عن الشوارع المركزية. وفي السوق الخالي أوقفهما حارس. وتركهما بعد أن فحص هويتيهما.

عبرا البولفار إلى شارع مقفر غير مضاء ممتد عبر أرض فضاء. وانعطفا يساراً، وسارا في الجادة العريضة الموازية لمستودعات السكك الرئيسية.

وهي بنايات من الخرسانة طويلة كئيبة موحشة. واستولى قلق مفاجئ على آنا. فراحت تحدق في الظلمة متوجسة، وترد على بافل بتقطع وتهافت.

رأت ظلاً بدا لها مريباً، ولما تبينت أنه عمود تلفون ضحكت، وأخبرت بافل بحالتها، أمسكت بذراعه، وألصقت كتفها بكتفه، وهدأت.

ـ عمري اثنان وعشرون عاماً، ولكنني تالفة الأعصاب كالعجوز، قد تعتبرني جبانة، وهذا غير صحيح. ولكن حالتي اليوم متوترة بشكل خاص. والآن، حين أشعر بك إلى جانبي تزول الرهبة، بل أخجل من مخاوفي هذه كلها.

إن هدوء بافل، وتوهج طرف سيكارته الذي كان يضيء جانباً من وجهه، وتقوس حاجبيه الرجولي، بدد هذا كله الفزع

الذي أثارته حلكة الليل، ووحشة الأرض الفضاء، والقصة التي ترددت في المسرح عن القتل المريع الذي حصل يوم أمس في حي بودول.

خلفا المستودعات وراءهما، وجاءا إلى قنطرة على جدول، وسارا في الجادة المجاورة للمحطة إلى الممر النفقي في الأسفل تحت الخطوط الحديدية، والذي يربط هذه المنطقة من البلدة بمنطقة السكك.

بقيت المحطة بعيدة خلفهما إلى اليمين. أدى الممر إلى خط التخزين، وراء المستودعات، لقد وصلا إلى أماكنهما.

في الأعلى، حيث الخطوط الحديدية، لمعت أضواء متعددة الألوان على تحاويل الخطوط والملوحات، وعند المستودعات كانت تلهث قاطرة في تعب لتنال راحتها الليلية.

كان فوق مدخل الممر مصباح يتدلى من كلاب صدئ، مهتزاً من الريح اهتزازاً خفيفاً، فكان ضوؤه الكامد الشاحب يتأرجح على جداري النفق.

وفي الجادة، على بعد عشر خطوات من مدخل النفق يقف بيت صغير منفرد أصيب، قبل عامين، بقنبلة ثقيلة دمرت داخله، وأحالت واجهته إلى أنقاض، فهو الآن منشق عن ثغرة هائلة، مثل شحاذ على جانب الطريق يعرض عاهته. وهدر قطار على السدة في الأعلى.

قالت آنا بترويح:

ـ وصلنا إلى البيت تقريباً.

حاول بافل أن يحرر ذراعه منها من دون أن تلاحظ. كان يود أن تكون ذراعه طليقة وهما يقتربان من الممر.

إلا أن آنا لم تطلق ذراعه.

ومرا بالبيت المتهدم.

تساقط وراءهما حطام سلخته أقدام راكضة.

سحب كورتشاغين ذراعه، إلا أن آنا من شدة الذعر ضغطتها على جسمها، وعندما حررها بالقوة آخر الأمر كان الوقت قد فات. أطبقت على رقبة بافل أصابع حديدية، وجُذب بافل إلى ناحية، وواجه مهاجمه. احتكت ماسورة مسدس بأسنانه تماماً، ودبت اليد إلى حنجرته، ولوت ياقة قميصه حتى شدت على خناقه، وصوبت عليه فوهة المسدس التي رسمت قوساً ببطء.

راقبت عينا بافل المسحورتان هذا القوس بتوتر لا يتحمله إنسان. حدق به الموت من فوهة المسدس، ولم تكن هناك القوة ولا الإرادة الكافية لصرف بصره عن الفوهة ثانية واحدة. وانتظر الضربة. إلا أن المهاجم لم يطلق النار، ورأت عينا بافل المتسعتان وجه قاطع الطريق، جمجمة كبيرة، وفك جبارة، وسواد وجه لم يحلق، بينما بقيت العينان في ظل ظليلة القبعة العريضة.

التقط كورتشاغين بنظرة خاطفة من مؤخر عينه وجه آنا الممتقع المبيض. في تلك اللحظة الخاطفة كان أحد الثلاثة يدفعها نحو ثغرة البيت. لوى ذراعيها، وطرحها أرضاً. تقدم منه شبح آخر لم يرَ إلا انعكاسه على جدار النفق. وفي الخلف، في

ثغرة البيت جرى صراع. ةازمت آنا مستميتة. وأفلتت صيحتها المكتومة من فمها المكموم بطاقية. انجذب الرجل ذو الرأس الكبير الذي كان يطبق على خناق بافل. نحو الفريسة كالوحش، وهو لا يريد أن يبقى شاهداً متفرجاً على الاغتصاب. كان، كما يبدو، رئيس العصابة ولم يرق له هذا التوزيع للأدوار. والشاب الذي يمسك بتلابيبه حَدَث غرير تماماً، يدل مظهره على أنه من "حثالة المستودعات".

ولا يمثل هذا الغلام أي خطر. "أضربه ضربتين أو ثلاث ضربات محترمة على جبينه، ودله على الطريق إلى الأرض الفضاء، وسيولي الإدبار في الحال، ولا يلتفت وراءه حتى البلدة". وفك قبضته.

ـ اركض، وعُد من حيث أتيت. وإذا صدر منك صوت انغرزت رصاصة في علبائك.

وضرب صاحب الرأس الكبير كورتشاغين على جبهته بمقبض مسدسه.

ـ اركض ـ قال بصوت مبحوح، وأنزل المسدس حتى يؤمنه من رصاصة لن تطلق على ظهره.

تراجع كورتشاغين خطوتين جانباً من دون أن يصرف نظره عن صاحب الرأس الكبير.

تصور قاطع الطريق أن الشاب لا يزال خائفاً من أن يُرمى بطلقة، فاستدار نحو البيت.

أسرع بافل في دس يده في جيبه. "فقط أن لا يفلت، لا يفلت!" واستدار مرة أخرى، ومدّ إلى الأمام ذراعه اليسرى،

وبلمحة واحدة سدد الفوهة نحو صاحب الرأس الكبير وأطلق النار.

أدرك قاطع الطريق خطاه بعد فوات الوقت، انغرزت الرصاصة في جنبه قبل أن يرفع يده.

ترنح على جدار النفق من الضربة، وأرسل آهة خافتة متشبثاً بيده على خرسانة الحائط، وهوى على الأرض ببطء. انسل ظل من ثغرة البيت إلى المنخفض في الأسفل. فلاحقته الرصاصة الثانية. انطوى الظل الثاني على نفسه. وركض بقفزات إلى ظلام النفق. صدرت طلقة أخرى. ومال الظل جانباً وقد كساه الغبار الذي انتزعته الطلقة من الخرسانة، واختفى الظل في الظلمة. وعكرت صفو الليل رصاصة ثالثة انطلقت في أثره. تلوى صاحب الرأس الكبير عند الحائط كالدودة محتضراً .

أنهض كورتشاغين آنا من الأرض، وهي ترتجف ذعراً مما حدث. نظرت الفتاة إلى الشقي المتلوي، وأدركت نجاتها إدراكاً ضعيفاً.

جذبها كورتشاغين إلى الظلمة بقوة، متراجعاً بها من منطقة الضوء إلى الخلف، نحو البلدة. ركضا إلى المحطة. بينما لمعت أضواء على السدة عند النفق، وأطلقت رصاصة إنذار صادرة من بندقية عند خطوط السكك الحديدية.

عندما وصلا إلى شقة آنا، على تل باتيفا أخذت الديكة تصيح. استلقت آنا على السرير، وجلس كورتشاغين إلى المنضدة، ودخن مراقباً بانتباه نفثات الدخان الرمادية تتصاعد إلى

الأعلى... إن الرجل الذي قتله قبل حين هو رابع شخص يقتله في حياته.

وهل هناك على العموم شجاعة تظهر دائماً بشكلها الكامل؟ اعترف مع نفسه، وهو يتذكر جميع مشاعره ومعاناته، بأن عين الفوهة السوداء جمّدت قلبه في الثواني الأولى. ثم هل من المعقول أن الذنب في هروب الظلين الآخرين بلا عقاب يقع فقط على عمى عينه، واضطراره للضرب باليد اليسرى؟ لا. إن التسديد من مسافة عدة خطوات كان من الممكن أن يكون أحكم، ومع ذلك فإن التوتر والتسرع، وهما إمارة ثابتة على الاضطراب، قد عرقلاه.

كان ضوء مصباح الطاولة يضيء رأسه، فراقبته آنا من دون أن تغيب عنها حركة من حركات عضلات وجهه. كانت عيناه هادئتين، والثنية وحدها على جبينه كانت تنم عن توتر فكره.

ـ بِمَ تفكر، يا بافل؟

أفزع أفكاره السؤال فسبحت مبتعدة كالدخان وراء نصف الدائرة المضاء. وقال أول ما خطر على باله:

ـ يجب أن أذهب إلى المخفر. يجب الإبلاغ عن ذلك كله.

ونهض كارهاً مغالباً تعبه.

ولم تطلق يده حالاً ـ فلم ترد أن تبقى وحيدة. صحبته إلى الباب، ولم تغلقه إلا حين غاب كورتشاغين في الليل، وقد أصبح عزيزاً عليها، قريباً إلى نفسها.

أزاح بلاغ كورتشاغين إلى المخفر الغموض عن قتل حيّر حراسة السكك. وقد عرفت الجثة في الحال. إنها جثة فيمكا

تشيريب الشقي القاتل المتعود على الإجرام المعروف جيداً لدى التحقيقات الجنائية.

وأصبح حادث النفق في اليوم التالي معروفاً للجميع. وهذا الظرف أثار تصادماً غير متوقع بين بافل وتسفيتايف.

دخل تسفيتايف إلى الورشة وهي في حُمَيّا العمل، واستدعى كورتشاغين ، قاده إلى الممشى، وتوقف في زاوية بعيدة منه. كان تسفيتايف منفعلاً لا يعرف بِمَ يبدأ حديثه، وأخيراً تكلم:

ـ حدثني ماذا حصل يوم أمس.

ـ أنت تعرف.

هز تسفيتايف كتفيه باضطراب. ولم يعرف بافل أن حادث النفق كان يحز في نفس تسفيتايف أكثر من الآخرين. ولم يعرف بافل أن تسفيتايف، خلافاً للامبالته الظاهرية، كان يضمر ميلاً نحو بورخارت. ولم يكن هو الوحيد الذي حركت آنا عاطفة الميل في قلبه، بل إن هذه العاطفة كانت أكثر تعقيداً في قلب تسفيتايف . إن حادث النفق الذي عرف به من لاغوتينا قبل حين أثار في وعيه سؤالاً معذباً ظل بلا جواب. ولم يكن بوسعه أن يلقي هذا السؤال على بافل بشكل مباشر، ولكنه كان يريد الجواب. وقد أدرك بزاوية من وعيه التفاهة الأنانية لمخاوفه ولكن الشعور البدائي البهيمي انتصر هذه المرة في صراع المشاعر المتناقضة داخل نفسه. قال مخنوق الصوت:

ـ اسمع، يا كورتشاغين، ليبقَّ الحديث بيننا، أنا أعرف أنك لن تتحدث عن ذلك لكيلا تغيظ آنا، ولكن تستطيع أن تثق بي.

قل لي: حين كان الشقي يمسك بك، هل اغتصب الآخران آنا؟
ـ ولم يضبط تسفيتايف نفسه في آخر العبارة فأدار بصره جانباً.

بدأ كورتشاغين يفهمه فهماً غير واضح. "إذا كان تسفيتايف لا يهتم بآنا لما تأثر هذا التأثر. وإذا كانت آنا عزيزة عليه لـ ...." وتكدر بافل لما لحق آنا من إهانة.

ـ ولماذا سألت؟

نطق تسفيتايف بشيء غير مربوط، وغضب وقد شعر بأن سره قد كشف.

ـ لماذا تتهرب؟ أنا أرجوك أن تجيب، وأنت تبدأ بالتحقيق.

ـ هل تحب آنا؟

صمت. ثم أجاب تسفيتايف بصعوبة:

ـ نعم.

كبت كورتشاغين حنقه بالكاد، واستدار وسار في الممشى غير ناظر إلى الوراء.

ذات مساء حام أوكونيف عند سرير صديقه بافل، ثم جلس على حافته، ووضع يده على الكتاب الذي كان يقرؤه بافل.

ـ اسمع، يا بافل، أنا مضطر إلى أن أبوح لك بشيء. إنه من ناحية يبدو تافهاً، ومن الناحية الأخرى على العكس تماماً. حصل بيني وبين تاليا لاغوتينا سوء تفاهم. أقول لك أولاً، إنها تعجبني ـ وحك أوكونيف صدغه متحرجاً، ولكن حين رأى صديقه لا يضحك تجرأ على متابعة القول ـ ثم إن لتاليا شعوراً من هذا النوع. باختصار، أنا لا أنوي إخبارك بالأمر كله، فكل

شيء واضح وضوح الشمس. بالأمس قررنا أن نجرب حظنا، ونبني حياتنا الزوجية. أنا الآن في الثانية والعشرين، وكلانا يملك حق التصويت. وأريد أن أقيم حياتي مع تاليا على أسس المساواة. ما رأيك؟

فكر كورتشاغين:

- بماذا أستطيع أن أجيب، يا نيكولاي، كلاكما صديق لي، ومن أسرة واحدة، وأصل واحد، وسائر الأشياء مشتركة أيضاً، تاليا فتاة طيبة جداً... كل شيء مفهوم هنا.

في اليوم التالي نقل كورتشاغين أشياءه إلى زملائه في المسكن العام للمستودعات. وبعد بضعة أيام كانت في بيت آنا حفلة رفاقية لا طعام فيها ولا شراب - أمسية شيوعية احتفالاً بوصال تاليا ونيكولاي. كانت أمسية للذكريات وقراءة مقتطفات من أكثر الكتب تأثيراً في النفوس. وغنى الحاضرون كثيراً من الأغاني الجيدة بصوت جماعي. وترددت أناشيد الكفاح بعيداً، وفي ساعة متأخرة جلبت كاتيوشا زيلينوفا، ومورا فولينتسيفا أوكورديوناً. وملأ الغرفة هدير الأصوات القوي، ورنين الإيقاعات الفضي. وفي ذلك المساء عزف بافل عزفاً جيداً، بشكل نادر، وعندما شرع بانكراتوف الطويل يرقص وسط دهشة الجميع. نسي بافل نفسه وفقد الأوكورديون الأسلوب الجديد، وعاد يعزف بنفس الحماس القديم:

- آه، يا درب الفانين
هذا دينكين اللعين
على كولتشاك حزين

عزف الأوكورديون عن ذكريات الماضي، عن أعوام القتال، وعن صداقة اليوم، الكفاح والفرح. ولكن، حين نقل الأوكورديون إلى فولينتسيف، وعزف هذا لحن "التفاحة" الحار انطلق كورتشاغين يرقص رقصاً سريعاً، والناس ذاهلون من حوله. ورقص كورتشاغين رقصة الطقطقة الجنونية، للمرة الثالثة في حياته، وللمرة الأخيرة.

الفصل الرابع

الحدود عبارة عن عمودين أحدهما يواجه الآخر، صامتين متعاديين يمثلان عالمين. أحد العمودين مسحوج مصقول مطلي بالأسود والأبيض مثل كشك البوليس، في أعلاه سمّر بمسامير قوية نسر كاسر ذو رأس واحد مبسوط الجناحين ينشب مخالبه بالعمود المخطط، وينظر إلى الدرع المعدني المواجه له نظرة شريرة، ومنسره المعكوف ممدود ومتوتر. وعلى بُعد ست خطوات في الجانب المقابل يقف العمود الآخر البلوطي المدور المقشر المغروز عميقاً في الأرض. وعلى العمود درع من الحديد المصبوب عليه المطرقة والمنجل. وبين العالمين هوة رغم أن العمودين غرزا في أرض مستوية. فالإنسان يتعذر عليه اجتياز هذه الخطوات الست من دون المجازفة في حياته.

هنا الحدود.

من البحر الأسود، عبر آلاف الكيلومترات، حتى المحيط المتجمد في أقصى الشمال امتد خط ساكن من هذه الأعمدة، الحارسات الصموتات للجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، والحاملات شعار العمل العظيم على دروع حديدية. من ذلك العمود الذي دق عليه النسر الكاسر تبدأ الحدود الفاصلة بين

أوكرانيا السوفييتات، وبولونيا البانات، وعلى بعد عشرة كيلومترات منها تقع قصبة بريزدوف الصغيرة ضائعة في رحاب أوكرانيا، مقابل قصبة كوريتس البولونية. ومن قصبة سلافوتا إلى قصبة أنابول تقع منطقة كتيبة "دن" لحراسة الحدود.

أعمدة الحدود تمر عبر حقول غطاها الثلج شاقة طريقها خلال فرجات الغابة، وتنزل في الوهاد، وتتسلق طالعة، وتصعد في التلال، وعندما تصل إلى النهر تتطلع شامخة من على الشاطئ العالي إلى الوديان الملفعة بالثلج في بلاد الآخرين.

البرد قارص. والثلج يخشخش تحت الأحذية اللبادية. ينفصل عن عمود المطرقة والمنجل شخص ضخم عليه خوذة هائلة، ويقوم بالدورية في منطقته ثقيل الخطى. إن الجندي الأحمر الضخم هذا يرتدي معطفاً عسكرياً رمادياً عليه شارات خضر، وحذاء لبادياً، وقد ألقى فوق معطفه جبة خروف كبيرة لها ياقة واسعة جداً، بينما كانت تدفئ رأسه خوذة من اللباد، ويديه قفازان من فراء الخروف. والجبة طويلة تصل إلى أخمص القدمين وتدفئ حتى في العواصف الثلجية الضارية. وعلى كتف الجندي الأحمر فوق الجبة بندقية. وهو يسير على درب الحراسة ساحباً الثلج بأذيال جبته، ممتصاً بتلذذ دخان سيكارته الملفوفة. إن حراس الحدود السوفييتية يقفون في العراء، يفصل أحدهم عن الآخر كيلومتر واحد لكي يرى كل حارس جاره بالعين المجردة. وعلى الحدود البولونية بين كل حارس وحارس كيلومتر أو كيلومتران.

ويسير جندي مشاة بولوني في درب حراسته للقاء الجندي

الأحمر. إنه يرتدي حذاء الجنود الثقيل وبزة رمادية مخضوضرة، فوقها معطف أسود عليه صفان من الأزرار اللامعة. وعلى رأسه قبعة بولونية مربعة، وضع عليها نسر أبيض، وعلى الكتافتين اللباديتين نسران، وعلى الشارتين العنقيتين نسران، ولكن النسور لا تشعره بدفء أكثر. جمده القرس الشديد حتى العظام. ويفرك أذنيه المتخشبتين، ويرطم قدماً بقدم أثناء سيره، ويداه في القفازين الخفيفين متجمدتان. ولا يستطيع الجندي البولوني أن يتوقف دقيقة واحدة، فإن القرس سيصلب مفاصله، فهو يتحرك دائماً، وأحياناً يهرول، توازى الحارسان، واستدار البولوني، وسار بموازاة الجندي الأحمر.

تبادل الحديث على الحدود ممنوع، ولكن حين يكون الفراغ من كل جانب، ولا إنسان على مدى كيلومتر ـ فلا يدري أحد هل يسير هذان صامتين، أم يخرقان القوانين الدولية.

ويريد البولوني أن يدخن، ولكنه نسي علبة الكبريت في ثكنته، والريح، وكأنها تعاكسه، تحمل من الجانب السوفييتي رائحة تبغ الماخوركا المغرية. كف البولوني عن فرك أذنه المتجمدة، ونظر إلى الوراء، يحدث أن تخرج دورية من الخيالة مع رقيب أول، أو مع رئيس من وراء أكمة فجأة متجولة في الحدود لتتفقد نقاط الحراسة. إلا أنه لم يرَ شيئاً. والشمس منعكسة على الثلج انعكاساً يبهر العينين. والسماء خالية من كل سحابة.

ـ اعطني كبريتاً، يا رفيق ـ يبادر البولوني بخرق قدسية القانون، ويلقي بندقيته الفرنسية الكثيرة الطلقات بحربتها الطويلة

وراء ظهره، ويخرج بأصابعه المتجمدة علبة سكائر رخيصة من جيب معطفه بصعوبة .

ويسمع الجندي الأحمر رجاء البولوني، ولكن القواعد العسكرية للخدمة على الحدود تحرّم على المحارب التحدث مع شخص من الأجانب، ـ وبالإضافة إلى ذلك لم يفهم تماماً ما قال الجندي، فيتابع سيره، منقلاً بثبات على الثلج الصارف قدميه المدفأتين في الحذائين اللباديين الناعمين.

ـ أيها الرفيق البلشفي ، دعني أشعل سيكارتي، ألقِ علبة الكبريت. ـ في هذه المرة يتحدث البولوني باللغة الروسية.

ويتطلع الجندي الأحمر إلى جاره. ويفكر "يبدو أن القرس نفذ إلى نخاع "البان". على الرغم من أنه جندي برجوازي، إلا أن حياته رثة. أخرج في هذا البرد القارس في معطف خفيف، فهو ينط كالأرنب، والتدخين في مثل هذه الحال لا غنى عنه". ويلقي الجندي الأحمر علبة الكبريت من دون أن يلتفت. ويلتقطها الجندي وهي طائرة، ويشعل أعواد ثقاب عدة قبل أن يوفق أخيراً في إشعال سيكارته.

وتعبر علبة الكبريت الحدود ثانية بنفس الطريقة، وعندئذٍ يخرق الجندي الأحمر القانون من دون أن يدري:

ـ ابقها معك، عندي أخرى.

ولكن صوت الجندي يأتي من وراء الحدود:

ـ لا ، شكراً، لو أخذت هذه العلبة حبست سنتين عليها.

وينظر الجندي الأحمر إلى علبة الكبريت. على وجهها طائرة، في محل المروحة منها قبضة جبارة، وكلمة "إنذار

نهائي". "حقاً، إنهما لا تلائمهم".

ويستمر الجندي في السير معه في جهة واحدة. فهو يستوحش أن يسير وحيداً في العراء المقفر.

السرجان يرسلان صريفاً منغماً، والحصانان يعدوان في نسق واحد مهدئ. وعلى بوز الجواد الأسحم، وحول منخريه، وعلى الشعر جمد، وأنفاسه تذوب في الهواء بخاراً أبيض، تنقل الفرس الرقشاء تحت آمر الكتيبة رجلها برشاقة، وتعبث بالرسن، وتقوس عنقها الرقيق. وكلا الفارسين يرتدي معطفاً رمادياً محزماً في الوسط، وعلى ردن كل فارس ثلاثة مربعات حمر، إلا أن الشارتين على عنق آمر الكتيبة غافريلوف خضراوان وشارتا مرافقه حمراوان. إن غافريلوف آمر كتيبة الحدود التي تمتد نقاط حراستها سبعين كيلومتراً، وهو "صاحب الأمر" هنا. ومرافقه ضيف من بريزدوف، هو مفوض الكتيبة الحربي كورتشاغين من التدريب العسكري العام.

في الليل سقط الثلج، وهو الآن يغطي الأرض كالزغب ناعماً لم يمسسه حافر ولا قدم إنسان.

خرج الفارسان من الأدغال، وأخذا يعدوان في أرض فضاء. وعلى بعد أربعين خطوة تقريباً إلى جانبهما عمودان آخران.

ـ قف!

ويشد غافريلوف على مقود فرسه بقوة. ويدير كورتشاغين حصانه الأسحم ليعرف سبب التوقف. كان غافريلوف متدلياً من سرجه، فاحصاً بعناية خطاً غريباً من الآثار على الثلج يبدو وكأن أحداً جر عجلة مسننة. من هنا مر حيوان صغير ماكر واضعاً قدماً

على قدم، معمياً أثره بعقصات غريبة. كان من الصعب تحديد بداية الأثر، إلا أن ما حمل آمر الكتيبة على التوقف لم يكن أثر الحيوان هذا. كانت على خطوتين من الخط آثار أخرى تناثر عليها الثلج. لقد سار إنسان هنا. وهو لم يعم على آثار قدمه، بل سار نحو الغابة رأساً، وكان واضحاً من الأثر أن هذا الإنسان جاء من بولونيا. حث آمر الكتيبة فرسه، وتابع سير الأثر المؤدي إلى درب الحراسة. وعلى بعد عشر خطوات من الجانب البولوني انطبعت آثار أقدام. تمتم آمر الكتيبة:

ـ عبر شخص الحدود ليلاً ففات على المفرزة الثالثة ملاحظته مرة أخرى. ولم يُذكر ذلك في التقرير الصباحي. اللعنة!
ـ لمع شاربا غافريلوف الشائبان كالفضة وقد أذابت أنفاسه قطرات الجمد عليهما واسترخيا فوق شفته بعبوس.

في البعيد شبحان يسيران نحو الفارسين أحدهما صغير أسود يتلألأ نصل حربته الفرنسية في الشمس، والآخر ضخم في جبة خروف صفراء. شعرت الفرس الرقشاء بالمهماز فأخذت تعدو، واقترب الفارسان سريعاً من المقبل عليهما. عدل الجندي الأحمر حمالة البندقية على كتفه، وبصق على الثلج سيكارة لم ينتهِ من تدخينها.

ـ سلام يا رفيق! كيف الأمر في منطقتك؟ ـ ويقدم آمر الكتيبة يده وهو لا يكاد يحني قامته، لأن الجندي الأحمر مديد القامة. ويسرع الجندي العملاق في خلع القفاز من يده. ويصافح الآمر الحارس.

البولوني يراقب من بعيد. هذان ضابطان أحمران (المربعات

الثلاثة على الكتافتين تعني رتبة رائد عند البلاشفة) يسلمان على الجندي وكأنهم أصدقاء. ويتصور خطفاً لو يمد يده إلى رائده زاكرجيفسكي، ويحمله هذا التصور اللا معقول إلى الالتفات.

أبلغ الجندي الأحمر آمره:

ـ قمت بالدورية من توي، أيها الرفيق آمر الكتيبة.

ـ هل رأيت الآثار هناك؟

ـ لا، لم أرها بعد.

ـ مَنْ لزم الحراسة في الليل من الساعة الثانية إلى السادسة؟

ـ سوروتنكو، أيها الرفيق الآمر.

ـ حسناً، انظر بعينيك الاثنتين.

وحذر بشدة، وهو يهم بالانصراف:

ـ قلل من الملاطفة مع أولئك.

عندما انطلق الفرسان يعدوان في الطريق العريضة الممتدة بين الحدود وقصبة بريزدوف تحدث آمر الكتيبة قائلاً:

ـ الحدود بحاجة إلى عين يقظة. ما أن تغفل عنها قليلاً حتى تعض بنان الندم. عملنا يحتاج إلى السهر. في النهار ليس من السهل جداً عبور الحدود، ولكن يجب أن تلتزم جانب الحذر واليقظة في الليل، احكم بنفسك، يا رفيق كورتشاغين. في منطقتي أربع قرى مقسومة إلى نصفين. والحراسة فيها صعبة جداً. مهما شددّت الحراسة فإن الأقارب يجتازون نطاقها في كل حفلة زفاف أو عيد. ولا غرابة فإن البيت عن البيت يبعد زهاء عشرين خطوة، أما الجدول فتستطيع الدجاجة أن تعبره خوضاً. ولا مناص من التهريب أيضاً. حقاً، إن كل هذه الأشياء توافه إذا

تعلق الأمر بتهريب عجوز زجاجتين من الفودكا البولونية، ولكن هناك عدد غير قليل من المهربين الكبار المجهزين بمبالغ كبيرة من النقود. هل تعرف ماذا يفعل البولونيون؟ فتحوا في جميع قرى الحدود حوانيت عامة فاشتر ما تشاء. وبالطبع إنهم لم يفعلوا ذلك لفلاحيهم الفقراء.

أصغى كورتشاغين إلى الآمر باهتمام. إن حياة الحدود شبيهة بمهمة استطلاع لا تنقطع.

ـ قل لي أيها الرفيق غافريلوف هل يقتصر الأمر على قضية التهريب فقط؟

أجاب الآمر جهماً:

ـ تلك هي المسألة.

قصبة بريزدوف الصغيرة زاوية نائية في الأقاليم كانت من قبل مستوطناً مخصصاً لليهود. ما بين مائتين أو ثلاثمائة بيت صغير بنيت أينما اتفق، وساحة سوق كبيرة في وسطها عشرون دكاناً. والساحة قذرة يتناثر فيها الروث. وحول القصبة بيوت الفلاحين. وفي الحي اليهودي المركزي على الطريق إلى المجزرة كنيس قديم هو عبارة عن مبنى واهن موحش. حقاً إن الكنيس لم يكن يشكو في أيام السبوت من فراغ جنباته، ولكن ذلك لم يكن كالزمن القديم، لم تكن حياة الحاخام كما كان يهوى. يبدو أن شيئاً صالحاً جداً حصل في عام ١٩١٧، حتى أن الشبان هنا أيضاً، في هذه البقعة المنبوذة، لا ينظرون إلى الحاخام نظرة الاحترام الواجب. حقاً إن الشيوخ لا يزالون لا يأكلون غير «الكُشير»، ولكن كم من الصبيان يأكلون سجق لحم الخنزير

الذي ذمه الرب! تفو، مجرد التفكير في ذلك كريه! ويرفس الحاخام باروخ في سورة الغضب خنزيراً! يبحث بهمة في كومة روث بحثاً عن شيء يؤكل، نعم، إن الحاخام غير راضٍ كلياً عن تحول بريزدوف إلى حاضرة المنطقة. والشيطان يعرف من أين انثال هؤلاء الشيوعيون، والجميع في دوران مستمر، وكل يوم يأتي بتنغيص جديد، أمس رأى الحاخام على بوابة بيت الكاهن لافتة جديدة:

لجنة منطقة بريزدوف

لاتحاد الشبيبة الشيوعي لأوكرانيا

ليس من الممكن انتظار خير من هذه اللافتة. وفجأة والحاخام غارق في أفكاره، وجد نفسه أمام إعلان صغير لصق على باب كنيسه:

يعقد اليوم في النادي اجتماع افتتاحي لشغيلة الشبيبة، وسيلقي رئيس اللجنة التنفيذية ليستسين والقائم بأعمال سكرتير اللجنة الكومسومولية المنطقية الرفيق كورتشاغين تقريرين. بعد الاجتماع سيقدم طلاب المدرسة الثانوية حفلة موسيقية غنائية.

نزع الحاخام الورقة من الباب بحدة:

"ها هي قد بدأت!".

كانت حديقة بيت الكاهن الكبير تحدق بكنيسة القصبة من الجانبين، وفي الحديقة بيت واسع على الطراز القديم. يملأ الفراغ الموحش العفن حجراته التي عاش فيها الكاهن وزوجته الشائخان الكئيبان كالبيت، الضجران أحدهما من الآخر منذ زمن طويل. وقد زالت الوحشة في الحال حين دخل البيت أصحاب

جدد. وأصبحت القاعة الكبيرة التي كان الكاهن وزوجته يستقبلان الضيوف فيها في أعياد القديسين فقط تغص بالناس دائماً. وأصبح بيت الكاهن مقر لجنة الحزب لبريزدوف. وكتب بالطباشير على باب حجرة صغيرة إلى يمين المدخل الأمامي "لجنة الكومسومول المنطقية". هنا يقضي كورتشاغين جزءاً من يومه. وكان يقوم في النيابة بمهام سكرتير لجنة الكومسومول المنطقية المشكلة حديثاً بالإضافة إلى عمله كمفوض حربي للكتيبة الثانية للتدريب العسكري العام.

مرت ثمانية أشهر على قيامهم بالحفلة الرفاقية في بيت آنا، إلا أن ذلك يبدو وكأنه وقع قبل حين. دفع كورتشاغين كومة الأوراق جانباً، واسترخى على ظهر المقعد، وراح يفكر...

البيت هادئ، خلا مقر اللجنة الحزبية في وقت متأخر من الليل. منذ حين انصرف آخر الرفاق، سكرتير لجنة الحزب المنطقية تروفيموف. وبقي كورتشاغين وحده في البيت. النوافذ مزينة برسوم الجَمَد العجيبة. ومصباح الكيروسين على المنضدة، والموقد يشع حرارة. ويتذكر كورتشاغين الماضي القريب. في آب أرسله العاملون في ورش التصليح إلى يكاترينوسلاف كمنظم للشبيبة مع قطار تصليح.

مائة وخمسون شخصاً ظلوا يتنقلون من محطة إلى أخرى حتى مضى من الخريف أكثره، مزيلين من هذه المحطات آثار الحرب والخراب، والعربات المحروقة والمحطمة. قطعوا الطريق من سينيلنيكوف إلى بولوغ. هنا، في مملكة الشقي ماخنو السابقة كانت آثار الدمار والتخريب في كل مكان. وفي غولاي - بوله

أمضوا أسبوعاً في ترميم المبنى الآجري لبرج الماء، ولحم رقع حديدية على جوانب صهريج الماء التي ثقبها الديناميت. ولم يكن الكهربائي كورتشاغين يعرف فن العمل الميكانيكي ومشقته، إلا أن يديه المزوديتن بالمفك شدَّت أكثر من ألف صامولة صدئة.

وعاد القطار إلى ورشه والخريف قد سلخ أكثر عمره... واستردت الورش مائة وخمسين زوجاً من الأيدي...

وكثر تردد بافل على آنا. وأمحت الثنية على جبينه، وترددت ضحكته كالعدوى من حين لآخر.

وعاد زملاء العمل في الحلقات يسمعون قصصه عن سني النضال الخوالي، عن محاولات روسيا الفقيرة المستعبدة المتمردة للإطاحة بالغول المتوَّج، وعن عصيان ستيبان رازين، وبوغاتشيف.

ذات مساء، عندما اجتمع شبان كثيرون في شقة آنا، امتنع بافل فجأة عن عادة قديمة مضرة بالصحة. لقد أعلن بصرامة وحزم، وهو الذي قد تعود التدخين من سن مبكرة جداً:

- لن أدخن بعد الآن.

وقد أعلن ذلك فجأة. وكان أحد الحاضرين قد أخذ يجادل بأن العادة أقوى من الإنسان، وضرب مثلاً بالتدخين. واختلفت الآراء. ولم يتدخل بافل في النقاش. إلا أن تاليا جرته إليه جراً، وحملته على أن يتكلم. قال ما كان يراه:

- الإنسان يتحكم بالعادة، لا بالعكس، وإلا فإلى أي نتيجة سنتوصل؟

صاح تسفيتايف من الزاوية:

ـ كلمات رنانة، يحب كورتشاغين أن يتحدث بها. وإذا كان هذا للتباهي فماذا سيحصل؟ هل يدخن هو نفسه؟ يدخن. هل يعرف أن التدخين عادة سيئة؟ يعرف، ولكنه في التخلي عنها ضعيف. قبل مدة وجيزة أخذ "يغرس الثقافة" في الحلقات ـ وهنا غير تسفيتايف لهجته وسأل بتهكم بارد ـ دعوه يجيبنا هل ترك الشتائم الفاحشة؟ الذي يعرف بافل يقول إنه يشتم نادراً، ولكن بلذع. إن قول المواعظ أسهل على الإنسان من أن يكون قديساً.

ساد صمت. تركت حدة اللهجة التي استخدمها تسفيتايف أثراً غير طيب في جميع الحاضرين. ولم يجب بافل رأساً. أخرج السيكارة من فمه ببطء. وسحقها وقال بصوت خافت:

ـ لن أدخن بعد الآن.

وبعد أن صمت لحظات أضاف:

ـ افعل ذلك لي ولتسفيتايف . إن الإنسان الذي لا يستطيع التخلي عن عادة سيئة لا يساوي شيئاً. وتبقى الشتائم كنقيصة لي. أنا، أيها الأخوان، لم أتخلص تماماً من هذه النقيصة، ولكن حتى تسفيتايف يعترف أنه نادراً ما يسمعني أشتم. زلة اللسان أسهل من تدخين سيكارة، ولهذا السبب لا أستطيع الآن أن أقطع عهداً بالتخلي عن ذلك أيضاً. ولكنني سأتخلص من الشتائم كذلك.

قبيل الشتاء سدَّت النهر طوافات الأخشاب، ثم فرقها فيضان الخريف، وجرف الوقود الضائع مع تيار النهر إلى الأسفل، وأرسلت سولومينكا جماعاتها مرة أخرى لإنقاذ الأخشاب الثمينة.

لم يرغب كورتشاغين في التخلف عن الآخرين، وحملته هذه الرغبة على أن يخفي عن رفاقه إصابته بزكام شديد، وبعد أسبوع، حين أصبحت كتل الحطب أكواماً على شواطئ المرفأ، أيقظ الماء المثلج، ورطوبة الخريف العدو الغافي في دم كورتشاغين، فألهبت الحمى جسمه، ظل الروماتيزم الحاد يحرق جسمه أسبوعين، وعندما عاد من المستشفى، لم يستطع العمل عن المِلْزم إلا وهو جالس على المصطبة. وكان كبير العمال حين يراه يهز رأسه فقط. وبعد بضعة أيام أقرت اللجنة الطبية النزيهة بأنه غير قادر على العمل، فحصل على تصفية أجور، وعلى حق في راتب تقاعدي رفضه بإباء.

وغادر ورش عمله مثقل القلب. وسار متوكئاً على عصا ببطء وألم شديد. وكانت أمه قد كتبت له مرات عدة. وطلبت إليه التوجه إلى البيت. والآن تذكر أمه العجوز، وكلماتها عند الوداع "لا أراكما إلا حين تصابان بالعجز".

سلم في لجنة الولاية ملفيه الشخصيين الكومسومولية والحزبية ملفوفين على شكل أسطوانة، وسافر إلى أمه من دون أن يودع أحداً حتى لا يورث شجناً. ظلت العجوز تبخر وتدلك رجليه المتورمتين. وبعد شهر أخذ يمشي من دون عصا. وأثلجت الفرحة صدره، فقد انجلى ليل المحنة عن فجر مرة أخرى. سافر بالقطار إلى مركز الولاية، وبعد ثلاثة أيام أعطي في قسم التنظيم كتاباً توجه بموجبه إلى المفوضية العسكرية للولاية للاستفادة منه كعامل سياسي في تنظيم تدريب عسكري.

وبعد أسبوع سافر إلى قصبة كساها الثلج كمفوض عسكري

للكتيبة الثانية. وعهدت إليه اللجنة الكومسومولية للمنطقة جمع أعضاء الكومسومول المتفرقين، وإنشاء منظمة كومسومولية للمنطقة الجديدة. وهكذا اتخذت الحياة منطلقاً جديداً.

الحر شديد في الخارج. ومن النافذة المفتوحة في مكتب رئيس اللجنة التنفيذية يلوح غصن شجرة كرز. والشمس توهج الصليب الذهبي على قبة الجرس القوطية في الجانب الآخر من الطريق مقابل مقر اللجنة التنفيذية. وفي الجنينة الصغيرة أمام النافذة كانت فراخ الوز الصغيرة الناعمة الريش الخضراء كالعشب المحيط بها والعائدة لحارسة مقر اللجنة التنفيذية تبحث عن طعام لها بهمة.

فرغ رئيس اللجنة التنفيذية من قراءة البريد الذي تلقاه الساعة. ورف ظل على وجهه، ودبت يده الكبيرة المعقدة في شعره الكث الجعد، وانغرزت هناك.

إن نيكولاي نيكولايفتش ليسيتسين رئيس اللجنة التنفيذية لبريزدوف لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، ولكن ما من أحد من المشتغلين معه والعاملين الحزبيين يعرف ذلك. إنه رجل ضخم ضليع جهم المحيا، ومخيف أحياناً، يبدو في الخامسة والثلاثين من العمر. جسم متين البنيان ورأس كبير مغروس على رقبة قوية، وعينان بنيتان ببرود نافذتان واستدارة حنكه حادة توحي بالحيوية. وهو يرتدي سروال ركوب أزرق، وقميصاً رمادياً "معمّرا". وعلى جيب صدره الأيسر وسام الراية الحمراء.

قبل أكتوبر كان ليسيتسين "يقود" مخرطة في مصنع الأسلحة في تولا، حيث كان جده، وأبوه، وهو نفسه منذ

سنوات الطفولة تقريباً، يقطعون ويخرطون الحديد.

ولكن منذ الليلة التي حمل فيها ليسيتسين السلاح في يديه لأول مرة، السلاح الذي كان حتى ذلك الحين يصنعه فقط، انخرط في دوامة الأحداث. ألقت به الثورة والحزب من معمعة إلى معمعة. وسار عامل السلاح التولي في طريقه المجيد من جندي بسيط إلى آمر عسكري، إلى قوميسار فوج.

وانقضى زمن المعارك، وصمت هدير المدافع. ونيكولاي ليسيتسين الآن هنا، في منطقة الحدود والحياة تجري بسلام. وهو ينكب على تقارير الحصاد إلى وقت متأخر من الليل، وهذه المراسلة تحيي للحظة من الزمن، الماضي القريب! إنها تحذر بلغة البرقيات المختزلة:

سري للغاية. إلى ليسيتسين رئيس اللجنة التنفيذية لبيريزدوف.

يُلاحظ في الحدود نشاط بولوني في تمرير عدد كبير من الشقاة بوسعهم إشاعة الإرهاب في مناطق الحدود. اتخذوا إجراءات الأمن. يقترح نقل ودائع القسم المالي إلى مركز المنطقة وعدم الاحتفاظ بأموال الضرائب.

كان ليسيتسين يرى من نافذة مكتبه كل من يدخل إلى مقر اللجنة التنفيذية. فرأى كورتشاغين عند المدخل. وبعد دقيقة طرق الباب.

ـ اجلس، لنتحدث قليلاً ـ ويصافح ليسيتسين بافل.

امتنع رئيس اللجنة التنفيذية عن استقبال أحد خلال ساعة كاملة.

وعندما خرج كورتشاغين من المكتب كان النهار قد

انتصف. خرجت نيورا أخت ليسيتسين الصغيرة من الحديقة راكضة. كانت هذه الفتاة الخجول الجادة بشكل لا يناسب عمرها تبتسم بترحيب حين تلتقي بكورتشاغين، والآن أيضاً سلمت مرتبكة كطفلة رافعة عن جبينها خصلة من شعرها المقصوص، وقالت:

ـ هل نيكولاي وحده؟ ماريا ميخائيلوفنا تنتظره على الغداء منذ وقت طويل.

ـ اذهبي إليه، يا نيورا، فهو وحده.

في اليوم التالي، قبل بزوغ الفجر بوقت طويل وصلت إلى مقر اللجنة التنفيذية ثلاث عربات تجرها خيول غُذيت جيداً. وكان الناس عليها يتحادثون بأصوات خافتة. وأخرجت من القسم المالي بضعة أكياس مختومة، وحُمّلت في العربات. وبعد بضع دقائق كانت هذه العربات تقرقع بعجلاتها في الشارع محروسة بفصيل تحت إمرة كورتشاغين. وقطعت بسلام الكيلومترات الأربعين من بريزدوف إلى مركز المنطقة (بينها خمسة وعشرون كيلومتراً عبر الغابة). ونقلت الودائع إلى أقباء القسم المالي للمنطقة.

بعد أيام عدّة جاء فارس يعدو من جانب الحدود إلى بريزدوف. ونظر متبطلو القصبة إلى الفارس والحصان المزبد نظرات الدهشة.

عند باب اللجنة التنفيذية انقذف الفارس على الأرض، وصعد درجات المدخل ممسكاً السيف بيده مطبطباً بحذائه الثقيل. تناول ليسيتسين رسالة مختومة مقطب الجبين، وفض

الختم، وكتب ملاحظة على الظرف وقفز حارس الحدود على حصانه من دون أن يمهله ليستريح، وانطلق يعدو إلى الجهة التي جاء منها.

لم يعرف أحد محتوى الرسالة غير رئيس اللجنة التنفيذية الذي فرغ من قراءتها من توه. إلا أن لأهل القصبة حاسة تشمم حادة كحاسة الكلاب. من بين أصحاب الحوانيت الثلاثة اثنان من المهربين الصغار حتماً. إن هذه الحرفة تولد فيهم خاصية غريزية لتحسس الخطر.

جاء رجلان مسرعين إلى مقر كتيبة التدريب العسكري العام. أحدهما كورتشاغين. إن أهل القصبة يعرفون هذا الرجل، وهو مسلح دائماً، ولكن الشيء المنذر بالسوء أن تروفيموف سكرتير اللجنة الحزبية يشد حمالة مسدس ناغان.

بعد بضع دقائق خرج من مقر الكتيبة خمسة عشر شخصاً، وانطلقوا حاملين البنادق والحراب مركبة فيها إلى الطاحونة الواقعة عند مفرق الطرق. وكان الشيوعيون الآخرون والكومسومولیون يسلحون في اللجنة الحزبية. ومر رئيس اللجنة التنفيذية يعدو على فرسه يرتدي قبعة قوزاقية، والموزر المألوف يتدلى على جنبه. الظاهر أن شيئاً محذوراً قد وقع. فإن الساحة الكبيرة والأزقة الجانبية قد أقفرت وكأن الحياة قد فارقتها. وبلمح البصر ظهرت أقفال كبيرة تعود إلى القرون الوسطى على أبواب الدكاكين الصغيرة، وصفقت مصاريع النوافذ الخشبية. ولم يبقَ في الخارج إلا الدجاجات غير الخائفة والخنازير المضنية من الحر تبحث جادة في أكوام القاذورات.

وكمن الحراس في الحدائق عند طرف البلدة. من هنا تبدأ الحقول المكشوفة، ويرى خط الطريق المستقيم.

لم يكن البلاغ الذي تلقاه ليسيتسين طويلاً.

اليوم ليلاً بعد معركة اقتحم زهاء مائة شخص من الشقاة راكبي الخيول ومعهم رشاشتان يدويتان، الحدود السوفييتية في منطقة بودوبتسي. اتخذوا الإجراءات. آثار العصابة تشير إلى أنها اتجهت إلى غابات سلافوتا. تنبهوا إلى أن مئة من القوزاق الحمر سيمرون اليوم خلال بريزدوف لملاحقة الشقاة فلا تخلطوا. آمر كتيبة الحدود الخاصة.

غافريلوف.

بعد ساعة لاح في الطريق إلى القصبة فارس، وعلى بعد كيلومتر خلفه كوكبة من الفرسان. أرسل كورتشاغين بصره إلى الأمام محدقاً. كان الفارس يسير بحذر، إلا أنه لم يلحظ الحراس المترصدين في الحدائق. كان جندياً شاباً من جنود الفوج السابع التابع للفرقة القوزاقية الحمراء. وكان مستجداً في مهمة الاستطلاع، وعندما أحدق به الناس في الطريق خارجين من الحدائق فجأة، ورأى على قمصانهم الحروف الأولى لمنظمة الكومسومول ابتسم مرتبكاً. وبعد محادثة قصيرة أدار الحصان، وعدا به نحو الفرسان المئة المنطلقين في عدو سريع. ترك الحراس القوزاق الحمر يمرون، وعادوا إلى كمائنهم في الحدائق.

مرّت أيام عدّة مقلقة، وتلقى ليسيتسين رسالة ذكر فيها أن الشقاة أخفقوا في القيام بأعمال التخريب، واضطروا إلى العودة

إلى وراء الحدود بعد أن طاردهم الفرسان الحمر.

عكف الرهط الصغير من البلاشفة - تسعة عشر رجلاً بالمجموع - على بناء الحياة السوفييتية بدأب في المنطقة كلها. وكانت هذه المنطقة الفتية الحديثة التشكيل تتطلب إنشاء كل شيء من جديد. وقد جعل القرب من الحدود جميع الناس في يقظة دائمة.

كان ليسيتسين وتروفيموف، وكورتشاغين والنشطاء القليلون المحيطون بهم يدورون من الفجر حتى أعماق الليل في دائرة التحضير لانتخاب السوفييتات، ومكافحة الشقاة والمهربين، والقيام بالعمل الثقافي، والعمل العسكري - الحزبي والكومسومولي.

النزول من صهوة الفرس إلى منضدة الكتابة، والخروج من المنضدة إلى الساحة التي تتدرب فيها مفرزات الشباب؛ ثم الذهاب إلى النادي، والمدرسة، وحضور اجتماعين أو ثلاثة وركوب الحصان ليلاً، والموزر على الجنب، والهتاف الحاد "قف، هناك"؟ وقرقعة عجلات عربة هاربة محملة ببضائع مهربة - تلك هي محاضر أيام المفوض الحربي للكتيبة الثانية، والكثير من لياليه.

وتتألف اللجنة الكومسومولية لمنطقة بريزدوف من كورتشاغين، وليدا بولفيخ رئيسة القسم النسائي الفتاة الضيقة العينين من الفولغا، ومن رازفاليخين - الطويل، المليح، الذي كان طالب مدرسة ثانوية قبل زمن قصير، و"الفتى المبكر النضوج" والمغرم بالمخاطرات، والعليم بشرلوك هولمز،

ولويس بوسينار. وكان رازفاليخين يعمل مديراً لمكتب لجنة الحزب المنطقية، وقد دخل الكومسومول قبل أربعة أشهر تقريباً، إلا أنه يتصرف بين الكومسومولين كـ "بلشفي قديم".

كانوا بحاجة إلى إرسال شخص إلى بريزدوف، ولم يكن هناك أحد، وبعد تفكير أرسلت لجنة الكومسومول المنطقية رازفاليخين إلى هناك "مرشداً سياسياً".

..... ارتفعت الشمس إلى سمتها ونفذت إلى أكثر الأماكن انزواءً ولاذ كل حي تحت سقف، وحتى الكلاب زحفت تحت السقائف، وقبعت هناك متهافتة من الحر مسترخية نعسة. بدا وكأن القرية أقفرت من كل كائن حي، خلا خنزيرا كان يقبع متنعماً متمرغاً في الوحل في بركة ماء عند البئر.

حل كورتشاغين مقود الحصان، وامتطى السرج وقد عض شفته من ألم في ركبته. كانت المعلمة واقفة على درجات المدرسة واقية عينيها من الشمس براحة يدها. ابتسمت له قائلة:

- إلى لقاء جديد، أيها الرفيق المفوض الحربي. ضرب الحصان الأرض بحافره تحفزاً وجذب العنان حانياً رقبته.

- إلى اللقاء، يا رفيقة راكيتينا. اتفقنا إذاً. غداً ستلقين الدرس الأول.

شعر الحصان بإرخاء العنان فانطلق يعدو في الحال. وفجأة ترامت إلى سمع كورتشاغين صيحات وحشية، بدت مثل صياح القرويات حين يندلع حريق. أدار كورتشاغين حصانه بجذبة حادة من العنان، ورأى فلاحة شابة تركض مقبلة من طرف القرية، لاهثة الأنفاس. طلعت راكيتينا إلى وسط الشارع وأوقفتها. وظهر

الناس على عتبات البيوت المجاورة معظمهم من العجائز والشيوخ. فإن الأقوياء جميعهم في الحقل.

ـ أوى، أيها الطيبون، ماذا يجري هناك! لا أقدر، لا أقدر!..

عندما عدا كورتشاغين بحصانه نحو المرأتين، كان الناس قد تقاطروا من كل جانب. أحدقوا بالمرأة، وجذبوها من كم قميصها الأبيض، وأمطروها بأسئلة تنم عن خوف، إلا أنه كان من المستحيل فهم شيء من كلماتها المفككة. "قتل! يذبحون حتى الموت!" كانت تصرخ بهذه الكلمات فقط. انبرى للمرأة شيخ ذو لحية منفوشة ماسكاً بيده سرواله القطني وهو ينط راكضاً:

ـ لا تصرخي، يا مجنونة، أين القتل؟ ولماذا يقتلون؟ كفي عن الزعيق، يا ملعونة!

ـ قريتنا تتقاتل مع بودوبتسي... من أجل الحدود! واهل بودوبتسي وقعوا في جماعتنا قتلاً!

وفهم الجميع المصيبة. ارتفع في الشارع عويل النساء، وصرخ الشيوخ بشراسة. وسرى النبأ في القرية، وآثار البيوت كصوت النفير "أهل بودوبتسي يقتلون أهلنا بالمحاصد من أجل الحدود!". ومن البيوت خرج إلى الشارع كل القادرين على السير، متسلحين بالمذاري، والفؤوس، أو بمجرد عصا سحبت من سياج وركضوا إلى الحقول وراء طرف القرية حيث كانت قريتان تحلان نزاعهما السنوي على حدود الأراضي في معركة دامية.

ضرب كورتشاغين حصانه الأسحم ضربة قوية دفعت الحصان إلى أن ينطلق بوثبات سريعة محفزاً بصياح راكبه، سابقاً الناس الراكضين. أطلق أذنيه على رأسه، ودفع رجليه عالياً، وأرقل بسرعة متزايدة. كانت طاحونة هوائية تبسط أذرعها على الجانبين وكأنها تسد الطريق. وإلى يمين الطاحونة عند ضفة النهر مرج فيِّ مطمئن من الأرض. وإلى اليسار، على امتداد البصر حقل جودار يرتفع أكمات أحياناً، وينخفض وهدات أحياناً أخرى. وكان النسيم يموج الجودار الناضج، وكأنما يمسده بيده. والخشخاش يشع حمرة على جانب الطريق. وكان الجو هادئاً، وقائظاً بشكل لا يطاق. ومن المدى البعيد فقط، في الأسفل، حيث كان النهر يلمع في الشمس كشريط فضي متعرج كانت الصيحات تترامى.

خبَّ الحصان خبباً رهيباً، وهو ينحدر إلى المروج. "إذا تعثَّر هلكت أنا وهو!" لمعت هذه الخاطرة في ذهن بافل. إلا أنه لم يكن من الممكن إيقاف الحصان الآن. انحنى بافل على عنق الحصان، وسمع صفير الريح في أذنيه.

عدا الحصان في المرجة كالمجنون، كان الناس يتقاتلون هنا بشراسة همجية حمقاء. وقد انطرح بعض الناس مخضبين بدمائهم.

ألقى الحصان بصدره رجلاً ملتحياً كان يمسك بقطعة من مقبض محصد، ويلاحق فتى ذا وجه مجروح مدمى. سدد فلاح ركين البنيان ملوَّح البشرة لخصمه المطروح على الأرض ضربات بحذائه الثقيل محاولاً أن يكتم أنفاسه.

هجم كورتشاغين على خليط الناس بثقل حصانه، وشتت المتعاركين في كل الجهات. دار بحصانه بضراوة هاجماً به على المستشرسين، آخذاً إياهم بالمباغتة وصرخ بجنون، شاعراً بأن تفريق هذه الكتلة الآدمية لا يمكن إلا بالوحشية والفزع نفسها:

- تفرقوا، أيها الأوغاد، سأطلق النار، يا شقاة!

أخرج المسدس الموزر من غلافه، وأطلق النار فوق وجه شرير مشوه، وهجم الحصان ثانية، وأطلق بافل رصاصة أخرى. رمى بعض الناس محاصدهم، وتقهقهروا. وهكذا بلغ بافل بغيته، بعد أن جال على حصانه في المرجة هائجاً، مطلقاً النار من مسدسه بلا انقطاع. تفرق الناس من المرجة إلى كل الجهات، متهربين من المسؤولية ومن هذا الرجل، الذي لا يعرفون من أين جاء، الرهيب بضراوته و"بآلته الجهنمية" التي تطلق النار بلا انقطاع.

وبعد فترة قصيرة انعقدت محكمة المنطقة في بودوبتسي. وحقق الحاكم طويلاً، مستجوباً الشهود، ومع ذلك لم يُعرف البادئون بالعراك. لم تسفر المعركة عن قتيل، وجرحاها بقوا أحياء. جاهد الحاكم بإصرار وصبر بلشفي أن يجعل الفلاحين الماثلين أمامه بسحناتهم المكفهرة يعون وحشية المعركة التي أثاروها ومخالفتها للقوانين المرعية.

- حدود الأراضي هي المذنبة، أيها الرفيق الحاكم: اختلطت حدودنا! وبسبب هذا نتقاتل كل عام.

ومع ذلك فإن مسؤولية كل ما حدث تقع على شخص بعينه.

بعد أسبوع جاءت لجنة إلى أرض الدريس، وأخذت تدق الأوتاد إلى الأماكن المتنازع عليها.

وقال مساح الأرض العجوز لكورتشاغين وهو يطوي شريط القياس متصبباً عرقاً، بادي الإعياء من الحرارة والسير الطويل:

ـ أنا أقيس الأرض منذ ثلاثين عاماً، وحدود الأرض دائماً وفي كل مكان سبب النزاع. انظر إلى خط تقسيم المرجة، إنه شيء لا يقبله العقل! حتى السكران يمشي في خط أكثر استقامة من هذا الخط. وفي الحقول أسوأ. عرض كل شريط ثلاث خطوات، وكل شريط يجور على الآخر. والفصل بينها يمكن أن يؤدي بك إلى الجنون. وكل هذا يتجزأ في كل عام. ينفصل الابن عن أبيه، ويشطر الشريط إلى نصفين. أؤكد لك أن الحقول بعد عشرين عاماً ستكون مشرَّطة تشريطاً، وما من أرض تكفي لزراعة شيء فيها. وخطوط الحدود حتى في الوقت الراهن تحمل عُشر الأرض.

ابتسم كورتشاغين :

ـ بعد عشرين عاماً لن يبقى عندنا حتى خط واحد، أيها الرفيق المساح.

نظر العجوز إلى محدثه نظرة لطيفة.

ـ هل تتحدث عن المجتمع الشيوعي؟ أوه، ذلك في المستقبل البعيد.

ـ هل تعرف كولخوز بودانوفكا؟

ـ إلى هذا تقصد؟

ـ نعم.

ـ لقد كنت، في بودانوفكا... ولكن ذلك شيء استثنائي، يا رفيق كورتشاغين.

قاست اللجنة. ودق شابان الأوتاد. وكان الفلاحون يقفون على جانبي حقل الدريس المقسوم يراقبون بحدة بصر للتأكد من أن الأوتاد تدق في الموضع السابق للحدود التي لا تكاد أعوادها نصف المتآكلة تبرز فوق العشب.

ضرب سائق العربة المهذار حصانه البائس بمقبض السوط واستدار نحو الجالسين في العربة، وتحدث قائلاً:

ـ من يعرف من أين نبع هؤلاء الكومسوموليون عندنا. لم يكن هذا من قبل. أعتقد أن معلمة المدرسة هي التي بدأت المسألة. ربما تعرفونها. اسمها راكيتينا. امرأة ما زالت صغيرة ويمكن أن يُقال ومؤذية. إنها تحرض نسوان القرية، وتقيم المجالس لهن، وتحشي رؤوسهن بالأفكار الغريبة، هذا بالذات سبب المتاعب. في الماضي إذا أغضبتك زوجتك ضربتها، فتولول قليلاً ثم تسكت، أما الآن فالويل لك إذا مسستها ـ ستملأ الدنيا بالنواح والصياح. وقد تهددك بمحكمة الشعب، أما إذا كانت أصغر سناً فستحدثك عن الطلاق، وتذكرك بجميع القوانين. هذه زوجتي غانكا، التي كانت أتصورها عاقلة طلعت مندوبة. يعني رئيسة على النساء. وهن يجئن إليها من القرية كلها. في البداية أردت أن ألعب السوط عليها، لكنني في ما بعد بصقت على كل القضية. إلى جهنم وبئس المصير! ليثرثرن. امرأتي مدبرة في البيت، وبشكل عام.

حك سائق العربة صدره المشعر، الظاهر من شق قميصه،

وساط بطن الحصان للاعتبار. وكان في العربة رازفاليخين وليدا. فقد كان لكل واحد منهما قضية في بودوبتسي. كانت ليدا تريد أن تعقد اجتماعاً للمندوبات، ورازفاليخين لتنظيم العمل في الخلية. سألت ليدا سائق العربة مازحة:

ـ أحقاً أن الكومسومولين لا يعجبونك؟

جذب هذا لحيته الصغيرة، وتوانى في الإجابة:

ـ بلى، لا بأس بهم... في عهد الشباب تجوز البحبحة. التمثيل وغيره. أنا شخصياً أحب التمثيل الفكاهي إذا كان جديراً. في البداية ظننا أن الأولاد سيلعبون على الحبال، ولكن العكس الذي حصل. سمعنا من الناس أنهم لا يتساهلون في سكر أو شقاوة أو غيرها. أكثر أوقاتهم في الدراسة.

سوى أنهم لا يتركون الله في سمائه، ويسعون إلى تحويل الكنيسة إلى نادٍ. وذلك لا يجوز، فإنه يغضب الشيوخ، فيبدون للكومسومولين النواجذ. وبقية الأشياء مقبولة. سوى أن هناك عيباً آخر. هو أنهم يقبلون في صفوفهم المساكين الإجراء أو الذين لهم حقول هزيلة، ويرفضون أبناء الأغنياء.

انحدرت العربة من رابية، وجاءت إلى المدرسة.

أنزلت الحارسة القادمين في منزلها، وذهبت هي لتنام في حجرة التدريس. كان رازفاليخين وليدا قد عادا تواً من اجتماع استغرق وقتاً طويلاً. كان المنزل مظلماً. خلعت ليدا حذاءها، وصعدت إلى السرير، وغفت في الحال، ثم استيقظت على لمسة يدي رازفاليخين الخشنة التي لا مجال للشك في نواياها.

ـ ماذا تريد؟

ـ على مهلك، لا تثيري ضجيجاً يا ليدا، يوحشني أن أرقد وحدي هناك. اللعنة! أحقاً لا تجدين شيئاً أمتع من النوم؟

ـ ارفع يديك، واترك سريري حالاً، إلى الشيطان! ـ ودفعته ليدا. لم تكن تتحمل ابتسامة رازفاليخين الفجة. وتملكتها الرغبة الآن في أن تقول له كلاماً مهيناً ساخراً، إلا أن النعاس كان يغالبها، فأغمضت عينيها.

ـ ولماذا هذا التمنع؟ أتتصورين ذلك سلوكاً مهذباً، أو لعلك من معهد الفتيات النبيلات؟ أتحسبينني صدقت بك؟ لست مغفلاً. إذا كنت واعية حقاً كان الأحرى بك أن تلبي رغبتي، وتنامي بعد ذلك قدر ما تشتهين.

واعتبر من العبث الإكثار من الكلمات، فانتقل ثانية من المصطبة إلى السرير، ووضع يده على كتف ليدا بإرادة ومطالبة.

ـ اذهب إلى الشيطان! ـ قالت ليدا وقد استيقظت حالاً ـ كلمة شرف إنني سأخبر كورتشاغين غداً.

أمسك رازفاليخين يدها، وهمس منزعجاً.

ـ بصقة على صاحبك كورتشاغين . خير لك أن لا تمانعي، فإنني سأنالك على أي حال.

جرى اشتباك قصير بينه وبين ليدا. ورنَّت صفعة حادة في صمت المنزل، أعقبتها ثانية وثالثة... وانقذف رازفاليخين جانباً. أسرعت ليدا تتلمس طريقها نحو الباب، ودفعته، وخرجت إلى الفناء راكضة. وقفت هناك مغمورة بضوء القمر، تنتزى غيظاً.

صاح رازفاليخين مغتاظاً:

ـ ارجعي إلى البيت، يا حمقاء!

حمل فراشه ووضعه تحت السقيفة، وبات في الفناء، أما ليدا فقد سدت باب الغرفة بالمزلاج، ونامت طاوية جذعها على السرير.

في الصباح عندما صعدا إلى العربة عائدين إلى البلدة ركب رازفاليخين إلى جانب السائق العجوز، وراح يدخن سيكارة عقب سيكارة.

"هذه المتزمتة قد تفشي الأمر إلى كورتشاغين حقاً. رعناء! لو كانت جميلة على الأقل. يجب أن أتصالح معها، تجنباً للفضيحة، كورتشاغين من غير ذلك متحامل عليَّ".

انتقل رازفاليخين وجلس إلى جانب ليدا. وتحدث بارتباك، وعيناه تلوحان كسيرتين، ودمدم بمعاذير متفككة.

وأصاب رازفاليخين بغيته: وعدته ليدا حين وصلا إلى طرف البلدة إنها لن تخبر أحداً بحادثة الأمس.

نشأت الخلايا الكومسومولية واحدة بعد أخرى في قرى الحدود. بذل كومسومولیو المنطقة الكثير من الجهود لهذه البراعم الأولى للحركة الشيوعية.

كان كورتشاغين وليدا بوليفيخ يقضيان أياماً بكاملها في تلك القرى.

ولم يحب رازفاليخين الذهاب إلى القرى. لم تكن له القدرة على التقرب إلى الفلاحين الشبان وكسب ثقتهم، بل كان يفسد الأمر فقط. بينما كان هذا الأمر يجري ببساطة وبلا تكلف مع بوليفيخ وكورتشاغين. جمعت ليدا الفتيات حولها، ووجدت لها صديقات من بينهن وواظبت على الاتصال بهن وأثارت فيهن

الاهتمام بالحياة وبعمل الكومسومول من دون ضجيج. وعرفت شبيبة المنطقة كورتشاغين.

حبَّب إلى ألف وستمئة من الشبان دون سن الجندية التدريب العسكري في الكتيبة الثانية للتدريب العسكري العام. ولم يلعب الأوكرديون دوراً كبيراً في الدعاية كالدور الذي لعبه هنا، في الحفلات الريفية، في الشارع. وجعل الاوكرديون كورتشاغين "فتى من الجماعة"، وفي أحيان كثيرة بدأ الشبان المتهدلو الشعر طريقهم إلى الكومسومول من تلك الحفلات، من الأوكرديون الصدَّاح الساحر الحماسي الفوَّار المندفع تارة في إيقاع سريع لمارش عسكري، والعاطفي الرقيق في ألحان الأغاني الأوكرانية تارة أخرى. كانوا يستمعون إلى الأوكرديون، وإلى عازف الأوكرديون العامل سابقاً، والمفوض العسكري الآن وسكرتير الكومسومول.

فكانت أوتار قلوبهم تهتز مع الأغاني حيناً، ومع ما يقول المفوض الشاب حيناً آخر، وصارت الأغاني الجديدة تتردد في القرى وتظهر في البيوت كتب أخرى غير كتب الصلوات والأناجيل.

وضيَّق الحبل على المهربين، فاضطروا إلى التزام الحذر ليس من حرس الحدود فقط: فقد ظهر للسلطة السوفييتية أصدقاء شبان، أعوان متحمسون. في بعض الأحيان كان الذين استولت عليهم روح الحماس يقبضون بأنفسهم على العدو، وكانت الخلايا الكومسومولية على الحدود تتصرف أكثر مما لها، وعند ذاك يضطر كورتشاغين إلى نجدة الذين تحت إمرته. ذات

مرة كان غريشوتكا خوروفودكو سكرتير خلية بودوبتسي الأزرق العينين، الحاد الطبع، الشغوف، بالجدل، قد حصل من مصادر خاصة على نبأ مفاده أن بضائع مهربة ستُنقل ليلاً إلى طاحونة القرية، فأثار أعضاء خليته كلهم. وبعد أن تسلحوا ببندقية التدريب، وحربتين، خرجوا برئاسة غريشوتكا وحاصروا الطاحونة ليلاً بحذر، يترصدون الصيد. أُبلغت نقطة الحراسة بقضية التهريب، فأرسلت دوريتها. وفي الليل اصطدم الطرفان، ولولا يقظة حراس الحدود لقتل الكومسوموليون في هذا الصدام. واكتفى الحراس بتجريد الكومسومولين من السلاح، وسوقهم إلى قرية تبعد أربعة كيلومترات، وحجزهم هناك.

كان كورتشاغين في ذلك الوقت عند غافريلوف وقد أبلغه آمر الكتيبة صباحاً بالنبأ الذي تلقاه من توه. امتطى بافل حصانه وعدا لينقذ الكومسومولين.

ضحك مفوض الحدود وهو يقص على بافل الحادثة الليلية.

ـ دعني أخبرك بما سنفعله. يا رفيق كورتشاغين . الفتيان جيدون. فلا نثر قضية عليهم. ومن الأفضل أن تحدثهم حديثاً ساخناً حتى لا يتدخلوا ثانية في شؤوننا.

فتح الحارس باب السقيفة، فنهض أحد عشر شاباً من الأرض، ووقفوا مرتبكين يرفعون قدماً، وينزلون أخرى.

قال مفوض الحدود باسطاً ذراعيه في أسى:

ـ انظر إليهم. أفسدوا الأمور، وأنا مضطر إلى إرسالهم إلى الوحدة العسكرية.

ـ عندئذٍ نحدث غريشوتكا مضطرباً:

ـ يا رفيق ساخاروف، ماذا فعلنا؟ أردنا أن نجاهد في سبيل السلطة السوفييتية. وقد راقبنا هؤلاء الكولاك مدة طويلة، بينما أنتم قد حبستمونا وكأننا قطاع طرق ـ واستدار غريشوتكا شاعراً بإهانة.

بعد محادثات جدية حافظ كورتشاغين وساخاروف بصعوبة على لهجتهما الحازمة كفًا عن "الحديث الساخن".

قال ساخاروف لكورتشاغين :

ـ إذا تتكفلهم، وتعدنا بأن لا يذهبوا إلى الحدود ثانية، فإنني أفرج عنهم بسلام. بوسعكم أن تساعدونا في مجال آخر.

ـ حسناً أتكفلهم. وآمل أن لا يحرجوني مرة أخرى.

عادت الخلية إلى بودوبتسي منشدة الأغاني. وظل الحادث مكتوماً. إلا أنه لم تمضِ مدة طويلة حتى اعتقل صاحب الطاحونة، وبصورة قانونية هذه المرة.

يعيش المستوطنون الألمان في الضياع المبثوثة في غابة ميدان ـ فيلي عيشة رغد. كانت كل ضيعة من هذه الضياع الكولاكية القوية تبعد عن الأخرى نصف كيلومتر، وتتألف من دار ومبانٍ ملحقة بها كالقلاع الصغيرة. وكانت عصابة انتونيوك تواري ذيولها فيها. وكان هذا الرقيب السابق في الجيش القيصري قد كوّن من سبعة من أقربائه شرذمة قطاع طرق، وأخذ يتكسب بالمسدسات على الطرق الريفية، غير متورع من سفك دم، ولا يأنف من سلب المضاربين، بل ولم يكن يترك العاملين السوفييت أيضاً. وكان انتونيوك سريع الحركة.

اليوم ينهب مستخدمين تعاونيين ريفيين، وفي اليوم التالي يجرد مستخدم بريد من سلاحه على بعد عشرين كيلومتراً من حادثة الأمس، ويسلب منه كل ما لديه من فلوس. وكان انتونيوك يتنافس مع زميله غوردي. واحدهما لا يفضل الآخر في شيء.

كلاهما كان يستنفد من ميلشيا المنطقة وحرس الحدود وقتاً غير قليل. وكان انتونيوك يمارس سطواته على مقربة دانية من بريزدوف، حتى صارت الطرق المؤدية إلى القصبة محفوفة بالخطر. وكان من الصعب القبض على الشقي فقد كان، حين تضيق عليه المسالك، يخترق الحدود ويكمن هناك ليعود ثانية حتى يكون آخر مَنْ يتوقع الناس مجيئه.

وكان ليسيتسين يعض شفته بعصبية كلما سمع بنبأ حادثة دامية ارتكبها هذا الوحش الخطير المراوغ.

قال وهو يكز على أسنانه:

- حتَّامَ يظل هذا الصل يلدغنا؟ لينتظر هذا الوغد، سأصفي الحساب معه بنفسي.

لقد تعقب ليسيتسين آثار الشقي مرتين مصطحباً معه كورتشاغين وثلاثة شيوعيين آخرين، إلا أن انتونيوك أفلت.

أرسلوا من الوحدة العسكرية إلى بريزدوف فصيلاً لمكافحة الشقاة. وكان الفصيل تحت إمرة فيلاتوف المتبختر المتعجرف كالديك الصغير الذي سار بفصيله إلى أقرب قرية وهي سيماكي من دون أن يرى من الضروري إبلاغ رئيس اللجنة التنفيذية بذلك، كما تقتضي قوانين الخدمة على الحدود. وعندما وصل

إلى القرية ليلاً أقام مع فصيله في أول بيت في طرفها. لفت مجيء مسلحين غرباء يعملون بالخفاء انتباه كومسومولي كان يعيش في البيت المجاور، فذهب راكضاً إلى رئيس سوفييت القرية الذي كان لا يعرف شيئاً عن مجيء الفصيل فاعتبرهم من الشقاة. وأرسل الكومسومولي برسالة عاجلة إلى مركز المنطقة. وكاد تهور فيلاتوف أن يودي بحياة الكثيرين. عرف ليستسين بوصول "الشقاة" ليلاً، وفي الحال هيأ رجال الميلشيا، وأسرع إلى سيماكي مع عشرة رجال نزلوا من خيولهم عند البيت، وقفزوا السياج، واندفعوا داخل البيت. وجهت ضربة من مقبض مسدس إلى رأس الحارس الواقف على العتبة فانهار على الأرض، وفتح الباب خبطاً بضربة قوية من كتف ليسيتسين، واندفع الرجال إلى غرفة مضاءة بضوء شاحب من مصباح يتدلى من السقف. دفع ليسيتسين يده إلى الوراء متهيئاً لإلقاء قنبلة يدوية، ممسكاً مسدسه الموزر باليد الأخرى، وزأر زئيراً اهتز له الزجاج:

- استسلموا، وإلا مزقتكم مزقاً.

ثانية أخرى، وسيطلق المقتحمون وابلاً من الرصاص على الرجال الذين قفزوا من على الأرض والنعاس لا يزال عالقاً في أجفانهم. إلا أن المظهر الرهيب لرجل بيده قنبلة جعل الرجال يرفعون أيديهم. وبعد دقيقة، عندما أخرج رجال الفصيل إلى الفناء في ثيابهم الداخلية، أطلق الوسام على صدر ليسيتسين لسان فيلاتوف.

بصق ليسيتسين حنقاً، وزعق بضراوة قاتلة:

ـ أبله!

بلغت المنطقة أصداء الثورة الألمانية. وتناهت إليها دندنة الطلقات في متاريس هامبورغ. وشاع جو من التوتر في منطقة الحدود. وكانت الجرائد تطالع بترقب لهوف، فقد كانت تهب من الغرب رياح أكتوبر. وانهالت على لجنة الكومسومول المنطقية عرائض يطالب أصحابها بالتطوع في الجيش الأحمر وأمضى كورتشاغين وقتاً طويلاً في إقناع الوافدين من الخلايا الكومسومولية بأن سياسة البلاد السوفييتية هي سياسة السلام، وأنها الآن لا تنوي أن تحارب إحدى جاراتها. ولكن كلامه لم يؤثر كثيراً. فقد كان كومسوموليو جميع الخلايا يجتمعون كل يوم أحد في القصبة، وتقام الاجتماعات المنطقية في حديقة بيت الكاهن الكبيرة. وفي ظهيرة أحد الأيام دخلت خلية بودوبتسي الكومسومولية إلى فناء للجنة المنطقية الواسع وهي تسير في مشية عسكرية، وفي نظام كامل. لحظها كورتشاغين من النافذة، فخرج إلى مدخل البيت. توقف أحد عشر شاباً برئاسة خوروفودكو عند المدخل لابسين الأحذية الطويلة، حاملين الحقائب الظهرية الكبيرة وراء أكتافهم.

سأل كورتشاغين مندهشاً:

ـ ما الخبر، يا غريشا؟

إلا أن خوروفودكو أومأ له إيماءة بعينيه، ودخل مع كورتشاغين الدار. وعندما أحاطت ليدا ورازفاليخين وكومسومولیان آخران بخوروفودكو أغلق هذا الباب، وأعلن بلهجة جادة عاقداً حاجبيه الباهتي اللون:

ـ أنا اندي قمت بهذه التعبئة العسكرية أيها الرفاق. أعلنت اليوم لرفاقي بأن برقية وردت من المنطقة في سرّية تامة بالطبع تقول إن الحرب بادئة مع البورجوازيين الألمان، وعن قريب ستبدأ مع البرجوازيين البولونيين أيضاً. فقد جاء أمر من موسكو يقضي بخروج جميع الكومسوموليين إلى الجبهة، والذي يخاف يكتب طلباً، فيترك في بيته.

وقد أمرتهم بأن لا يتحدثوا بكلمة عن الحرب، وأن يأخذوا معهم خبزاً، وقطعة من الشحم، والذين لا يملكون شحماً يكفي أن يجلبوا ثوماً أو بصلاً. وطلبت إليهم أن نجتمع سرّياً خارج القرية، ومن هناك نذهب إلى مركز المنطقة، ومنها إلى مركز المنطقة العسكرية، وهناك سنحصل على السلاح. وقد أثر كلامي في الأولاد تأثيراً لا يُستهان به. وأخذوا يسألون سؤالاً من هنا وسؤالاً من هناك. ولكنني قلت لهم: بلا كلام. والأمر قاطع! ومن يرفض يكتب طلباً. فإن الحملة تطوعية. وتفرق الأولاد، وخفق قلبي: ماذا سأفعل إذا لم يأتِ أحد؟ آنذاك ساحل الخلية، وأرحل إلى مكان آخر، وأخذت أنتظر خارج القرية، وإذا بهم يأتون واحداً بعد الآخر. بعضهم كان أثر البكاء بادياً على وجهه، ولكنه متمالك نفسه. جاء العشرة جميعاً، ولم يتخلف أحد منهم. هذه هي خلية بودوبتسي! ـ أنهى غريشوتكا كلامه بإعجاب، ضارباً صدره بجمع يده معتزاً.

وعندما بدأت ليدا المتأثرة تعنفه، نظر إليه بعينين ذاهلتين.

ـ أي كلام هذا؟ هذا أحسن امتحان للعزائم! بوسعك أن تنظري إلى كل واحد منهم، وأنت على ثقة. أردت أن أسير بهم

إلى مركز المقاطعة متعة للناظرين، ولكن الأولاد تعبوا. دعوهم يذهبون إلى بيوتهم. على شرط أن تلقي فيهم خطاباً يا كورتشاغين ، بالتأكيد، وإلا كيف؟ لا يجوز أن ينصرفوا بلا خطاب... قل لهم، مثلاً ، إن التعبئة قد ألغيت، وأنهم أبطال ميامين أماجد...

كان كورتشاغين قلَّ ما يسافر إلى مركز المقاطعة. فإن تلك السفرات كانت تستغرق أياماً عدّة، بينما كان العمل يتطلب البقاء الدائم في المنطقة. فكان رازفاليخين يسافر إلى المدينة كلما عرضت مناسبة. وكان يجد لذة في القيام بهذه السفرات مدججاً بالسلاح، متخيلاً نفسه أحد أبطال كوبر. وكان يطلق الرصاص في الغابة على كل غراب سانح أو سنجاب خاطف ويوقف كل عابر سبيل يسير لوحده ليسأله كمحقق كامل الصلاحية من هو ومن أين آت وإلى أين ذاهب. وعندما يقترب من المدينة يخلع أسلحته، ويدس البندقية تحت الدريس، ويضع المسدس في جيبه، ويدخل إلى لجنة كومسومول المقاطعة بهيئته الاعتيادية.

ـ ما الجديد عندكم في بريزدوف ؟

غرفة فيدوتوف سكرتير كومسومول المقاطعة مملوءة بالناس دائماً. والجميع يتحدثون في وقت واحد. والمرء يحتاج إلى مقدرة خاصة ليعمل في هذا الجو، ويصغي إلى أربعة أشخاص في آن واحد، ويكتب، ويرد على خامس. وفيدوتوف لا يزال في ميعة الشباب، ولكنه عضو في الحزب منذ عام ١٩١٩. في ذلك العهد الثائر فقط استطاع الفتى ابن الخامسة عشرة أن يصبح عضواً في الحزب.

رد رازفاليخين على سؤال فيدوتوف بفتور:

ـ لا يمكن سرد الأخبار كلها لكثرتها، أنا أدور من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل. يجب أن تصلح بيدك كل النواقص، أرض جرداء وعليك أن تقيم كل شيء من الأساس. نظمت خليتين جديدتين. لماذا أرسلتم في طلبي؟ ـ وقعد على الأريكة في هيئة منشغل.

انتزع كريمسكي رئيس القسم الاقتصادي بصره من كومة الأوراق على مكتبة للحظة والتفت.

ـ نحن لم نرسل في طلبك، بل طلبنا كورتشاغين.

أطلق رازفاليخين من فمه نفثة دخان كثيفة.

ـ لا يحب كورتشاغين المجيء إلى هنا، فأضطر أنا حتى أن أقوم بهذا أيضاً... وبشكل عام هناك بعض السكرتيرين لا يفعلون شيئاً، ويحملون الأعباء على حمير من أمثالي. عندما يذهب كورتشاغين إلى الحدود يغيب أسبوعين أو ثلاثة، وأنا أقوم بالعمل كله.

قصد رازفاليخين بإشارته الواضحة هذه إلى أنه هو بالذات يصلح لأن يكون سكرتير كومسومول المنطقة.

ـ شيء ما لا يعجبني من هذا الزرزور.

وقد اكتشفت أباطيل رازفاليخين هذه مصادفة.

ذات مرة ذهب ليسيتسين إلى فيدوتوف لتسلم البريد. وكان كل من يسافر من مركز المنطقة يجمع الرسائل للجميع. وقد أجرى فيدوتوف حديثاً طويلاً مع ليسيتسين، وفضح رازفاليخين.

قال فيدوتوف عند وداع رئيس اللجنة التنفيذية:

ـ ابعث لنا كورتشاغين على أي حال. فنحن هنا لا نكاد نعرفه.

ـ حسناً، على شرط أن لا تفكر في أخذه منا. سنرفض ذلك رفضاً باتاً.

في ذلك العام جرت احتفالات اكتوبر على الحدود بحماس غير اعتيادي. انتخب كورتشاغين رئيس لجنة احتفالات اكتوبر في قرى الحدود. بعد الاجتماع الذي عقد في بودوبتسي خرج جمهور مؤلف من خمسة آلاف فلاح وفلاحة من ثلاث قرى مجاورة متجهاً نحو الحدود في طابور طوله نصف كيلومتر تتقدمه جوقة من الآلات النحاسية، وكتيبة التدريب العسكري العام ترفرف عليه الرايات الحمر. بدأ الموكب مسيرته في الأرض السوفييتية ملتزماً أدق تنظيم وضبط، وسار بمحاذاة أعمدة الحدود، ميمماً صوب القرى المشطورة بخط الحدود إلى نصفين. ولم يكن البولونيون القاطنون على الحدود قد رأوا مثل هذا المشهد. في مقدمة الموكب سار آمر الكتيبة غافريلوف وكورتشاغين على فرسين، ووراءهما هدير الآلات النحاسية، ورفيف الرايات، وصداح الأناشيد! شبان الريف في ثياب العيد القشيبة، والحبور، والفتيات القرويات، ورنين ضحكاتهن الفضي، ووجوه الرجال الرصينة، وطلعات الشيوخ الرزينة. وهذا النهر البشري يتدفق بعيداً على امتداد البصر. مجراه في الأرض السوفييتية وشاطئه خط الحدود لا يتعداه خطوة واحدة، ولا تطأ قدم واحدة الأرض المحظورة. ترك كورتشاغين السيل البشري يمر، ووقف يسمع الأناشيد الكومسومولية:

الجيش الأحمر أقوى الجيوش! ـ
من التايغا حتى البحور البريطانية
ورددت الفتيات في صوت جماعي:
وهناك، في الجبال، نساء يحصدن..

حيا الحراس السوفييتيون الموكب بابتسامة حبور، واستقبله الحراس البولونيون بقلق وذهول. وبالرغم من أن القيادة البولونية قد أبلغت بالموكب مسبقاً، إلا أنه قد أثار الهلع في الجانب الآخر. أخذت دوريات الدرك تروح وتجيء على خيولها مسرعة، وتزيد عدد الحراس خمس مرات، وكمنت احتياطات منهم في التلال القريبة زيادة في الحيطة. إلا أن الموكب سار في أرضه، ضاجاً فرحاً، مالئاً الجو بالأغاني.

على الأكمة حارس بولوني. والموكب يتقدم بخطا موزونة. وتصدح الأنغام الأولى من مارش عسكري. وينزل البولوني البندقية من على كتفه، ويركز أخمصها عند قدميه، ويؤدي التحية بها.

وفي تلك اللحظة يسمع كورتشاغين بوضوح:

ـ تعيش الكومونة!

عينا الجندي ناطقتان بأنه هو الذي قال ذلك.

ويثبت بافل بصره في الجندي.

إنه صديق! تحت معطف الجندي يخفق قلب متجاوب مع الموكب. ويرد كورتشاغين بالبولونية وبصوت خافض:

ـ تحية، يا رفيق!

بقي الحارس إلى الخلف. الموكب يمر به والبندقية ما زالت

في وضعها السابق. التفت بافل إلى الخلف مرات عدّة ونظر إلى شبح الجندي الأسود الصغير. هذا بولوني آخر. ذو شاربين أشيبين، عيناه جامدتان حائلتا اللون تطلان من تحت الحافة اللامعة لظليلة قبعته. ابتدره بافل قائلاً باللغة البولونية وهو لا يزال تحت تأثير ما سمع قبل حين.

ـ تحية، يا رفيق!

ولم يتلقَّ جواباً.

ابتسم غافريلوف. ظهر أنه سمع كل شيء. قال:

ـ طمحت بشيء كثير، يوجد هنا رجال من الدرك إلى جانب الجنود المشاة البسطاء. ألم ترَ الأشرطة على ذراعه: إنه دركي.

شرع رأس الموكب يهبط الرابية إلى القرية التي شطرها خط الحدود إلى نصفين. أعد النصف السوفييتي للضيوف استقبالاً حافلاً. اجتمع أهل القرية كلها عند قنطرة الحدود على ضفة نُهير. اصطف الفتيان والفتيات على جانبي الطريق. وصعد الناس على سطوح البيوت والسقائف في النصف البولوني، وراحوا يتطلعون إلى ما يجري في الضفة الأخرى من النُهير. واحتشدت جموع الفلاحين على عتبات البيوت، وعلى الأسيجة. وعندما دخل الموكب بين صفي الناس عزفت الموسيقى "النشيد الأممي".

وألقى شبان في ريعان الشباب، وشيوخ ابيضت شعورهم خطباً حماسية من على منبر صنعه القرويون أنفسهم، وزينوه بالخضرة. كما خطب كورتشاغين بلغته الأوكرانية. وعبرت كلماته

الحدود، وسُمِعت في الضفة الأخرى. ولم يرد القائمون في الأمر هناك أن يتركوا هذا الخطاب يؤجج اللهب في القلوب.. فأخذت دورية من الدرك تنطلق في القرية، وتُدخل الناس إلى بيوتهم بالسياط، وأطلقت طلقات على السطوح.

خلت الشوارع، واختفى الشبان من على السطوح وقد روعتهم الطلقات. ونظر الناس من الضفة السوفييتية إلى كل هذا، وعبسوا. وصعد راعٍ عجوز إلى المنبر بمساعدة الفتيان، وتكلم بتأثر مأخوذاً بموجةٍ من الغيظ:

ـ طيب! انظروا يا أولادي! على هذا النحو كانوا يضربوننا آنذاك، والآن لا وجود لمثل هذا في القرية، لم تضرب السلطات أحداً. قضينا على البانات، وانتهى الضرب بالسوط على ظهورنا. ساندوا هذه السلطة، يا أولادي، بقوة. أنا عجوز، ولا أعرف التكلم، وعندي شوق إلى الحديث عن أشياء كثيرة. عن قضائنا العمر كله نكدح للقيصر كالثيران. وأنا متألم على هؤلاء!... ـ وأشار بذراعه النحيلة إلى ما وراء النُهير، وبكى بكاء لا يبكيه إلا الأطفال الصغار والشيوخ.

وبعد العجوز تكلم غريشوتكا خوروفودكو. واستدار غافريلوف بحصانه، وهو يسمع خطاب غريشوتكا الحانق، ونظر إلى الضفة الأخرى ليعرف هل أن أحداً هناك يسجل شيئاً. كانت الضفة الأخرى مقفرة، بل وإن الحارس من القنطرة نقل أيضاً. مزح غافريلوف.

ـ يبدو أن الأمر سينتهي من دون تقديم مذكرة إلى مفوضية الشؤون الخارجية.

... في ليلة خريفية ممطرة، في أواخر تشرين الثاني وضع حد لسفك الدماء الذي كان يمارسه الشقي انتونيوك ورجاله السبعة. ألقي القبض على الذئب في حفلة زفاف أقيمت في بيت مستوطن غني في ميدان ـ فيلي. حاصره هناك فلاحون من كومونة خرولينو.

نقلت ألسنة النساء الأخبار عن ضيوف زفاف المستوطن. وفي الحال اجتمع اثنا عشر كومسومولياً تسلح كل واحد منهم بما وقعت عليه يده. وركبوا العربات إلى ضيعة ميدان ـ فيلي، بينما انطلق رسول إلى بريزدوف بسرعة مستميتة. واتفق أن التقى في سيماكي بفصيل فيلاتوف، فخرج فيلاتوف مع فصيله، من ساعته، في طراد سريع. أحاط رجال كومونة خرولينو بالضيعة، وأخذوا يتبادلون إطلاق النار مع شرذمة انتونيوك. تحصن انتونيوك ورجاله في جناح صغير من بيت الضيعة، وأخذوا يطلقون الرصاص على كل من وقع على مرمى نيرانهم. ثم تقحموا ليشقوا الحصار إلا أن رجال الكومونة ردوهم إلى الجناح، وأصابوا أحد السبعة برصاصة. وكان انتونيوك قد وقع أكثر من مرة في مثل هذه المآزق، إلا أنه كان يوفق دائماً في الإفلات تسعفه في ذلك القنابل اليدوية، وظلمة الليل. وكان من الممكن أن يفلت في هذه المرة أيضاً، فإن رجال الكومونة قد فقدوا اثنين من رجالهم في المناوشة، إلا أن فيلاتوف وصل إلى الضيعة في اللحظة المناسبة. وأدرك انتونيوك أنه وقع في طوق قوي، ولا مفر له في هذه المرة. ظل الرصاص ينهمر من جميع نوافذ الجناح حتى الصباح، إلا أن انتونيوك وقع في الأسر عند الفجر. ولم يستسلم أحد من رجاله السبعة. وكلّف القضاء على

شرذمة الذئاب أربع أنفس. ومن بين هؤلاء الصرعى ثلاثة أعضاء في خلية خرولينو الكومسومولية الفتية.

دعيت كتيبة كورتشاغين للاشتراك في مناورات الخريف لوحدات المقاطعة. قطعت الكتيبة الكيلومترات الأربعين إلى معسكر فرقة المقاطعة في يوم واحد تحت مطر هتون. وقد بدأت مسيرتها في الصباح الباكر، وأنهتها في ساعة متأخرة من المساء. بينما قطع آمر الكتيبة غوسيف، ومفوضه كورتشاغين هذه المسيرة على صهوتي فرسيهما. ما كاد الثمانمائة من الشبان المتدربين الذين لم يبلغوا بعد سن الخدمة العسكرية يصلون إلى الثكنة حتى تهاووا إعياء، وناموا. وكانت هيئة أركان فرقة المقاطعة قد تأخرت في دعوة الكتيبة؛ وقد بدأت المناورات اصطفت الكتيبة الجديدة في ساحة العرض للمعاينة. وبعد قليل جاء بضعة فرسان من هيئة أركان الفرقة. وكانت الكتيبة في مظهر جديد بعد أن حصلت على عُددَ وبنادق. لقد بذل غوسيف الآمر العسكري وكورتشاغين الكثير من الجهد والوقت لكتيبتهما، فكانا مطمئنين على الوحدة التي أنيطت بهما. وعندما انتهت المعاينة الرسمية، وأظهرت الكتيبة قدرتها على المناورة وإعادة التنظيم، سأل أحد الأمراء كورتشاغين بحدة، وكان ذا وجه جميل ولكنه مترهل:

ـ لماذا تركب حصاناً؟ لا يجوز لأمراء كتائب التدريب العسكري العام ومفوضيها أن تكون لهم خيول. آمرك بإعادة الحصان إلى الإسطبل، والمناورات ستجري سيراً على الأقدام.

كان كورتشاغين يعرف أنه إذا ترجل لن يستطيع الاشتراك

في المناورات، فإنه غير قادر على أن يقطع كيلومتراً واحداً على قدميه. ولكن كيف يستطيع أن يوضح المسألة لهذا الآمر المنمّق المحب للصياح المحزم بعشرة من صفوف الرصاص والأحزمة؟

- لا أستطيع الاشتراك في المناورات بدون فرس.

- لماذا؟

أدرك كورتشاغين بأنه لا مناص من توضيح سبب الرفض، فقال بصوت خافت:

- ساقاي متورمتان، ولا أستطيع الركض أو السير أسبوعاً. وبهذه المناسبة لا أعرف من أنت، أيها الرفيق؟

- أولاً أنا رئيس أركان لوائك. ثانياً، أكرر عليك الأمر مرة ثانية بالنزول من الحصان، أما إذا كنت عاجزاً، فليس ذنبي أنك في الخدمة العسكرية.

شعر كورتشاغين وكأنما ضرب بسوط. جذب عنان حصانه، إلا أن يد غوسيف القوية أوقفته. تصارع في نفس بافل شعوران لدقائق عدّة: الإهانة وضبط النفس. ولكن بافل كورتشاغين لم يكن الجندي الأحمر الذي كان بوسعه أن ينتقل من وحدة إلى أخرى من دون تفكير. إن كورتشاغين الآن مفوض الكتيبة، وهذه الكتيبة واقفة وراءه. فأي مثل للضبط سيضربه إذا امتنع عن إطاعة الأمر؟ إنه لم يربِّ كتيبته لهذا المغرور. أخرج قدميه من الركاب، ونزل من الحصان، واتجه نحو الجناح الأيسر مغالباً ألماً حاداً.

... حلت أيام عدّة بديعة الطقس بشكل نادر. واقتربت المناورات من نهايتها، وفي يومها الخامس جرت حول

شيبيتوفكا، آخر مرحلة لها. أعطيت لكتيبة بريزدوف مهمة الاستيلاء على المحطة من جهة قرية كليمنتوفتشي.

كان كورتشاغين يعرف المنطقة معرفة جيدة، فدل غوسيف على جميع المشارف. التفت الكتيبة التي قسمت إلى نصفين التفافاً واسعاً من دون أن يلحظها "العدو" ونفذت إلى مؤخرته، وهجمت على المحطة وجنودها يصيحون صيحة الحرب، واعترف المحكِّمون بأن هذه العملية، قد نفذت تنفيذاً رائعاً. فقد بقيت المحطة في أيدي كتيبة بريزدوف بينما فقدت الكتيبة التي كانت تدافع عن المحطة خمسين بالمئة من رجالها افتراضاً، وتراجعت إلى الغابة.

كان كورتشاغين يقود نصف الكتيبة، أمر رجاله بالتوزع إلى صفوف، ووقف في وسط الشارع مع آمر السرية الثالثة ومرشدها السياسي، حين ركض نحوهم جندي أحمر وقال لكورتشاغين وهو يلهث:

ـ أيها الرفيق المفوض إن آمر الكتيبة يسأل هل احتل حَمَلة الرشاشات معبر السكك؟ اللجنة في طريقها إليكم.

سار بافل مع الآمرين إلى معبر السكك.

كانت آمرية اللواء مجتمعة عند المعبر. هنأوا غوسيف بنجاح العملية. وكان ممثلو الكتيبة المهزومة حيارى مرتبكين لم يحاولوا حتى تبرير تراجعهم.

ـ لا يعود لي الفضل في هذا النجاح. إن كورتشاغين من أهل البلدة، وهو الذي دلنا.

تقدم رئيس هيئة الأركان من بافل، وقال في تهكم:

ـ إذاً، فأنت تستطيع الركض جيداً، يا رفيق، وتركب الخيول، كما يبدو، للمباهاة؟ ـ وأراد أن يقول شيئاً آخر إلا أن نظرة كورتشاغين أوقفته، وأسكتته.

عندما انصرفت الآمرية سأل كورتشاغين غوسيف بهدوء:

ـ ألا تعرف اسمه؟

ضربه غوسيف على كتفه:

ـ أهمله، لا تعر اهتماماً لهذا المغرور. إنه يدعى تشوجانين، وأظن أنه ملازم ثانٍ سابق.

في ذلك اليوم حاول كورتشاغين مرات عدّة أن يتذكر أين سمع بهذا الاسم، ولكنه لم يتذكر.

انتهت المناورات، وعادت الكتيبة إلى بريزدوف بعد أن فازت بتقدير رفيع. ومكث كورتشاغين يومين مع أمه لأنه كان منهوكاً تماماً. وبقي الحصان عند أرتيم. وكان بافل في كل يوم من هذين اليومين ينام عشرين ساعة. وفي اليوم الثالث زار أرتيم في مستودعات القطار. هنا كانت البناية السخماء تفوح برائحة أليفة لبافل. فاستنشق دخان الفحم ملهوفاً. واستأثرت بكيانه تلك الأشياء التي ألفها منذ الطفولة، وترعرع في وسطها، وتآصر معها. وأحس وكأنه فقد شيئاً عزيزاً عليه. كم من الشهور مرت من دون أن يسمع صافرة قطار. هفا مساعد الوقّاد السابق والكهربائي إلى كل الأشياء التي ألفها، ومثلما يهفو البحار إلى الزرقة الفيروزية للبحر المترامي كلما طال فيه المقام على اليابسة، وظل بافل وقتاً طويلاً يصارع هذا الشعور. تحدث مع شقيقه حديثاً قصيراً ولاحظ على جبين أرتيم غضناً جديداً. كان

ارتيم يعمل على كُور متنقل. وقد صار له ولدان. وحياته، كما يبدو، قاسية، ولم يتحدث أرتيم عنها، ولكن ذلك واضح من دون حاجة إلى حديث.

عملا سوية زهاء ساعتين. وافترقا. أوقف بافل حصانه عند معبر السكك، ونظر طويلاً إلى المحطة، ثم ساط حصانه الأسحم، وسار به في طريق الغابة بأقصى سرعته.

أصبحت طرق الغابة الآن مأمونة للسفر. سحق البلاشفة الشقاة كبارهم وصغارهم، وأحرقوا أوكارهم، وصار العيش في قرى المنطقة أوفر أمناً.

وصل كورتشاغين إلى بريزدوف عند الظهر. استقبلته بوليفيخ على مدخل لجنة الحزب المنطقية فرحة.

ـ وأخيراً وصل! ضجرنا بدونك ـ وطوقت كتفه، ودخلت معه الدار.

سأل بافل وهو يخلع معطفه:

ـ أين رازفاليخين؟

أجابت ليدا في شيء من الإكراه:

ـ لا أعرف أين هو. الآن تذكرت! قال لي في الصباح أنه سيذهب إلى المدرسة ليلقي درس الاجتماع بدلاً منك. قال: "تلك وظيفتي المباشرة وليست وظيفة كورتشاغين".

أثار هذا الخبر في بافل دهشة غير مريحة، وكان بافل لا يرتاح إلى رازفاليخين دائماً، ففكر في انزعاج: "ماذا يحوك هذا الغلام في المدرسة؟".

ـ لا بأس. حدثيني عن أخباركم. هل كنت في غروشيفكا؟

كيف تجري الأمور هناك عند الأولاد؟

حدثته بوليفيخ عن كل شيء. استراح كورتشاغين على الأريكة ممدداً ساقيه المتعبتين.

ـ يوم أمس الأول قبلت راكيتينا مرشحة إلى عضوية الحزب. وهذا يعزز خليتنا في بودوبتسي أكثر. فإن راكيتينا فتاة ماجدة، وهي تعجبني كثيراً، لقد بدأ انعطاف بين المعلمين. بعضهم ينضم إلى جانبنا كلياً.

في بعض الأمسيات كان ثلاثة رجال هم ليسيتسين وكورتشاغين، وليتشيكوف السكرتير الجديد للجنة الحزب المنطقية يظلون مجتمعين حول طاولة كبيرة في بيت ليسيتسين إلى ساعة متأخرة من الليل.

باب غرفة النوم مغلقة. ونيورا وزوجة ليسيتسين نائمتان. بينما الثلاثة المجتمعون إلى الطاولة عاكفون على كتاب صغير هو "التأريخ الروسي" لبوكروفسكي. كان ليسيتسين لا يجد وقتاً للدراسة إلا في الليل. وكان بافل يخرج إلى القرى، وفي الأيام التي يعود فيها يقضي أمسياته عند ليسيتسين فيجد ليتشيكوف وليسيتسين قد سبقاه في الدراسة فيؤثر ذلك في نفسه.

وصل من بودوبتسي نبأ مقتل غريشوتكا خوروفودكو ليلاً بأيدي رجال مجهولين. عندما سمع كورتشاغين بذلك هرع إلى الإسطبلات العائدة للجنة التنفيذية، في عدو سريع، ناسياً الألم في ساقيه، وأسرج فرساً بعجالة جنونية، وساط جنبيه بمقرعة جلدية، وعدا نحو الحدود.

كانت جثة غريشوتكا المغطاة بالراية ممددة على طاولة

محفوفة بالخضرة، في الدار الواسعة المتخذة مقراً لسوفييت القرية، كان جندي أحمر من جنود الحدود وكومسومولي يحرسان على عتبة الدار ولا يدعان أحداً يدخل قبل حضور المسؤولين. دخل كورتشاغين الدار، وتقدم من الطاولة، ورفع الراية.

كان غريشوتكا يرقد شاحباً بلون الشمع مميلاً رأسه إلى جانب، وقد ارتسم ألم الاحتضار على عينيه المتسعتين. وكان مؤخر رأسه المشجوج بشيء حاد قد غُطي بغصن شربين.

مَنْ رفع يده على هذا الشاب الابن الوحيد للأرملة خوروفودكو التي فقدت في الثورة زوجها الذي كان أجيراً في طاحونة، وعضواً في لجنة فقراء الفلاحين في ما بعد؟

تداعت العجوز حين سمعت بمقتل ابنها، وأحاطت بها جاراتها وهي شبه ميتة، بينما كان ابنها مسجى جامداً منطوياً على سر مقتله.

أثار مصرع غريشوتكا القرية. وظهر أن لرئيس خلية الكومسومول الشاب، والمدافع عن فقراء الفلاحين أصدقاء أكثر مما له من أعداء.

بكت راكيتينا في غرفتها مروَّعة بهذا الموت، وعندما تقدم كورتشاغين منها لم ترفع رأسها.

سأل كورتشاغين بصوت خافت، وارتمى على الكرسي ثقيلاً:

ـ من تظنين قتله يا راكيتينا؟

ـ لا أحد غير جماعة الطاحونة. فقد كان غريشوتكا شجاً في حلوق هؤلاء المهربين.

خرجت قريتان لتشييع غريشوتكا. وجلب كورتشاغين كتيبته، وجاءت المنظمة الكومسومولية برمتها لتودع رفيقها الوداع الأخير. وصفَّ غافريلوف في ساحة سوفييت القرية سرية مؤلفة من مئتين وخمسين جندياً من حراس الحدود، وأخرج التابوت الملفوف بالقماش الأحمر على الألحان الحزينة لمارش الوداع، ووضع في الساحة حيث حُفر قبر إلى جانب قبور الأنصار البلاشفة الذين استشهدوا في الحرب الأهلية.

وحَّد دم غريشوتكا أولئك الذين كان يدافع عنهم دائماً كالطود. وتعهد العمال الزراعيون الشبان وفقراء الفلاحين بإسناد الخلية الكومسومولية، وكل الذين تحدثوا متأثرين حنقاً طالبوا بالموت للقتلة، طالبوا بالكشف عنهم ومحاكمتهم في الساحة، عند هذا القبر ليرى كل إنسان وجه العدو.

أطلقت ثلاث طلقات، ووضعت على القبر الجديد أغصان التنوب. وفي ذلك المساء انتخبت الخلية الكومسومولية راكيتينا سكرتيرة جديدة، وصلت إلى كورتشاغين من نقطة الحدود رسالة ذكر فيها أنهم وقعوا على أثر للقتلة.

بعد أسبوع افتتح في مسرح القصبة المؤتمر الثاني لسوفييتات المنطقة. وفيه بدأ ليسيتسين تقريره برصانة ولهجة ظافرة:

ـ أيها الرفاق، استطيع أن أبلغ المؤتمر مسروراً بأننا جميعاً قد قمنا بأعمال كثيرة في هذا العام. وطدنا السلطة السوفييتية في المنطقة برسوخ واستأصلنا الشقاة، وقطعنا دابر المهربين. ونشأت في القرى منظمات قوية لفقراء الريف، وازدادت المنظمات

الكومسومولية عشر مرات، واتسعت المنظمات الحزبية. وأُميط النقاب عن الغدر الكولاكي الأخير في بودوبتسي، الذي ذهب ضحيته رفيقنا خوروفودكو، وألقي القبض على القاتلين ـ صاحب الطاحونة ونسيبه، ـ وبعد أيام سيحاكمان أمام محكمة الجنايات للولاية. لقد قدم عدد من مندوبي القرى طلباً إلى رئاسة المؤتمر يقترح أن يصدر المؤتمر قراراً يطالب فيه بإنزال أشد العقوبات بالشقاة الإرهابيين..

واهتزت القاعة من هتافات:

ـ موافقون! الموت لأعداء السلطة السوفييتية!

ظهرت بوليفيخ على باب جانبي، وأومأت لبافل بإصبعها.

قدمت له في الممشى مظروفاً كتب عليه "مستعجل" ففضّه.

إلى لجنة كومسومول منطقة بريزدوف . صورة منه إلى لجنة الحزب المنطقية. بناء على قرار لجنة الولاية يُستدعى الرفيق كورتشاغين من المنطقة إلى لجنة الولاية لإرساله إلى عمل كومسومول مهم.

ودع كورتشاغين المنطقة التي عمل فيها عاماً. نوقشت مسألتان في الاجتماع الأخير للجنة الحزب المنطقية: الأولى قبول الرفيق كورتشاغين إلى عضوية الحزب الشيوعي، والثانية إعطاؤه تقريراً عن أعماله وإعفاؤه من مهماته كسكرتير كومسومول المنطقة.

شدَّ ليسيتسين وليدا على يد بافل بقوة وحرارة، وعانقاه عناقاً أخوياً، وعندما خرج الحصان من الفناء منعطفاً إلى الشارع، أطلقت المسدسات العشرة طلقات تحية الوداع.

الفصل الخامس

تسلقت عربة الترام شارع فوندوكليفسكليا ومحركها الكهربائي يرسل دمدمة متوترة. وتوقفت عند مسرح الأوبرا. وخرجت منها جماعة من الشبان، ثم عادت العربة تصعد في الشارع.

حثَّ بانكراتوف المتأخرين:

ـ هيا، يا فتيان، الحقيقة إننا قد تأخرنا.

لحق أوكونيف به عند مدخل المسرح تماماً.

ـ لعلك تذكر، يا غنكا، كيف جئنا نحن الاثنان إلى هنا قبل ثلاث سنوات بالصورة نفسها. آنذاك عاد إلينا دوبافا مع "المعارضة العمالية". كانت أمسية طيبة. واليوم أيضاً سنتشاجر مع دوبافا.

ردَّ بانكراتوف على اوكونيف بعد أن عرضا بطاقتي الانتداب على جماعة التدقيق الواقفة في الباب ودخلا القاعة:

ـ نعم، التاريخ أعاد نفسه مع ميتيا في المكان نفسه.

هُسَّ عليهما ليسكتا. اضطرا إلى الجلوس في أقرب مكان. فقد كانت جلسة المؤتمر المسائية قد بدأت. وعلى المنبر امرأة.

ـ جئنا في اللحظة المناسبة. اجلس واصغ إلى ما تقول

زوجتك ـ همس بانكراتوف وهو يلكز جنب اوكونيف بمرفقه.

ـ ... حقاً إننا صرفنا في المناقشات جهوداً كثيرة، ولكن مقابل ذلك تعلمت الشبيبة المشتركة فيها أشياء كثيرة منها. ونحن نذكر بسرور كبير أن أتباع تروتسكي قد اندحروا في منظمتنا. وليس بإمكانهم أن يتشكوا من أننا لم نعطهم الفرصة للكلام وللتعبير عن آرائهم، بصورة تامة، لا، بل انقلب الأمر بالعكس: إن حرية العمل التي أعطيناها لهم أدت إلى أن يرتكبوا عدداً من أفظع التجاوزات على الضبط الحزبي.

وانفعلت تاليا، وتهدلت خصلة من الشعر على وجهها أعاقتها عن الكلام، فدفعت رأسها إلى الوراء بقوة.

ـ استمعنا هنا إلى رفاق كثيرين من المناطق، والجميع تحدثوا عن الأساليب التي استخدمها التروتسكيون. وهم، هنا في المؤتمر، ممثلون بعدد لا يُستهان به. وقد انتدبتهم المناطق لكي يعبروا مرة أخرى عن آرائهم هنا، في مؤتمر المدينة الحزبي. وليس ذنبنا أن خطبهم قليلة. والآن من الصعب عليهم الكلام من هذا المنبر، وتكرار ما قالوه بالأمس فقط.

قاطع الخطيبة صوت حاد صدر من ركن القاعة الأيمن.

ـ سنتكلم أيضاً.

التفتت تاليا لاغوتينا وتابعت القول:

ـ حسناً، يا دوبافا، تعال وتكلم، وسنصغي. ثبت دوبافا فيها نظرة صارمة، وتلوت شفتاه في عصبية:

ـ عندما يحين الوقت سنتكلم! ـ صاح، وتذكر هزيمة الأمس القاسية في منطقته التي يعرفه الناس فيها.

سرت دمدمة في القاعة. ولم يتمالك بانكراتوف نفسه.

ـ هل تعتزمون أن تهزوا الحزب مرة أخرى؟

عرف دوبافا صوته، ولكنه لم يلتفت بل اكتفى بعض شفته بألم، ونكس رأسه.

تابعت تاليا خطابها:

ـ إن دوبافا نفسه يمكن أن يعتبر مثلاً واضحاً على انتهاك التروتسكيين للضبط الحزبي. إنه تحنّك في الكومسومول مدة طويلة، ويعرفه الكثيرون لا سيما عمال الترسانة. ودوبافا طالب في الجامعة الشيوعية في خاركوف، ولكننا جميعاً نعلم أنه هنا مع شكولينكو منذ ثلاثة أسابيع. فما الذي جاء بهما إلى هنا والجامعة في غمرة الدراسة؟ لا يوجد حي واحد في المدينة لم يخطبا فيه. حقاً إن ميخائيلو شكولينكو أخذ يصحو إلى نفسه في الأيام الأخيرة.

مَنْ أرسلهما إلى هنا؟ بيننا، ما عداهما، عدد لا يُستهان به من التروتسكيين من مختلف المنظمات. وجميعهم قد اشتغلوا هنا في فترة من الفترات. وقد جاءوا الآن لتأريث نار الصراع داخل الحزب. هل تعرف المنظمة الحزبية أماكنهم؟ بالطبع، لا، لقد توقع المؤتمر من التروتسكيين خطب الاعتراف بالأخطاء.

حاولت تاليا أن تدفعهم إلى طريق الاعتراف فصارت وكأنها لا تخطب من منبر، بل تتحدث حديثاً رفاقياً.

ـ أنتم تذكرون أن دوبافا قبل ثلاثة أعوام عاد إلينا في هذا المسرح نفسه مع الكتلة السابقة "المعارضة العمالية". تذكروا كلماته: "لن نلقي راية الحزب من أيدينا أبداً"، وقبل أن تمضي

ثلاثة أعوام ألقى دوبافا هذه الراية. نعم، أقول: ألقاها، فإن جملته "سنتحدث أيضاً" ناطقة بأنه ورفاقه سيوغلون أبعد.

تحدث شخص من المقاعد الخلفية:

ـ ليتحدث توفتا عن البارومتر. فإنه اختصاصي بتقلبات الجو عندهم.

ترددت أصوات ساخطة:

ـ كفى نكات!

ـ ليجيبوا: هل سيكفون عن مكافحة الحزب أم لا؟..

ـ ليقولوا مَنْ وضع البيان ضد الحزب؟

ازداد الانفعال، ودق جرس الرئيس طويلاً.

وضاعت كلمات تاليا في ضجيج الأصوات، ولكن العاصفة هدأت بعد قليل، وعادت كلماتها مسموعة:

ـ نحن نتلقى رسائل من رفاقنا في النواحي ـ إنهم معنا، وهذا يشد من عزائمنا. فاسمحوا لي بقراءة مقاطع من إحدى الرسائل. إنها من أولغا يورينيفا، وكثيرون من الحاضرين يعرفونها، هي الآن رئيسة قسم التنظيم في لجنة كومسومول المقاطعة.

أخرجت تاليا ورقة من رزمة الأوراق، ومررت عليها بصرها وقرأت:

"العمل الفعلي مهمل، ومنذ أربعة أيام وجميع أعضاء المكتب في المقاطعات. شن التروتسكيون نضالاً لا مثيل لحدته. يوم أمس حدث حادث أثار المنظمة كلها. عندما أخفق المعارضون في الحصول على الأغلبية في أي خلية في المدينة

عزموا على تجميع قواهم وخوض معركة في خلية مفوضية المقاطعة العسكرية التي تضم الشيوعيين العاملين في لجنة التخطيط للمقاطعة، وقسم التثقيف. وفي الخلية اثنان وأربعون شخصاً، ولكن التروتسكيين كلهم تجمعوا هناك. لم نسمع من قبل خطباً معادية للحزب كتلك التي سمعناها في اجتماع الخلية. خطب أحد أعضاء المفوضية العسكرية وقال بصراحة:

"إذا لم يخضع الجهاز الحزبي فسنحطمه بالقوة". وقد قابل المعارضون هذا الإعلان بالتصفيق. عندئذٍ تكلم كورتشاغين وقال: "كيف ساغ لكم التصفيق لهذا الفاشي وأنتم أعضاء في الحزب؟" وأعاقوا كورتشاغين عن مواصلة كلامه، ضربوا على الكراسي، وصرخوا. وطالب أعضاء الخلية الذين أغضبهم الاستهتار بأن يخطب كورتشاغين، ولكن حين شرع بافل يتكلم أعاقوه مرة أخرى. صرخ بافل بهم "هذه هي ديموقراطيتكم إذاً! سأتكلم على أي حال!". عند ذاك أمسك به أشخاص عدّة، وحاولوا إنزاله من المنبر. وحدث هرج وحشي. وصدهم بافل، واستمر في الكلام، إلا أنهم جروه إلى ما وراء المسرح، وفتحوا باباً جانبياً، وألقوه على السلم. وأدمى أحد الأوغاد وجهه. وخرجت الخلية كلها تقريباً من الاجتماع. وقد فتح هذا الحادث عيون الكثيرين....".

وتركت تاليا المنصة.

كان سيغال قد قضى شهرين يعمل رئيساً لقسم الدعاية للجنة الحزب للولاية. وهو الآن جالس مع هيئة الرئاسة إلى

جانب توكاريف، يصغي بانتباه إلى خطب المندوبين إلى مؤتمر المدينة الحزبي. وحتى الآن كان الخطباء جميعاً من الشبان الذين لا يزالون في الكومسومول.

وفكر سيغال:

ـ "كم نضجوا خلال هذه الأعوام!" ثم قال لتوكاريف:

ـ جماعة المعارضة الآن في وضع زنق، والمدفعية الثقيلة لم تطلق بعد. الشبيبة تعصف بالتروتسكيين.

قفز توفتا إلى المنبر. وقوبل من القاعة بصفير الاستهجان، وبنوبات قصيرة من الضحك. التفت توفتا نحو هيئة الرئاسة يريد أن يبدي احتجاجه على هذه المقابلة. إلا أن القاعة قد صمتت عند ذاك.

انفجر قائلاً في دفعة واحدة:

ـ وصفني شخص هنا بالأخصائي بتقلبات الجو. هكذا يا رفاق الغالبية تستهزئون بآرائي السياسية!

غطت على كلماته ضحكات هادرة. أشار توفتا إلى القاعة لهيئة الرئاسة مغتاظاً.

ـ اضحكوا ما تشاءون، ولكنني أقول مرة أخرى إن الشبيبة هي بارومتر. وقد كتب لينين عن ذلك مرات عدّة.

هدأت القاعة على الفور.

ـ ماذا قال؟ ـ سأل صوت في القاعة.

نشط توفتا.

ـ عندما كانت الاستعدادات تجري لانتفاضة أكتوبر أصدر لينين تعليمات لتجميع شبيبة عمالية ذات عزيمة، وتسليحها،

وإلقائها مع البحارة في أكثر المناطق أهمية. هل تريدون أن أقرأ لكم المقطع المذكور؟ عندي جميع المقتطفات مكتوبة على كارتات ـ وحشر توفتا يده في محفظته.

ـ نحن نعرف ذلك!

ـ وماذا كتب لينين عن الوحدة؟

ـ وعن الضبط الحزبي؟

ـ أين عارض لينين الشبيبة بالشيوخ المجربين؟

أضاع توفتا الخيط، وانتقل إلى موضوع آخر.

ـ قرأت لاغوتينا هنا رسالة يورينيفا. نحن لا يمكن أن نتحمل مسؤولية بعض المناقشات غير الطبيعية.

همس تسفيتايف في غيظ، وكان جالساً إلى جانب شكولينكو:

ـ عذر الغبي أسوأ من ذنبه.

أجاب شكولينكو بصوت خافت أيضاً:

ـ نعم. إن هذا المغفل سيحطمنا كلياً.

واستمر صوت توفتا الحاد الصارخ يخدش الآذان:

ـ إذا نظمتم تكتل الغالبية، فإن لنا الحق في تنظيم تكتل الأقلية.

انفجرت عاصفة في القاعة.

وكُتِم صوت توفتا بهدير الهتافات الحانقة.

ـ ما هذا؟ بلاشفة ومناشفة مرة أخرى؟

ـ الحزب الشيوعي الروسي ليس برلماناً.

ـ إنهم يعملون للجميع من مياسنيكوف إلى مارتوف.

وهز توفتا ذراعيه، وكأنه يريد أن يلقي نفسه في نهر، وأرسل الكلمات هدار:

ـ نعم، نحن بحاجة إلى حرية التكتل ـ وإلا فكيف نستطيع ونحن مختلفون بالأفكار، أن نناضل عن آرائنا إزاء أغلبية منظمة حسنة الضبط؟

ازداد الهدير في القاعة. نهض بانكراتوف وصاح:

ـ دعوه يفصح عن آرائه. من المفيد أن نعرف ذلك. توفتا يفشي ما يسكت عنه الآخرون.

عاد السكون. وأدرك توفتا أنه قد اشتط في القول. ربما كان من الأجدر أن لا يقول ذلك الآن. قفز فكره إلى جانب، وأنهى خطابه بفيض من الكلمات المرسلة على عواهنها.

ـ بالطبع، بإمكانكم أن تطردونا وتنبذونا جانباً. وهذا قد بدأ بالفعل. فقد أخرجوني من لجنة كومسومول الولاية، لا بأس، قريباً سنرى من هو على حق. ـ ونزل من المسرح إلى القاعة.

تلقى دوبافا قصاصة ورق من تسفيتايف فيها:

"ميتيا. تكلم الآن. حقاً إن ذلك لا يغير مجرى الأمور. فإن اندحارنا هنا واضح. من الضروري تصحيح توفتا. إنه بليد ومهذار".

طلب دوبافا الكلام. فسمح له في الحال.

عندما صعد إلى خشبة المسرح ساد القاعة صمت حذر. واستشعر دوبافا ببرد الغربة من هذا الصمت الذي يسود عادة قبل أن يبدأ الخطيب كلامه. ولم يكن يشعر بذلك الحماس الذي كان

يتكلم به في الخلايا. كانت جذوته تخمد يوماً بعد يوم، وهو الآن مثل نار صُب عليها ماء، غُلِّف بدخان لاذع. وكان هذا الدخان هو الغرور المَرَضي الذي جرحته الهزيمة الجلية، والصد القاسي من جانب أصدقائه القدامى، ثم هو الرفض العنيد للاعتراف بأنه على خطأ. فعزم على أن يتصلَّب، بالرغم من علمه بأن ذلك يزيد من انعزاله عن الأغلبية. تكلم بخفوت ولكن بوضوح.

ـ أرجو أن لا تقاطعوني، وتثيروني بالاعتراضات. أريد أن أطرح موقفنا برمته، على الرغم من أنني أعرف مقدماً أن ذلك بلا جدوى، فأنتم الأغلبية.

عندما انتهى من كلامه بدا وكأن قنبلة انفجرت في القاعة. ردَّت على دوبافا زوبعة من الصيحات وهتافات الحنق مثل ضربات السياط على وجهه.

ـ يا للعار!

ـ ليسقط الانشقاقيون!

ـ كفاية! كفى التلطيخ بالوحل!

رافقت دوبافا ضحكات ساخرة حين نزل من خشبة المسرح، وقد طعنته هذه الضحكات. فلو أنه قوبل بالصياح الساخط المحتدم لسرَّه ذلك. ولكنهم ضحكوا منه، مثلما يضحكون من فنان رفع صوته بنغمة ناشزة، واختنق فيها.

أعلن رئيس الجلسة:

ـ الكلمة الآن لشكولينكو.

نهض ميخائيلو.

ـ أنا أرفض الكلام.

ارتفع صوت بانكراتوف القوي من الصفوف الخلفية:

ـ اطلب الكلام!

عرف دوبافا حالة بانكراتوف النفسية من جَرْس صوته. بمثل هذا الصوت كان بانكراتوف يتكلم عندما يوجه له أحد الناس إهانة شديدة، وشعر دوبافا بقلق حانق، وهو يراقب بنظرة جهماء قامة بانكراتوف المديدة قليلاً تتحرك مسرعة نحو المنبر. وعرف دوبافا ماذا سيقول ايغنات. تذكر لقاءه يوم أمس مع أصدقائه القدامى في سولومينكا، حين سعى هؤلاء في محادثة رفاقية إلى أن يُجعلوه يترك جماعة المعارضة. وكان معه تسفيتايف وشكولينكو. اجتمعوا عند توكاريف بحضور ايغنات، واوكونيف، وتاليا، وفولينتسيف، وزيلينوفا، وستاروفيروف، وارتيوخين. صمَّ دوبافا أذنيه وأخرس لسانه إزاء تلك المحاولة لإعادة الوحدة. وفي ذروة الحديث خرج مع تسفيتايف مؤكداً بذلك عدم رغبته في الاعتراف بخطل آرائه. وبقي شكولينكو. وفي هذه المرة رفض شكولينكو الكلام. "مثقف رخو! كسبوه إلى جانبهم بالطبع" ـ فكر دوبافا في ذلك حانقاً. لقد فقد جميع أصدقائه في هذا الصراع الجنوني. وفي الجامعة الشيوعية انقطعت صداقته القديمة مع جاركي الذي وقف بحدة في المكتب ضد بيان الـ "٤٦". وحين استفحل الخلاف في ما بعد كف عن الكلام مع جاركي. وقد رآه مرات عدّة في شقته، لزيارة آنا. وكان دوبافا قد تزوج من آنا بورخارت منذ عام. وكانت لكليهما غرفة منفردة. وقد رأى دوبافا أن علاقاته المتوترة مع آنا

التي لا تشاطره آراءه تسوء يوماً بعد يوم لسبب آخر أيضاً هو تردد جاركي على زيارة آنا كثيراً. ولم تكن في ذلك غيرة. ولكن صداقة آنا مع جاركي الذي يكلمه دوبافا كانت تغيظه. وقد قال ذلك لآنا. وجرى حديث جدي، وأصبحت علاقتكما أكثر توتراً.

وسافر إلى المدينة من دون أن يخبرها بذلك.

قطع ايغنات تدفق أفكاره السريع. بدأ بانكراتوف خطابه:

ـ أيها الرفاق! ـ نطق بهذه الكلمة بقوة، وارتقى المنبر، وتقدم حتى الحافة. ـ أيها الرفاق! لتسعة أيام ونحن نسمع خطب المعارضة. وأصارحكم القول: إنهم لم يكونوا يخطبون كرفاق كفاح، كمناضلين ثوريين، كأصدقائنا في الطبقة والنضال ـ فقد كانت خطبهم عدائية بشكل فظ، ومتصلبة حقودة افترائية. نعم، يا رفاق، افترائية! لقد حاولوا أن يصورونا، نحن البلاشفة، كأنصار سياسة العصا في الحزب، خونة مصالح طبقتنا والثورة. لقد حاولوا أن يصموا بالبيروقراطية الحزبية أحسن وأصلد فريق في حزبنا، الرعيل البلشفي المجيد القديم، أولئك الذين مرسوا وربوا الحزب الشيوعي الروسي، أولئك الذين زجهم الطغيان القيصري في السجون، أولئك الذين خاضوا بزعامة الرفيق لينين نضالاً لا هوادة فيه ضد المنشفية العالمية، وتروتسكي. ومن كان بوسعه أن يقول هذه الأقوال إن لم يكن عدواً؟ أليس الحزب وجهازه كياناً واحداً؟ قولوا لي، أي شيء هذا؟ ماذا كنا سنسمي الذين يحرضون الجنود الحمر الشبان في فصيلة من الفصائل ضد أمرائهم ومفوضيهم، ضد هيئة الأركان، في الوقت الذي يحاصر فيه الأعداء هذه الفصيلة؟ وهل يعني أنني إذا كنت اليوم براداً

يمكن أن أعتبر، حسب رأي التروتسكيين، "أميناً مخلصاً" ولكن إذا أصبحت غداً سكرتير لجنة فسأكون "بيروقراطياً" و"من الجهاز"؟! أليس عجيباً، أيها الرفاق أن بين جماعة المعارضة الثائرة على البيروقراطية، وفي سبيل الديموقراطية أشخاصاً، مثل توفتا، الذي عُزل من العمل بسبب بيروقراطيته، ومثل تسفيتايف المعروف جيداً بين الرفاق في سولومينكا بـ "ديموقراطيته" أو أفاناسييف الذي عزلته لجنة الولاية الحزبية عن العمل ثلاث مرات بسبب حبه لإصدار الأوامر، والضغط في منطقة بودول؟ والحقيقة أن جميع الذين اتحدوا للنضال ضد الحزب كان الحزب قد عاقبهم. دعوا البلاشفة القدامى يتحدثون عن "بلشفية" تروتسكي. الآن حين يوضع هذا الاسم في الطرف المعارض للحزب يصبح من الضروري أن تعرف الشبيبة تاريخ نضال تروتسكي ضد البلاشفة، وتنقلاته المستمرة من معسكر إلى آخر. لقد رص الكفاح ضد المعارضة صفوفنا، وقوى الشبيبة فكرياً. وفي النضال ضد التيارات البرجوازية الصغيرة تفولذ[٢] الحزب البلشفي والكومسومول . إن المعارضين المصابين بالهلع الهستيري يتنبأون لنا بالانهيار الاقتصادي والسياسي التام. وغداً سيُظهر قيمة هذه النبوءة. وهم يطالبون بأن يُحال شيوخنا من مثل توكاريف والرفيق سيغال، إلى الأعمال في الورش، وأن يوضع في مكانهم بارومتر محلول من مثل دوبافا الذي يريد أن يُظهر النضال ضد الحزب بمظهر البطولة. لا، يا رفاق، لن نقدم على

---

(٢) أصبح قوياً كالفولاذ. المترجم.

ذلك. سيكون للشيوخ بديلون عنهم، ولكن لن يحل محلهم أولئك الذين يهاجمون خط الحزب بجنون كلما برزت صعوبة. ولن نسمح بتحطيم وحدة حزبنا العظيم. ولن ينشق الصامدون من الشيوخ والشبان. وسنبلغ النصر تحت راية لينين في النضال الذي لا يلين ضد التيارات البرجوازية الصغيرة؟

ونزل بانكراتوف من المنبر. وصفق له الحاضرون تصفيقاً شديداً.

في اليوم التالي اجتمع عشرة أشخاص في بيت توفتا. وتكلم دوبافا:

ـ أنا وشكولينكو سنسافر اليوم إلى خاركوف.

لا شيء عندنا نعمله هنا. حاولوا أن تظلوا متماسكين. لم يبقَ أمامنا إلا أن ننتظر كيف ستتطور الأحداث. من الواضح أن مؤتمر عموم روسيا سيديننا، ولكن يبدو لي من السابق لأوانه توقع اتخاذ عقوبات ضدنا. قررت الغالبية أن تختبرنا في العمل مرة أخرى. ومواصلة النضال صراحة لا سيما بعد المؤتمر تعني طردنا من الحزب، وهذا خارج خطة أعمالنا. من الصعب التنبؤ بما سيحدث في المستقبل. وليس عندنا شيء آخر نتحدث فيه كما أظن ـ ونهض دوبافا للانصراف.

كما نهض ستاروفيروف النحيل ذو الشفتين الرقيقتين. قال بلثغة خفيفة وبلجلجة:

ـ أنا لا أفهمك، يا ميتيا ـ هل أن قرار المؤتمر سيكون غير إلزامي لنا؟

قاطعه تسفيتايف بحدة:

ـ إلزامي شكلياً، وإلا فسيأخذون بطاقة الحزب منك، وسننظر نحن أي ريح تهب. والآن علينا أن نتفرق.

تململ توفتا على كرسيه ضجراً. وكان شكولينكو عند النافذة يقضم أظافره كئيباً شاحباً، حول عينيه دائرتان زرقاوان من ليالي السهاد. عندما سمع كلمات تسفيتايف الأخيرة كف عن قضمه العذب، والتفت إلى المجتمعين.

ـ أنا ضد هذه المداورة، ـ قال بصوت خافت واختلج فجأة.

ـ أنا شخصياً أعتبر قرار المؤتمر إلزامياً لنا. لقد دافعنا عن آرائنا، ولكن يجب أن نخضع لقرار المؤتمر.

نظر ستاروفيروف إليه نظرة تأييد. ودمدم:

ـ كنت أريد أن أقول ذلك.

تفرس دوبافا بشكولينكو، وقال بسخرية مقصودة:

ـ على العموم لا أحد يقترح عليك شيئاً. لا تزال أمامك فرصة "إظهار الندم" في مؤتمر الولاية.

قفز شكولينكو على قدميه.

ـ ما هذه اللهجة يا دميتري! أقول لك بصراحة إن كلماتك تنفرني عنك، وتجعلني أعيد النظر في مواقف الأمس.

هز دوبافا ذراعه.

ـ لم يبقَ لي غير هذا. اذهب، وأظهر ندمك قبل فوات الأوان.

ومد دوبافا يده لتوفتا والآخرين مودعاً.

وبعد قليل خرج وراءه شكولينكو وستاروفيروف.

دشنت سنة ١٩٢٤ حلولها في التاريخ ببرد قارس. استشرى

كانون الثاني على البلاد التي تسربلت بالثلج ومنذ نصفه الثاني بدأ يزأر بالعواصف والزوابع الثلجية الطويلة.

غطى الثلج طرق السكك الحديدية الجنوبية الغربية. وصارع الناس الطبيعة المستشرسة.

شقت اللوالب الفولاذية لمنظفات الثلج التلال الثلجية ممهدة الطريق للقطارات. وقطع الزمهرير والعواصف الثلجية أسلاك التلغراف المتجمدة، ومن بين اثني عشر خطاً للتلغراف لم يكن يعمل غير ثلاثة: الخط الهندي - الأوروبي وخطان للاتصال المباشر.

في غرفة التلغراف في محطة شيبيتوفكا الأولى كانت ثلاثة أجهزة لإشارات "مورزية" لا تفتأ ترسل حديثها غير المفهوم إلا لأذن عامل التلغراف.

والتلغرافيات شابات لا يزيد طول الأشرطة التي تلقينها منذ اليوم الأول من عملهن عن عشرين كيلومتراً، بينما بدأ زميلهن العجوز المئة الثالثة من كيلومترات الأشرطة. وهو لا يقرأ الأشرطة مغضناً جبينه كما يفعلن هن. إنه يحدس الحروف والعبارات الصعبة، ويكتب على الورق كلمة بعد أخرى مصغياً إلى دقات الجهاز. إنه يسمع بأذنه:

"إلى الجميع، إلى الجميع، إلى الجميع!".

ويسجل عامل التلغراف وهو يفكر: "أغلب الظن أنها نشرة عن إزالة الثلج مرة أخرى". وراء النافذة تعوّل عاصفة ثلجية، والريح تضرب الزجاجة بحفنات الثلج. تصوَّر عامل التلغراف أن أحداً يدق على زجاج النافذة، فأدار رأسه، وجذبه جمال نقوش

الثلج على الزجاج. ليس بمقدور أي يد إنسانية أن تحفر هذه الرسوم الدقيقة للغاية لأوراق وجذوع عجيبة.

وكف عن الاستماع إلى الجهاز منجذباً بهذا المنظر، وعندما صرف نظره عن النافذة، أمسك الشريط بكفه ليقرأ الكلمات الآتية:

ـ نقل جهاز التلغراف:

"في الحادي والعشرين من كانون الثاني، في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين...."

كتب عامل التلغراف بسرعة ما قرأه، وألقى الشريط، وأسند رأسه على يديه، وأخذ يصغي.

"أمس، في غوركي توفي....".

كتب عامل التلغراف ببطء، كم من مرة في حياته سمع أخباراً سارة وفاجعة، وكان أول من يعرف مصيبة الآخرين وسعادتهم. وقد كف منذ زمن طويل عن تأمل معنى العبارات المقتضبة المتقطعة، وصار يسمعها بأذنه، ويسجلها على الورق آلياً غير مفكر بمحتواها.

والآن مات شخص، وهم ينعونه لأحد من الناس. لقد نسي عامل التلغراف مستهل البرقية: "إلى الجميع، إلى الجميع، إلى الجميع!" ودق الجهاز وترجم عامل التلغراف العجوز دقات الجهاز إلى حروف: "فـ لاـ د ـ ي ـ م ـ ير ا ي ل ـ ي ـ تش". كان يجلس هادئاً، تعباً بعض الشيء. مات في مكان ما شخص يدعى فلاديمير ايليتش، وسيكتب اليوم لأحد الناس الكلمات الأليمة، وسيبكي شخص في يأس وحزن، وكل هذا لا يمسه

بشيء، إنه شاهد غريب. ويدق الجهاز نقاطاً وشريطاً آخر، وكوّن من الأصوات المألوفة الحرف الأول وسجله على الورقة. وكان ذلك حرف "ل". وكتب وراءه الحرف الثاني "ي" وإلى جانبه نقش "ن" بجهد، وأضاف إليه في الحال "ي" والتقط تلقائياً الحرف الأخير: "ن".

ودق الجهاز فراغاً، وثبت عامل التلغراف بصره لعشر الثانية على ما كتبه:

"لينين".

وتابع الجهاز الدق، إلا أن فكر عامل التلغراف الذي صدمه الاسم المألوف عاد إليه ثانية. نظر عامل التلغراف ثانية إلى الكلمة الأخيرة "لينين". ماذا؟ لينين؟ وانعكس نص البرقية كلها في بؤبؤ عينه. ونظر عامل التلغراف بضع لحظات إلى الورقة ولأول مرة خلال اثنين وثلاثين عاماً من العمل لم يصدق ما سجله.

مرر عينيه على السطور ثلاث مرات، ولكن الكلمات هي "توفي فلاديمير ايليتش لينين". ونهض العجوز واقفاً على قدميه، ورفع الشريط الملتوي، وأجال بصره فيه. إن الشريط بطوله البالغ مترين أكد ما لم يكن قادراً على التصديق به! أدار نحو رفيقاته وجهاً كوجوه الموتى، وسمعن صرخته المذعورة:

ـ مات لينين!..

مرّ نبأ الفقد العظيم من غرفة التلغراف عبر الباب المفتوح، وبسرعة الإعصار انطلق في المحطة واندفع في العاصفة الثلجية، ودوّى على الخطوط وتحويلات السكك، ونفذ مع التيار

الجليدي خلال بوابة المستودع الحديدية المواربة.

في مستودع القطارات كانت تقف فوق خندق التصليح الأول قاطرة يعمل عليها فريق التصليح البسيط. كان العجوز بوليتوفسكي نفسه قد نزل إلى الخندق تحت بطن قاطرته، وراح يدل المصلحين على المواضع العليلة. وكان زاخار بروزجاك وأرتيم يقومان القضبان المعوجة لمشبك الموقد. كان زاخار يمسك المشبك على السندان، ويضعه تحت ضربات مطرقة أرتيم.

شاخ زاخار خلال الأعوام الأخيرة، وحفرت الأيام التي عاشها غضناً عميقاً على جبينه، وشاب فوداه وانحنى ظهره، ولاحت ظلال في عينيه الغائرتين.

لاح شخص في الشق المنوَّر من بوابة المستودعات، ثم ابتلعته أغباش المساء. غطت الضربات على الحديد الصيحة الأولى، ولكن حين أقبل الرجل على العاملين على القاطرة كان أرتيم قد رفع المطرقة، وتوقف.

ـ يا رفاق! لينين مات!

أنزلقت المطرقة من كتف أرتيم ببطء، فألقاها على الأرض الإسمنتية من دون أن تحدث صوتاً.

ـ ماذا قلت؟ ـ أطبقت يد أرتيم كالكلابتين على جلد معطف الرجل الذي نطق بالنبأ الرهيب.

فكرر هذا الرجل اللاهث المغطى بالثلج قوله بصوت خافت متقطع:

ـ نعم، يا رفاق، لينين مات...

ولأن الرجل لم يرفع صوته أدرك أرتيم الحقيقة الموجعة، فحدق بوجه الرجل وعرفه. إنه سكرتير المنظمة الحزبية.

خرج الناس من الخندق، وسمعوا صامتين نعي الرجل الذي كان العالم بأسره يعرف اسمه.

وعند البوابة أطلقت إحدى القاطرات صافرتها باعثة القشعريرة في أجساد الرجال جميعاً. فردت عليها قاطرة أخرى في أقصى المحطة، وثالثة... وانضمت إلى صفيرها الجبار المملوء هلعاً صفارة محطة الكهرباء العالية المجلجلة مثل صفير قذيفة الشرابنيل. ثم غطى عليها جميعاً رنين النحاس الصافي الذي أرسلته قاطرة "س" الجميلة السريعة لقطار الركاب المستعد للسفر إلى كييف.

جفل جندي أمن الدولة مأخوذاً بالمفاجأة حين سمع صافرة القطار السريع شيبيتوفكا ـ ورصوفيا منضمة إلى الصافرات الأخرى. وكان سائق هذا القطار قد عرف سبب الصفير الهلوع فرفع يده ببطء، وجذب سلسلة صافرته. كان يعرف أنه يصفر للمرة الأخيرة، وأنه لن يشتغل بعد الآن على هذه القاطرة، إلا أن يده ظلت ممسكة بالسلسلة فأخرج الصفير المبعوثين والدبلوماسيين البولونيين مذعورين من أرائك المقاصير الوثيرة. امتلأ مستودع القاطرات بالناس. انصبوا من البوابات الأربع، وحين اكتظ المبنى الكبير رنت الكلمات الأولى في صمت الحداد .

تكلم البلشفي القديم شارابرين سكرتير اللجنة الحزبية لمقاطعة شيبيتوفكا:

ـ أيها الرفاق! مات زعيم البروليتاريا العالمية لينين. وحلت بالحزب خسارة لا تعوض. مات الرجل الذي أنشأ الحزب البلشفي ورباه على اللا هوادة مع الأعداء. إن موت قائد الحزب والطبقة يدعو أحسن أبناء البروليتاريا للانضمام إلى صفوفنا...

عزف مارش الحداد، وحسرت مئات الرؤوس وشعر ارتيم الذي لم يبكِ منذ خمسة عشر عاماً، باختلاج العبرة في صدره، واهتزت كتفاه العريضتان.

بدت جدران نادي السكك غير قادرة على تحمل ضغط الجماهير. في الخارج زمهرير قارس، وشجرتا الشربين الطويلتان عند المدخل مسربلتان بالثلج وإبر الجليد، ولكن القاعة خانقة من المواقد المدفأة كثيراً، ومن أنفاس ستمئة إنسان من الراغبين في الاشتراك بحفل التأبين الذي تقيمه المنظمة الحزبية.

خلت القاعة من الضجيج والأحاديث المعتادة، كتم الأسى العظيم الأصوات، وراح الناس يتحدثون بخفوت، وكان الهلع الشبحي مرتسماً على مئات العيون، بدا وكأن المجتمعين هنا ملاحو سفينة فقدت ربانها المحنك، وقد ألقى بها إعصار في عرض البحر.

وبالهدوء نفسه احتل أعضاء المكتب أماكنهم خلف منضدة الرئاسة. رفع سيروتينكو الربع القامة الجرس قليلاً وبحذر، وهزَّه هزة خفيفة ثم أعاده إلى المنضدة. وكان ذلك كافياً، وشيئاً فشيئاً ساد القاعة سكون مكرب.

وفور انتهاء الخطاب، نهض من وراء المنضدة سيروتينكو السكرتير المسؤول للمنظمة الحزبية، ولم يدهش قوله أحداً،

على الرغم من أنه كان غير مألوف في اجتماع تأبيني. وما قاله سيروتينكوهو:

ـ يطلب عدد من العمال أن ينظر الاجتماع في طلبهم الموقع من قبل سبعة وثلاثين رفيقاً. ـ ثم قرأ الطلب:

ـ إلى منظمة عمال السكك للحزب الشيوعي البلشفي في محطكة شيبيتوفكا على الخط الحديدي الجنوبي الغربي.

دعانا موت الزعيم للانضمام إلى صفوف البلاشفة، ونحن نرجو التدقيق في أمرنا في اجتماع اليوم، وقبولنا في حزب لينين.

وكان تحت هذه الكلمات القليلة صفان من التواقيع.

قرأها سيروتينكو متوقفاً بعد كل اسم بضع ثوانٍ ليتمكن المجتمعون في القاعة تذكر الأسماء المألوفة لهم.

ـ بوليتوفسكي ستانيسلاف زغموندوفيتش ـ سائق قاطرة. أقدمية العمل ٣٦ عاماً.

سرى دوي الاستحسان في القاعة.

ـ كورتشاغين أرتيم اندرييفتش ـ برَّاد. أقدمية العمل ١٧ عاماً.

زاد الدوي في القاعة. وتابع الرجل الواقف عند المنضدة قراءة الأسماء، وسمع الحاضرون في القاعة أسماء شيوخ الأسرة العاملة بين الحديد والمازوت.

هدأت القاعة تماماً حين تقدم من طاولة الرئاسة أول مَنْ وضع توقيعه في الطلب.

لم يستطع العجوز بوليتوفسكي أن يكتم انفعاله، وهو يقص على المستمعين تاريخ حياته:

ـ .... وماذا أقول لكم أيها الرفاق؟ أنتم تعرفون كيف كانت حياة الإنسان العامل في الزمن الماضي. عشت في جور العبودية، وضامني الفقر في الشيخوخة. أعترف لكم بأن الثورة حين حدثت اعتبرت نفسي عجوزاً. كانت على كتفي أعباء عائلة، ولم أرَ طريقي إلى الحزب. وعلى الرغم من أنني لم أساعد العدو في معركة، إلا أنني نادراً ما انخرطت في معركة. في عام ١٩٠٥ كنت عضواً في لجنة الإضراب في ورش تصليح القطارات في ورصوفيا، وصرتُ على وفاق مع البلاشفة. كنت شاباً آنذاك وحاد المزاج. لا فائدة من تذكر الماضي! طعنني موت ايليتش في قلبي، لقد فقدنا صديقنا الحميم إلى الأبد. كفانا تحدثاً عن الشيخوخة!... فليتحدث من يحسن تجويد الكلام أكثر مني، فلست خبيراً في الكلام، إلا أنني أؤكد شيئاً واحداً: إن طريقي هو طريق البلاشفة، ولا طريق غيره.

وهز سائق القاطرة رأسه الأشيب بإباء وصوّب إلى القاعة نظرة ثابتة قوية من تحت الحاجبين الأشيبين، وكأنه ينتظر من القاعة قرارها.

لم ترتفع يد واحدة معترضة على هذا الرجل قصير القامة ذي الرأس الأشيب، ولم يمتنع أحد عند التصويت حين طلب المكتب من اللا حزبيين أن يقولوا كلمتهم أيضاً.

وترك بوليتوفسكي المنضدة وهو شيوعي.

فهم كل مَنْ في القاعة أن شيئاً غير اعتيادي يحدث في حضورهم. كان أرتيم يقف بجسمه الضخم في المكان الذي كان سائق القاطرة واقفاً فيه قبل لحظة. لم يدر أرتيم ماذا يفعل بيديه

الطويلتين فعصر بهما قبعته المتهدلة. كانت سترته من فراء الماعز المحكوكة من الحوافي مفتوحة، وياقة قميصه العسكري الرمادي المزررة جيداً بزرين نحاسيين تضفي عليه هندام العيد. أدار أرتيم وجهه إلى القاعة، وبلمحة وقع بصره على وجه امرأة مألوف. كان غاليانا ابنة البنّاء جالسة بين زميلاتها من محل الخياطة. كانت تبتسم له مسامحة، وكان في ابتسامتها استحسان، وشيء آخر مكتوم مخفي في طرفي شفتيها.

ـ تحدث عن تاريخ حياتك يا أرتيم ـ سمع البرّاد صوت سيروتينكو.

صعب على كورتشاغين الكبير التحدث عن حياته، فهو لم يتعود على الكلام في اجتماع واسع. في تلك اللحظة فقط شعر بأنه غير قادر على أن يتحدث عن كل ما جرى في حياته. كان يستخرج الكلمات بعسر، وزاد اضطرابه من تعسُّر الكلمات عليه. لم يمر قط بمثل ما يمر به الآن. لقد أدرك بوضوح أن حياته انعطفت انعطافاً شديداً، وأنه يخطو الآن الخطوة الأخيرة إلى ما يبعث الدفء في حياته المتصلبة القاسية ويعطيها معنى.

بدأ أرتيم الكلام قائلاً:

ـ كنا أربعة أشقاء.

القاعة ساكنة. وستمائة إنسان يصغون بانتباه إلى العامل المديد القامة ذي الأنف المعكوف والعينين المحجوبتين تحت حاجبين أسودين كثيفين.

ـ كانت أمنا تشتغل طباخة عند السادة. وأنا لا أتذكر أبي جيداً. لم يكن أبي وأمي على وئام. كان يعب من الخمرة أكثر

مما ينبغي. وقد عشنا مع أمنا. وكان عسيراً عليها أن تطعم هذا العدد من الأفواه. كان السادة يعطونها أربع روبلات مع قوتها اليومي لقاء عملها من الشروق حتى الليل. وقد أسعدني الحظ في أن أدرس في المدرسة الابتدائية عامين، وتعلمت القراءة والكتابة، وعندما بلغت العاشرة لم يكن لأمي بد من إرسالي إلى ورشة ميكانيكية صبياً يتتلمذ على مهنة. وقضيت في العمل ثلاث سنوات بلا أجر، لقاء سد البطن فقط...

وكان صاحب الورشة ألمانياً يدعى فيرستر. لم يرد أن يقبلني لصغر سني، ولكنني كنت غلاماً كبير الجسم، ثم أن أمي زادت عمري سنتين. عملت عند هذا الألماني ثلاثة أعوام. ولم يعلمني مهنة، بل أخذ يرسلني في مختلف المهمات، ولشراء الفودكا أيضاً. وكان يفرط في الشراب.. وكان يرسلني لأجلب الفحم، والحديد... وجعلتني زوجته خادمها: أحمل لها القدور، وأقشر البطاطس. وكان كل شخص مولعاً برفسي، وفي الغالب من دون سبب قط، بحكم العادة فقط، إذا لم أرضِ زوجة السيد بشيء - كانت ساخطة على الجميع بسبب سكر زوجها - توجه لي صفعة أو صفعتين على وجهي. فأهرب منها إلى الشارع، ولكن إلى أين أذهب، ولمن أشتكي. أمي تسكن على بعد أربعين ميلاً، ولا منجى عندها... وليس الحال في الورشة أحسن، هو يدير شؤونها كلها. وكان هذا الوغد مولعاً بالضحك مني. كان يقول لي مثلاً: "أعطني هذه الحلقة" ويشير إلى الأرض في الركن الذي يوجد فيه الكور. فأذهب إلى هناك، وأمسك الحلقة بيدي، ويكون هو قد فرغ من طرقها من توه بعد إخراجها من الكور. وكانت سوداء على الأرض، وحين تمسكها

بأصابعك تحرقها حتى اللحم. وأصرخ من الألم بينما هو يجأر منفجراً بالضحك. وضقت من ورشة التعذيب هذه، وهربت إلى أمي. ولكنها لم تعرف ماذا تفعل بي. أرجعتني إلى الألماني، وهي تبكي، وفي السنة الثالثة أخذوا يعلمونني شيئاً عن المهنة، بينما استمر الضرب. وهربت ثانية، وذهبت إلى ستاروكوستانتينوف. وفي هذه البلدة عملت في محل للسجق. وكدحت هناك سنة ونصف سنة أغسل المصارين، وقد خسر صاحب المحل محله بالقمار، ولم يدفع لنا فلساً واحداً خلال أربعة أشهر، وهرب إلى مكان ما. وهكذا خرجت من هذه الحفرة. وركبت القطار، ونزلت في جمرينكا، وشرعت أبحث عن عمل. وأسعدني الحظ بالتعرف على أحد عمال مستودع القطارات الذي أشفق على وضعي، وقد أخبرته بأنني قد تعلمت شيئاً من البرادة، فأخذني معه مثل ابن أخ له، إلى رئاسة المستودع وتكفلني أمامها. قدروا عمري بسبعة عشر عاماً من طول قامتي، وأصبحت مساعد براد. وأنا أعمل في هذا المكان منذ تسعة أعوام. هذه هي حياتي الماضية، أما حياتي الحالية فأنتم جميعاً تعرفونها.

مسح أرتيم جبينه بقبعته، وزفر زفرة عميقة. وكان يجب أن يقول أيضاً الشيء الأهم. والأشق عليه، من دون انتظار استجواب أحد. قطب حاجبيه الكثيفين، وتابع قصته:

ـ يحق لكل إنسان أن يسألني: لماذا لم أنضم إلى البلاشفة حين اندلعت نار الثورة؟ ماذا بوسعي أن أقول عن هذا؟ أنا ما أزال في مقتبل العمر ولكنني الآن فقط وجدت طريقي إلى هنا. ولماذا أخفي عليكم؟ لم نرَ هذا الطريق. كان علينا أن نسلكه في

عام ١٩١٨ حين أضربنا ضد الألمان. وقد تحدث معنا البحار جوخراي مرات عدّة. في عام ١٩٢٠ فقط حملت البندقية. وعندما انتهت الدوامة، وألقينا البيض في البحر الأسود، عدنا إلى مواطننا. ثم جاءت العائلة والأولاد... وانشغلت في أمور البيت. ولكن حين مات رفيقنا لينين، وأصدر الحزب نداءه، نظرت إلى حياتي وعرفت ما ينقصها. قليل أن تدافع عن سلطتك، يجب أن نتكاتف كعائلة واحدة تعويضاً عن فقد لينين لتتوطد السلطة السوفييتية مثل جبل من حديد. يجب أن نكون بلاشفة. أليس حزب البلاشفة حزبنا؟

ألقى خطابه ببساطة وبإخلاص عميق مضطرباً من وقوفه هذا الموقف الذي لم يتعوده، وأنهاه وكأنما وضع عن كاهله ثقلاً، وانتصب بكل قامته، وانتظر الأسئلة .

قال سيروتينكو مبدداً الصمت:

ـ ربما يوجد مَنْ يرغب في الاستفسار عن شيء؟

تحركت صفوف الناس، إلا أنهم لم يجيبوا في الحال. وقال وقاد أسود كالخنفساء جاء من القاطرة إلى الاجتماع رأساً، وكان في قوله حزم:

ـ عن أي شيء نستفسر؟ ألسنا نعرفه؟ أعطوه البطاقة والسلام!

وقال الحداد غيلياك الركين الأحمر من الحر والانفعال بصوت مبحوح مزكوم:

ـ مثل هذا الفتى لن يخون العهد. سيكون رفيقاً صلباً. صوِّت يا سيروتينكو!

نهض شخص من الصفوف الخلفية حيث جلس الكومسومولیون، ولم يكن مرئياً في الظلمة الباهتة وسأل:

ـ ليحدثنا الرفيق كورتشاغين لماذا استقر في قطعة أرض؟ وهلا تضر فلاحيته بنفسيته البروليتارية؟

سرت في القاعة دمدمة خفيفة تفصح عن عدم الموافقة، واعترض صوت:

ـ تحدث ببساطة! وجد ما يتشدق به...

إلا أن أرتيم تابع مجيباً:

ـ لا بأس، يا رفيق، الفتى يقول الحق عن استقراري في قطعة أرض. ذلك صحيح، ولكنني لم أفقد وعيي العمالي من جراء ذلك. وقد انتهى ذلك منذ اليوم. سأنتقل مع عائلتي إلى مكان أقرب إلى مستودع القطارات. ذلك أحسن. فإن هذه الأرض تضيّق على أنفاسي.

ومرة أخرى انتفض قلب أرتيم حين نظر إلى غابة الأذرع المرفوعة. سار إلى مكانه منتصب القامة وهو لم يعد يشعر بثقل جسمه. وسمع من ورائه صوت سيروتينكو:

ـ بالإجماع.

وكان زاخار بروزجاك مساعد بوليتوفسكي القديم، زاخار الذي أصبح نفسه سائق قاطرة، ثالث الذين توقفوا عند المنضدة. وعندما ختم زاخار قصة حياته كعامل، ووصل إلى الأيام الأخيرة قال بصوت خافت ولكنه مسموع للجميع:

ـ واجب عليَّ أن أنهي ما بدأه ولدي. لم يموتا لكي أنزوي مع حزني. أنا لم أملأ الفراغ الذي تركه موتهما، والآن فتح

موت الزعيم عينيً. لا تسألوني عما مضى. إن حياتنا الحقيقية تبدأ منذ اليوم.

وعبس زاخار حزيناً وقد حركت الذكريات لواعجه، ولكن حين قُبل في الحزب برفع الأيدي من دون أن يوجه له أي سؤال حاد، صفت عيناه، وارتفع رأسه الأشيب من إطراقته.

استمر في المستودعات إلى ساعة متأخرة من الليل النظر في قبول الذين جاءوا ليملأوا الصفوف. ولم يُقبل في الحزب إلا أحسن مَنْ عرفوهم جيداً وامتحنوهم طوال الحياة.

إن موت لينين بلشف مئات الآلاف من العمال. ولم يفرق موت الزعيم صفوف الحزب. إنه كالشجرة التي تمد جذورها الجبارة عميقاً في الأرض. لن تموت إذا قطعت ذروتها.

الفصل السادس

وقف شخصان عند المدخل إلى قاعة الحفلات في الفندق. كان على كم الرجل الطويل ذي النظارة الأنفية ربطة حمراء كتب عليها "مراقب".

سألت ريتا:

ـ أهذا اجتماع الوفد الأوكراني؟

أجاب الرجل الطويل بلهجة رسمية:

ـ نعم، وماذا تريدين؟

ـ اسمح لي بالدخول.

وقف الرجل الطويل في طريق الدخول، ونظر إلى ريتا وقال:

ـ بطاقة تفويضك؟ لا يسمح بالدخول إلا للمندوبين الحاملين البطاقات التصويتية والاستشارية.

أخرجت ريتا من محفظتها بطاقة مكتوبة بحروف مذهبة. وقرأ الطويل: "عضو اللجنة المركزية". وزالت عنه رسميته على الفور وحلت محلها ملاطفة وإلفة.

ـ تفضلي. هناك إلى اليسار مقاعد شاغرة.

سارت ريتا بين صفوف الكراسي، ورأت مقعداً شاغراً

فجلست عليه. كان الاجتماع موشكاً على نهايته، كما يبدو. استمعت ريتا إلى خطاب الرئيس. لاح صوته مألوفاً لها.

ـ وهكذا، أيها الرفاق، انتخب من بين الوفود المندوبون إلى مجلس الشيوخ لمؤتمر عموم روسيا، وكذلك إلى مجلس المندوبين. ولا تزال هناك ساعتان حتى بداية المؤتمر. فاسمحوا لي بأن أدقق مرة أخرى قوائم الوفود الواصلة إلى المؤتمر.

عرفت ريتا أكيم: هو الذي قرأ الأسماء بعجالة.

وكانت الأيدي ترتفع مجيبة إياه حاملة بطاقات حمراء أو بيضاء.

أصغت ريتا بانتباه شديد.

هذا اسم مألوف:

ـ بانكراتوف.

التفتت ريتا إلى الذراع المرفوعة، ولكنها لم تستطع أن ترى في صفوف الجالسين وجه عامل الشحن المألوف لها. وتمر الأسماء سراعاً، ومرة أخرى تسمع بينها اسماً مألوفاً لها: "أوكونيف". وفي أثره جاء اسم آخر: "جاركي".

وترى ريتا جاركي، إنه يجلس على مقربة قريبة منها يدير لها وجهه نصف استدارة. هذه هي صفحة وجهه المنسية. نعم، إنه فانيا الذي لم تره منذ سنوات عدّة.

وتوالت الأسماء تترى، وفجأة يبعث أحد الأسماء الرجفة في جسمها:

ـ كورتشاغين

ارتفعت ذراع بعيداً في المقدمة وانخفضت. ويا للغرابة! تملكت اوستينوفيتش رغبة معذبة في رؤية الرجل الذي يحمل اسم صديقها المتوفى نفسه. وثبتت بصرها في النقطة التي ارتفعت فيها الذراع، إلا أن الرؤوس كلها بدت متشابهة. نهضت ريتا، وسارت في الممر بمحاذاة الجدار إلى الصفوف الأمامية. صمت أكيم. وحركت الكراسي من أماكنها مرسلة كركبة، وأخذ المندوبون يتحدثون بأصوات عالية، وارتفعت ضحكة فتية. وصاح اكيم محاولاً أن يعلو بصوته على ضجة القاعة.

- لا تتأخروا!... في مسرح البولشوي... الساعة السابعة!..

وتزاحم الناس على باب الخروج.

وأدركت ريتا أنها لن تقدر في هذا التيار أن تجد أحداً من أصحاب الأسماء التي سمعتها. وبقي أن لا تضيع أكيم عن بصرها، وعن طريقه ستجد الآخرين. اتجهت نحو أكيم، تاركة آخر جماعة من المندوبين تمر من أمامها.

- "لنذهب نحن أيضاً يا كورتشاغين، يا صاحبي القديم!"، سمعت من ورائها ذلك، وأجاب صوت مألوف لها:

- "هيا".

التفتت ريتا سريعاً، كان يقف أمامها شاب طويل أسمر في قميص بلون الكاكي يشد وسطه بحزام قوقازي رقيق، ويرتدي بنطلون ركوب أزرق.

نظرت إليه بعينين متسعتين. وحين طوقتها ذراعاه بحرارة، ونادى صوته المهتز بخفوت "ريتا" عرفت أنه بافل كورتشاغين.

ـ أنت حي؟

قالت له هاتان الكلمتان كل شيء. إنها لم تكن تعرف أن خبر موته كان خاطئاً.

خلت القاعة. وكان يتسرب من النافذة المفتوحة ضجيج شارع تفرسكايا شريان المدينة الجبار. ودقت الساعة ست دقات رنانة، وبدأ لكليهما أنهما التقيا منذ دقائق معدودات لا غير. إلا أن الساعة دعت إلى الذهاب إلى مسرح البولشوي. وعندما هبطا السلم الواسع إلى المخرج رمقت بافل بنظرة أخرى. إنه الآن أطول منها بفتر وكما كان من قبل سوى أنه أضحى أكثر رجولة وأكثر رزانة.

ـ انظر، حتى لم أسألك أين تعمل؟

ـ أنا سكرتير لجنة الكومسومول للمقاطعة، أو كما يقول دوبافا "من الجهاز" ـ وابتسم بافل.

ـ هل التقيت به؟

ـ نعم، وهذا اللقاء ترك في نفسي انطباعاً غير مريح.

خرجا إلى الشارع، أصوات منبهات السيارات المنطلقة وحركة، وصياح الزحام، قطعا الطريق إلى مسرح البولشوي، لم يتحدثا بغير كلمات قليلة، مفكرين في شيء واحد. كان المسرح محاطاً ببحر من الناس هادر متلاطم كان يطفح على بناية المسرح الآجرية محاولاً أن يقتحم المداخل المبتغاة المحروسة بالجنود الحمر. إلا أن الحراس المدققين لم يسمحوا بالدخول إلا للمندوبين، وكان هؤلاء أيضاً يمرون خلال صف متماسك مظهرين بطاقات التفويض باعتزاز.

إن بحر الناس حول المسرح هو من الكومسومولِيين، الذين لم يحصلوا على بطاقات الدعوة إلا أنهم كانوا يحاولون حضور افتتاح المؤتمر مهما يكن من شيء. كان بعض الكومسومولِيين الخفيفي الحركة يختلطون وسط جماعة من المندوبين، ويظهرون مثلهم ورقة حمراء على أنها بطاقة تفويض، ويصلون أحياناً إلى الأبواب، بل وإن عدداً منهم يوفق في دخولها. إلا أنه كان يصادف عضواً من اللجنة المركزية موكلاً بالحراسة، أو منظماً مكلفاً بتوجيه الضيوف إلى مقاعدهم في الشرفات، والمندوبين إلى مقاعدهم في القاعة. وعند ذاك كان هؤلاء يصحبون إلى وراء الباب وسط فرح كبير من قبل "غير البطاقيين" الآخرين.

لم يكن المسرح قادراً على استيعاب خمسة بالمئة من الذين أرادوا أن يضمهم.

شقت ريتا وبافل طريقهما بصعوبة إلى الباب. وكان المندوبون يتوافدون بلا انقطاع: تأتي بهم عربات الترام والسيارات. وعلى الباب زحام. عسّر الأمر على الجنود الحمر ـ وهم كومسومولِيون أيضاً ـ وضغطوا على الجدار، وارتفعت من المدخل صيحة جبارة:

ـ اضغطوا، يا أولاد!

ـ اضغطوا، يا إخوان، نوشك أن ندخل!

ـ هيه!...

انسل من الباب مع ريتا وبافل شاب مرن الحركة ذو عينين حادتين يضع شارة كومنسومولية، وبعد أن زاغ من المنظم اندفع في عجالة إلى البهو. وبعد لحظة اختفى في تيار المندوبين.

ـ لنجلس هنا ـ قالت ريتا عندما دخلا القاعة وأشارت إلى مكانين وراء الصفوف الأمامية.

جلسا في ركن. وقالت ريتا:

ـ أريد أن أسأل سؤالاً واحداً، على الرغم من أنه يتعلق بالأيام الماضية، إلا أنني أعتقد أنك ستجيبني عنه: لماذا قطعت في ذلك الحين دراستنا وصداقتنا؟

كان بافل يتوقع هذا السؤال منذ الدقيقة الأولى من لقائهما، ومع ذلك فقد خجل. والتقى بصراهما. وفهم بافل أنها تعرف.

ـ أظن أنك تعرفين كل شيء يا ريتا. كان ذلك منذ ثلاث سنوات، أما الآن فليس في وسعي إلا أن أدين بافل الصغير على ذلك. وعلى العموم ارتكب بافل في حياته الكثير من الأخطاء الكبيرة والصغيرة، وأحد هذه الأخطاء الخطأ الذي تسألين عنه.

ابتسمت ريتا:

ـ هذه مقدمة ممتازة، ولكنني أنتظر الجواب.

بدأ بافل يتحدث بصوت خافت:

ـ في هذه القضية لم أكن أنا وحدي المذنب، بل و"ذبابة الخيل" أيضاً، رومانتيكيته الثورية. إن الكتب التي كانت تبدع في وصف ثوريين شجعان أقوياء في الروح والإرادة جسورين ومتفانين لقضيتنا في نكران ذات قد تركت في نفسي تأثيراً لا يمحى، ورغبة في الاقتداء بهم، وقد كان شعوري نحوك متأثراً بـ "ذبابة الخيل". إنه يبدو لي الآن مضحكاً، ولكن أكثر إيلاماً.

ـ يعني غيرت رأيك في "ذبابة الخيل"؟

ـ لا، يا ريتا، بشكل أساسي لا! تخليت فقط عن التفجع

غير الضروري لعملية اختبار الإرادة، تلك العملية الموجعة. ولكنني متمسك بالشيء الأساسي في ذبابة الخيل ـ بشجاعته، بجلده الذي لا حد له، بذلك الطراز من الإنسان القادر على تحمل العذابات، من دون أن يظهرها لكل إنسان، أنا أؤيد هذا الطراز من الثوريين، الطراز الذي يعتبر ما هو شخصي عديم الأهمية إذا قيس بما هو عام.

قالت ريتا مبتسمة ساهمة بأفكارها:

ـ يبقى أن أتأسف، يا بافل، على أن هذا الحديث لم يجرِ قبل ثلاث سنوات، حين كان يجب أن يجري.

ـ هل يعني ذلك يا ريتا أنك متأسفة على أنني لم أستطع أن أكون لك في يوم ما أكثر من رفيق؟

ـ لا، يا بافل، كان في وسعك أن تكون أكثر.

ـ ذلك من الممكن إصلاحه.

ـ فات الوقت قليلاً، يا رفيق ذبابة الخيل.

ابتسمت ريتا لنكتتها، وشرحتها:

ـ عندي ابنة صغيرة أبوها صديق عزيز علي. وثلاثتنا متحابون، ومتماسكون لحد الآن.

مست أصابعها يد بافل. وهي حركة قلق عليه، إلا أن ريتا أدركت في الحال أن حركتها لا تجدي شيئاً. نعم، إنه خلال تلك السنوات الثلاث لم يكبر جسمياً فقط. لقد عرفت ريتا أنه متألم الآن ـ نطقت بذلك عيناه. إلا أنه قال عن صدق وبدون مداورة:

ـ ومع ذلك فما يتبقى لدي أكثر بما لا يُقاس مما فقدته قبل لحظات.

ونهض بافل وريتا، حان الوقت لاحتلال مكان أقرب إلى خشبة المسرح. سارا نحو المقاعد التي كان يجلس عليها الوفد الأوكراني. بدأت الأوركسترا تعزف. ورفرفت بيارق كبيرة متوهجة الحمرة كتب عليها بحروف نيرة: "المستقبل لنا". وملأ آلاف الناس القاعة والمقاصير والشرفات. واندمجت هذه الآلاف بكيان واحد جبار لا تفتر طاقته أبداً. وضم المسرح الجبار بين جدرانه زهرة الطليعة الشابة من الأسرة الصناعية العظيمة. آلاف العيون، وفي كل زوج منها يشع كالشرر ما يتوهج فوق الستارة الثقيلة، "المستقبل لنا".

ويستمر تدفق الناس، وما هي إلا دقائق معدودات وتنفرج الستارة المخملية ببطء، ويعلن سكرتير اللجنة المركزية متأثراً مضطرباً أمام مهابة الحفل.

ـ أعلن افتتاح المؤتمر السادس لاتحاد الشبيبة الشيوعي لروسيا.

لم يشعر كورتشاغين قط شعوراً أجلى وأعمق من شعوره الآن بعظمة الثورة وجبروتها، بتلك العزة التي تعجز الكلمات عن تصويرها، وبالفرح الفريد، الذي أعطته له الحياة التي جلبته كمناضل وبانٍ إلى هنا، إلى الاحتفال الظافر للطليعة الشابة للبلشفية.

أخذ المؤتمر من المشتركين فيه كل وقتهم من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل، ولم يلتقِ بافل بريتا مرة أخرى إلا في إحدى الجلسات الأخيرة. فقد رآها في جماعة من الأوكرانيين.

قالت له:

ـ غداً سأغادر بعد اختتام المؤتمر مباشرة. ولا أعرف هل سيتسنى لنا الوقت للتحدث قليلاً عند الوداع. ولهذا أعددت لك اليوم كراستين من يومياتي المتعلقة بالماضي، ورسالة صغيرة، اقرأ الكراستين والرسالة، وأعدها لي في البريد.

وستعرف مما هو مكتوب كل ما لم أحدثك به.

صافحها، وأمعن نظره فيها، وكأنه يريد أن يطبع في ذاكرته ملامح وجهها.

والتقيا في اليوم التالي، كما اتفقا، عند المدخل الرئيسي، وأعطت له ريتا إضبارة ورسالة مختومة. وكان الناس في كل مكان حولهما. ولهذا السبب توادعا في ضبط نفس، سوى أنه رأى في عينيها الغائمتين بعض الشيء حناناً عظيماً وشيئاً من الحزن.

وبعد يوم حملهما قطاران إلى جهتين مختلفتين.

شغل الأوكرانيون عربات عدّة، وكان كورتشاغين مع جماعة كييف. وفي المساء حين رقد الجميع، وأخذ أوكونيف في الرف المجاور يصفر من أنفه أثناء نومه، اقترب بافل من الضوء وفض الرسالة.

"عزيزي بافلوشا!

كان بإمكاني أن أقول لك هذا شفاهاً، ولكن هذه الطريقة أحسن. أود شيئاً واحداً، أن لا يخلف الحديث الذي تبادلناه قبيل افتتاح المؤتمر أثراً قاسياً في حياتك. أنا أعرف أنك قوي النفس جداً، ولهذا فأنا مؤمنة بما قلته لي. أنا لا أنظر إلى الحياة

نظرة شكلية، ومن الممكن في بعض الأحيان إجراء استثناء، ولو هذا نادر حقاً، في العلاقات الشخصية، إذا كانت هذه العلاقات منبعثة من شعور عميق كبير. وأنت تستحق ذلك. ولكنني رفضت الرغبة الأولى في رد الدين لشبابنا. أشعر أن ذلك ما كان ليجلب لنا سروراً كبيراً. لا يجوز أن تكون قاسياً على نفسك هكذا يا بافل. في حياتنا لا يوجد كفاح فقط، بل وفرحة الشعور الجميل أيضاً.

أما عما في حياتك من أشياء أخرى، أي محتواها الأساسي، فلا أحس بقلق عليه. أصافحك بقوة. ريتا".

مزّق بافل الرسالة ساهياً، وحين أخرج يديه من النافذة أحس بالريح تنتزع مزقها من أصابعه.

عندما طلع الصباح كانت الكراستان كلتاها قد قرئتا، وغلفتا في ورقة، وشدتا. في خاركوف نزل من القطار قسم من الأوكرانيين من بينهم أوكونيف، وبانكراتوف، وكورتشاغين. وكان على أوكونيف أن يسافر إلى كييف ليأخذ زوجته تاليا التي تخلفت عند آنا. وكانت لبانكراتوف شؤونه الخاصة، وكان قد انتخب عضواً في اللجنة المركزية لكومسومول أوكرانيا. فقرر كورتشاغين أن يسافر معهما إلى كييف ليزور جاركي وآنا بهذه المناسبة. وقضى وقتاً في بريد المحطة ليرسل الكراستين إلى ريتا، وعندما خرج من البريد إلى القطار لم يجد صديقيه.

أوصله الترام إلى الدار التي كانت تعيش فيها آنا ودوبافا. صعد بافل الدرج إلى الطابق الثاني وطرق باب غرفة آنا إلى اليسار. لم يرد أحد على طرقه. كان الصباح في بكرته، ولم يكن

من الممكن أن تكون آنا قد ذهبت إلى العمل. فكر بافل مع نفسه "من المحتمل أنها نائمة". فتح الباب المجاور قليلاً، وخرج دوبافا إلى الفسحة والنوم لا يزال عالقاً في جفنيه. وجهه رمادي، وتحت عينيه دوائر زرق. فاحت من فمه رائحة بصل حادة، ورائحة خفيفة أخرى. حزر بافل في الحال أنها الرائحة التي تخلفها الخمرة. ومن خلال الباب الموارب رأى بافل على السرير امرأة بدينة، أو بالأحرى ساقها الممتلئة وكتفيها.

لمح دوبافا نظرته، فأغلق الباب بضربة من قدمه.

ـ هل جئت لزيارة الرفيقة بورخارت ؟ ـ سأل دوبافا بصوت متحشرج، ناظراً إلى زاوية ـ لم تعد تعيش هنا، أحقاً أنك لا تعرف ذلك؟

نظر إليه كورتشاغين عبوساً متفحصاً. وسأل:

ـ أنا لا أعرف ذلك. أين انتقلت؟

اغتاظ دوبافا فجأة:

ـ هذا لا يعنيني ـ وتجشأ، وأضاف بحنق مكتوم ـ وهل جئت للتسرية عنها؟ جئت في الوقت المناسب. المكان شاغر الآن، فابذل جهدك. على الأخص أنها لن ترفضك. قالت لي مرات أنها معجبة بك، أو لفظة أخرى تعبر بها النساء. انتهز الفرصة. بينكما وحدة في الروح والجسد.

أحس بافل بتوهج في وجنتيه. قال بهدوء كابحاً جماح نفسه:

ـ إلى أي حد وصلت، يا ميتيا؟ لم أتوقع أن أراك بهذه الوضاعة، لم تكن فتى سيئاً من قبل فلماذا تتسفه؟

اتكأ دوبافا على الجدار. كان يحس بالبرد كما يبدو من وقوفه حافي القدمين على الأرض الإسمنتيه، فارتعش. فتح الباب، وأطلت منه امرأة ناعسة منتفخة الخدين.

- ادخل، يا عجل. لماذا أنت واقف هنا؟ ...

لم يمهلها دوبافا لإكمال ما تريد أن تقول وصفق الباب، وحط ثقله عليه.

- بداية طيبة... - قال بافل - انظر، من تعاشر، وإلى أين سيوصلك هذا؟

ضجر دوبافا من هذا الحديث كما يبدو، فصرخ:

- وتريد أيضاً أن ترشدني مع من أنام! كفاني مواعظ! يمكنك أن تولي من حيث جئت! اذهب وقل أن دوبافا يسكر وينام مع فتاة مبتذلة.

تقدم بافل منه، وقال بانفعال:

- أخرج هذه المرأة يا ميتيا، أريد أن أتحدث معك للمرة الأخيرة...

ادلهم وجه دوبافا . استدار، ودخل الغرفة.

- أوه، حيوان! - همس كورتشاغين مع نفسه وهو يهبط السلم ببطء.

... مر عامان. فصّل الزمن العَذْلُ الأيام والشهور، ولكن الحياة المندفعة الكثيرة الألوان كانت دائماً تملأ هذه الأيام (الرتيبة في مظهرها) بشيء جديد لا يشبه ما سبقه بالأمس. إن الملايين المائة والستين التي تؤلف الشعب العظيم الذي أصبح، بين شعوب العالم، الشعب الأول المالك بين يديه زمام أراضينا

الشاسعة، وثرواته الطبيعية التي لا تُحصى، أن هذه الملايين كانت تحيي، بالعمل البطولي المتواصل، الاقتصاد الوطني الذي خربته الحرب. قويت البلاد، واشتد ساعدها، ولم تعد العيون ترى مداخن لا ترسل دخاناً، مداخن مصانع كانت إلى حين لا حياة فيها، تكرب النفوس بإقفارها.

انقضى هذان العامان في حياة كورتشاغين في حركة سريعة، حتى أنه لم يلحظ كيف انقضيا. لم يكن بافل قادراً على أن يعيش بهدوء، ويستقبل الصباح بتثاؤب كسول وينام في العاشرة تماماً. كان يسابق الحياة، ويحث الآخرين على السباق.

وكان يبخل بالوقت على النوم، وفي أحيان كثيرة تبقى نافذة غرفته مضاءة إلى ساعة متأخرة من الليل، وفيها أناس منكبون على الطاولة يدرسون. خلال العامين درس المجلد الثالث من "رأس المال" وأصبح مفهوماً جهاز الاستغلال الرأسمالي بدقائقه.

عاد رازفاليخين إلى الظهور في المقاطعة التي كان كورتشاغين يعمل فيها. أرسلته لجنة الولاية مقترحة استخدامه سكرتيراً للجنة الكومسومول المنطقية. وكان كورتشاغين خارجاً في سفر، فأرسل المكتب رازفاليخين إلى إحدى المناطق. وحين عاد بافل وعرف ذلك لم يقل شيئاً.

انقضى شهر، وذهب كورتشاغين إلى منطقة رازفاليخين مباغتة. واكتشف بعض الوقائع، وكان من بينها السكر، وتجميع المتزلفين حوله، والتضييق على الكومسومولين الجيدين. وقد نقل كورتشاغين كل ذلك إلى أعضاء المكتب، وعندما اتفقوا

جميعاً على توجيه توبيخ شديد إلى رازفاليخين، قال كورتشاغين فجأة:

ـ اطلب طرده نهائياً ومن دون عودة:

أدهش قوله الجميع، فقد بدا لهم قاسياً جداً، إلا أن كورتشاغين كرر القول:

ـ أطلب طرد الوغد، لقد أُعطيت لهذا الطالب السابق الحقير الفرصة في أن يصبح إنساناً، إلا أنه انحشر بنا ـ وقصَّ عليهم ما حصل في بريزدوف.

صرخ رازفاليخين:

ـ أنا أحتج احتجاجاً شديداً على بيان كورتشاغين. إنها مجرد تسوية حسابات شخصية. بإمكان كل إنسان أن يتقوّل عليَّ الأقاويل. ليبرز كورتشاغين الوثائق والحقائق والمعطيات. بوسعي أنا أيضاً أن أفتري عليه بقيامه بأعمال تهريب.

أيعني هذا وجوب طرده؟ لا، ليقدم لنا وثيقة!

أجاب بافل:

ـ انتظر، وسنبرز وثيقة أيضاً.

خرج رازفاليخين، وبعد نصف ساعة أقنع كورتشاغين أعضاء المكتب باتخاذ قرار: "الفصل باعتباره عنصراً غريباً على الكومسومول".

في الصيف كان الأصدقاء يسافرون في إجازاتهم واحداً وراء الآخر. والذين كانت صحتهم أكثر اعتلالاً كانوا يسافرون إلى البحر. في الصيف كانت الأحلام في الراحة تساور الجميع، وكان كورتشاغين يطلق إخوانه لينالوا راحة ويحصل لهم على

بطاقات الإقامة في المصحات وعلى معونة. كانوا يسافرون شاحبي الوجوه منهكين، ولكن الفرح يملأ جوانحهم. فيقع عملهم على كتفيه، يقوم به مثل حصان وديع يجر عربة في مرتفع. ثم يعودون ملوحي البشرة مستبشرين مفعمين حيوية ليعقبهم آخرون. ولم يخل شهر من شهور الصيف من دون غياب أحد، بينما كانت الحياة لا تتوقف عن سيرها، وكان لا يمكن تصور يوم لا يكون فيه بافل في غرفة عمله.

وهكذا انقضى الصيف.

وكان بافل لا يحب الخريف والشتاء، فقد كانا يجلبان له عذابات جسمية كثيرة .

وقد انتظر بافل هذا الصيف بلهفة خاصة. وكان يشق عليه كثيراً أن يعترف حتى لنفسه أن قواه تتهافت من سنة إلى أخرى. وكان أمامه طريقان: إما الاعتراف بعدم قدرته على تحمل مصاعب العمل الجاهد، والإقرار بأنه عاجز أو البقاء في منصبه ما دام ذلك ممكناً. وقد اختار الطريق الثاني.

ذات مرة في اجتماع مكتب لجنة المقاطعة الحزبية جلس إلى جانبه الدكتور العجوز بارتيليك الذي مارس العمل السري، والذي يترأس دائرة الصحة العامة للمقاطعة.

ـ أنت لا تبدو في صحة جيدة يا كورتشاغين. كيف صحتك؟ هل كنت في اللجنة الطبية؟ لم تكن؟ بالضبط، لا أتذكرك، يجب أن تفحص يا عزيزي. تعال في عصر الخميس.

لم يذهب بافل إلى اللجنة الطبية لانشغاله، ولكن بارتيليك لم ينسَ أمره. قاده ذات مرة إليه. وبعد فحص طبي دقيق (اشترك

بارتيليك نفسه فيه كطبيب مختص بالأعصاب) كتب في التقرير:

"ترى اللجنة الطبية من الضروري أن يُعطى إجازة فورية مع المعالجة الطويلة في القرم، ومعالجة جدية لاحقة، وإلا فسيكون من المستحيل تفادي العواقب الوخيمة".

وأعقب ذلك قائمة طويلة بأسماء أمراض مكتوبة باللغة اللاتينية لم يفهم كورتشاغين منها سوى أن المصيبة الرئيسة ليست في ساقيه، بل في العطب الشديد الذي لحق بجهازه العصبي المركزي.

طرح بارتيليك قرار اللجنة أمام المكتب الحزبي ولم يعترض أحد على إعفاء كورتشاغين من العمل فوراً، إلا أن كورتشاغين نفسه اقترح الانتظار حتى عودة سبيتنيف رئيس القسم التنظيمي من إجازته. فقد كان كورتشاغين يخشى اختلال عمل اللجنة. ووافق المكتب على الرغم من معارضة بارتيليك.

بقيت ثلاثة أسابيع على موعد أول إجازة لكورتشاغين في حياته كلها. وكانت بطاقة الإقامة في مصحة في يفباتوريا جاهزة في مكتبه.

وانكب كورتشاغين على العمل في تلك الأيام، وعقد جلسة عامة لكومسومول المقاطعة، وسيَّر الأمور غير باخل بجهد ليسافر مطمئن النفس.

وفي عشية السفر للراحة، ولقاء البحر الذي لم يره في حياته قط، حدث شيء كريه لا يصدق، ولم يتوقعه بافل.

ذهب بافل إلى غرفة قسم الدعاية في الحزب بعد نهاية عمله، وجلس على إفريز النافذة المفتوحة وراء دولاب الكتب

منتظراً بدء اجتماع قسم الدعاية. عندما دخل بافل الغرفة لم يكن فيها أحد، وبعد قليل جاء أشخاص عدّة ولم يكن بافل يراهم من موضعه وراء الدولاب، ولكنه عرف من بينهم صوت فايلو رئيس القسم الاقتصادي للمقاطعة، الطويل الجميل ذو الوجاهة العسكرية، وكان بافل قد سمع الناس مرات يتحدثون عن ولع فايلو بالخمرة، والركض وراء كل فتاة مليحة.

كان فايلو في وقت ما من الأنصار فكان لا يترك فرصة سانحة من دون أن يتحدث ضاحكاً عن تقطيعه لرؤوس رجال ماخنو، عشرة رؤوس في اليوم.

وكان كورتشاغين لا يستسيغه. ذات مرة قدمت إليه كومسومولية وحكت له باكية أن فايلو وعدها في الزواج، ولكنه بعد أن عاش معها أسبوعاً كف حتى عن التسليم عليها. وحين عرضت القضية على لجنة الرقابة تملص فايلو، وكانت الفتاة لا تملك أدلة، إلا أن بافل صدّقها. أصغى كورتشاغين إلى كلام الداخلين إلى الغرفة، وكانوا لا يشكون في وجوده.

ـ كيف تسير الأمور معك يا فايلو؟ ما الجديد من عجائبك؟

سأل ذلك غريبوف خليل فايلو وعلى غراره. وكان غريبوف يعتبر رجل دعاية، على الرغم من أنه كان جاهلاً، ضيق الفكر، كثير البلادة، إلا أنه كان يتباهى بلقب رجل دعاية، ويذكر الناس بذلك في مناسبة أو غير مناسبة.

ـ يمكنك أن تزف لي التهاني: أمس طوَّعت كوروتايفا، وأنت تقول لن تنال منها شيئاً. لا، يا صاح، عندما أنوي على

امرأة كن على ثقة ـ وأضاف فايلو عبارة فاحشة.

أحس كورتشاغين بقشعريرة عصبية ـ وهي علامة على اهتياج حاد. كوروتايفا رئيسة القسم النسائي. وقد وصلت إلى هنا في الوقت نفسه الذي وصل فيه، وقد تصادق بافل أثناء العمل المشترك مع هذه الفتاة الحزبية العذبة الحدوب المهتمة بكل امرأة، وبالذين يأتون إليها ينشدون نصرة أو نصيحة. وكانت كوروتايفا تتمتع باحترام العاملين في اللجنة. وهي ليست متزوجة. وكان فايلو يقصدها في حديثه من دون ريب.

ـ ربما تكذب يا فايلو؟ إنها لا تبدو على هذه الشاكلة؟....

ـ أنا أكذب؟ ماذا تعتبرني إذاً؟.. طوعت أقوى منها. فقط أن تكون لك القدرة على ذلك. كل امرأة تتطلب معالجة خاصة. واحدة تستسلم في اليوم الثاني، ولكن هذه رخيصة كما يجب الاعتراف. بينما تضطر أن تركض وراء أخرى شهراً. والشيء الرئيسي يجب أن تعرف النفسية. لكل حال علاجها. هذا يا أخ، علم كامل، ولكنني أستاذ في هذا. هوه هوه!...

وغص فايلو باعتداده. حثته ثلة المستمعين على أن يقص الحكاية. كانت الثلة تتعجل سماع التفاصيل.

نهض كورتشاغين، وضم جمعي يديه، شاعراً بقلبه يخفق حنقاً.

ـ الاستيلاء على كوروتايفا لا يعتمد على عون الله فقط. وصيدها يقرب من المستحيل، ولكنني لم أرد أن أتركها لا سيما وقد تراهنت مع غريبوف على دزينة من زجاجات النبيذ. فبدأت لعبتي. ذهبت إليها مرة ومرتين فوجدت منها صدوداً. كانت تدور

عني أراجيف، وربما كانت على علم بها...

وباختصار، فشل الهجوم الجانبي. عند ذاك قمت بحركة التفاف... ها ها! ... قصصت عليها كيف حاربت، وجندلت العديد من الناس، وطوفت في الدنيا، ووقعت على رأسي مصائب كثيرة ولكنني لم أظفر بامرأة صالحة لي، وأنا أعيش كالكلب الوحيد محروماً من كل حنان ودفء ومودة.. ونسجت على هذا المنوال أحاديث وأحاديث... وبكلمة واحدة ضربت على موطن الضعف فيها، وتعبت معها كثيراً حتى فكرت ذات مرة بأن أترك هذه الكوميديا، ولتذهب إلى الشيطان. ولكن القضية قضية مبدأ، وفي سبيل المبدأ لم أتركها... وأخيراً حين نجحت وجدت نفسي أمام المعضلة... على حساب أعصابي... وقعت على آنسة عذراء، بدلاً من امرأة ها، ها! ... سأموت!..

وتابع فايلو قصته الكريهة.

لم يذكر كورتشاغين جيداً كيف وجد نفسه قرب فايلو. صرخ به:

ـ خنزير!

ـ أنا الخنزير أم أنت الذي تتسمع أحاديث الآخرين؟

والظاهر أن بافل قال شيئاً آخر لأن فايلو أمسكه من صدره.

ـ هكذا تهينني؟

وضرب بافل بقبضته. وكان ثملاً.

أمسك بافل مقعداً من خشب البلوط، وبضربة واحدة أوقع فايلو أرضاً. لم يكن في جيب كورتشاغين مسدس، وهذا وحده الذي أنقذ حياة فايلو.

ولكن الشيء الذي لا يصدق حدث على أي حال: في اليوم الذي حدد لسفر بافل إلى القرم كان بافل أمام محكمة حزبية.

اجتمع أعضاء المنظمة الحزبية جميعهم في مسرح البلدة فإن الحادث الذي وقع في قسم الدعاية قد أثار الجميع وتحولت المحاكمة إلى موضع نقاش على القضايا المعيشية. لقد أضحت إشارة لإثارة قضايا السلوك والعلاقات المتبادلة بين الأفراد، والخلق الحزبي، حتى غطت هذه القضايا على القضية الأصلية المطروحة للمحاكمة. تصرف فايلو في المحكمة تصرفاً استفزازياً. ابتسم بصلافة، وقال إنه سيطرح قضيته أمام محكمة شعبية، وإن كورتشاغين سيحكم بالأعمال الإلزامية عقاباً على شج رأسه. ورفض الإجابة عن الأسئلة قطعاً.

- هل تريدون أن تحكوا ألسنتكم على حسابي؟ اعذروني. في وسعكم أن تلصقوا بي ما تشاؤون. أما كون النسوان يتهاوشن عليَّ هنا فذلك لأنني لا أعير لهن التفاتاً. والقضية كلها لا تساوي قشر بيضة. لو حدث هذا في عام ١٩١٨ لصفيت حسابي مع هذا المعتوه كورتشاغين بطريقتي الخاصة. أما الآن فيمكن الاستغناء عني. - وخرج.

وعندما اقترح رئيس المحكمة على كورتشاغين أن يقص ما حدث، بدأ بافل حديثه بهدوء، ولكنه كان يضبط نفسه بصعوبة.

- كل ما يجري الحديث عنه هنا حدث لأنني لم أضبط نفسي. مضى منذ زمان ذلك العهد الذي كنت أستعمل فيه قبضتي أكثر مما أستعمل رأسي. حصل حادث، وقبل أن أعي

الأمر ضربت فايلو على يافوخه. هذا الحادث من نمط حوادث الأنصار، هو الحادث الوحيد الذي أقوم به خلال السنوات القليلة الماضية، وأنا أستهجنه، على الرغم من أن الضربة كانت عن إنصاف من حيث الجوهر. إن فايلو ظاهرة منفرة في حياتنا الشيوعية اليومية. وأنا لا أستطيع أن أفهم ولن أقبل أبداً بأن شيوعياً ثورياً يمكن أن يكون حيواناً قذراً ونذلاً في الوقت ذاته. إن هذا الحادث جعلنا نتكلم عن عيشنا، وهذا الشيء الإيجابي الوحيد في هذه القضية كلها. صوتت الغالبية الساحقة من أعضاء المنظمة الحزبية على طرد فايلو من الحزب، وصدر على غريبوف توبيخ شديد مع الإنذار على شهادة الزور.

واعترف الآخرون بأنهم شاركوا في الحديث. فوجه لهم اللوم.

تحدث بارتيليك عن حالة أعصاب بافل. واحتج المجتمعون بشدة حين اقترح المحقق الحزبي توجيه التوبيخ لبافل. وسحب المحقق اقتراحه. وبرئت ساحة بافل.

... وبعد أيام عدّة انطلق القطار بكورتشاغين إلى خاركوف. ووافقت لجنة المقاطعة، بناء على طلبه الملح، على إعفائه عن العمل، وترك أمره للجنة المركزية لكومسومول أوكرانيا، وأعطيت له شهادة عمل جيدة، وسافر. كان أكيم أحد سكرتيريّ اللجنة المركزية. وقد زاره بافل وقص عليه كل شيء.

قرأ أكيم في الشهادة بعد عبارة "متفانٍ للحزب كلياً" هذه الكلمات: "يملك ضبطاً حزبياً، إلا في حالات نادرة تماماً، يتأثر فيها ويفقد توازنه. والسبب في ذلك يعود إلى العطب

الشديد في جهازه العصبي".

- ومع ذلك، فقد سجلوا عليك هذه الحقيقة في وثيقة جيدة. لا تحزن، تحدث مثل هذه الأشياء حتى مع أناس أقوياء. سافر إلى الجنوب، واجمع قوة. وعندما تعود سنتحدث أين ستشتغل.

وصافح أكيم يد بافل بحرارة.

مصحة اللجنة المركزية تسمى "كومانار" حديقة فيها مبانٍ تتسلق عليها دوالي الكروم. وأحواض زهور، ونافورة يتلألأ ماؤها، والمصطافون في ثياب بيض، ولباس سباحة، وتسجل طبيبة شابة الاسم كاملاً. ويجد بافل نفسه في غرفة رحيبة، فراش ناصع البياض، ونظافة، وسكون لا يعكر صفوه شيء. غيَّر كورتشاغين ملابسه، وأنعش نفسه بحمام لطيف، وسعى إلى البحر.

على امتداد بصره بحر شاسع ساكن قاتم الزرقة كالمرمر المصقول. وهناك في غبش الأفق البعيد تختفي حدوده. والشمس المذابة تنعكس على صفحته بألق متوهج. وفي البعيد خلال الضباب الصباحي تتراءى معالم سلسلة جبال جبارة. ملأ بافل صدره بنسمة البحر الطرية المنعشة، وعلق بصره بزرقة البحر العظيمة الساكنة.

ارتمت موجة كسول على قدميه رقيقة، ولعقت رمل الساحل الذهبي.

الفصل السابع

تجاور مصحة اللجنة المركزية حديقة المستوصف المركزي الكبيرة التي كان نزلاء المصحة يمرون بها لدى عودتهم من البحر إلى المصحة. وكان كورتشاغين يحب الاستراحة هنا تحت ظل شجرة دُلب كثيفة عند حائط عالٍ من الجبس الرمادي. كان في وسع كورتشاغين أن يراقب من هذا الموقع الذي يندر أن يطل عليه أحد، حركة الناس النشيطة في الطرقات المعرشة ومماشي الحديقة، ويستمع في الأماسي إلى الموسيقى بعيداً عن الزحام المثير الذي يحدثه مصيف كبير.

واليوم مضى كورتشاغين إلى هناك. ووضع فوط الاستحمام وكتاب فورمانوف "التمرد" الذي يتم قراءته على كرسي استلقاء مضفور، واستلقى هو على كرسي مجاور، وهوَّم متهافتاً من الاستحمام في البحر، ومن الشمس. لم تستطع الأيام الأولى من إقامته في المصحة أن تزيل عنه حالة التوتر العصبي، ولم تبارحه أوجاع الرأس. لا يزال الأطباء يتدارسون علته المعقدة النادرة. وقد أضجرته وأعيته فحوصهم الكثيرة. وكانت طبيبته ذات الاسم الغريب "ايورساليمتشيك"، والشيوعية اللطيفة تجد صعوبة في العثور على مريضها، واستمالته ليذهب معها إلى هذا الأخصائي

أو ذاك. فكان بافل يقول:

ـ أقسم لك أنني تعبت من هذه العملية كلها.

ـ في كل يوم يجب أن أكرر الكلام نفسه خمس مرات. هل كانت جدتك مصابة بالجنون، هل كان جد جدك مصاباً بالروماتيزم؟ وكيف لي أن أعرف بأي مرض أصيب! لم تقع عيناي عليه قط. ثم أن كل واحد يحاول أن يجعلني أعترف بأنني كنت مريضاً بالسيلان، وبمرض آخر أسوأ، أعترف لك أن ذلك يغريني بأن أضرب أي واحد منهم على صلعته.

أعطوني فرصة للاستراحة! أما إذا ظلوا يتدارسونني طوال الخمسة والأربعين يوماً فسأصير خطراً على المجتمع.

وكانت ايورساليمتشيك تضحك، وترد بنكتة، ولكن ما هي إلا بضع دقائق حتى تكون ممسكة بيده، محدثة إياه بشيء شائق، وهما في الطريق إلى الجراح.

واليوم لم يكن يتوقع فحصاً. وقد بقيت أمامه ساعة حتى موعد الغداء. من خلال تهويمته التقط سمعه وقع خطوات. لم يفتح عينيه مفكراً مع نفسه "سيظن أنني نائم فينصرف"، أمل باطل. صر كرسي الاستلقاء حين جلس عليه شخص. عرف بافل من رائحة عطر خفيفة أن الجالس بالقرب منه امرأة. فتح عينيه. وكان أول ما وقع عليه بصره فستاناً أبيض يبهر العين، وقدمين ملوحتين تنتعلان خفين مراكشيين، ثم رأساً حُلق شعره على طريقة الغلمان، وعينين واسعتين، وصفاً من الأسنان الحادة كأسنان الفأر، كانت تبتسم مرتبكة.

ـ المعذرة، يبدو أنني أضايقك؟

صمت كورتشاغين، ولم يكن ذلك لائقاً تماماً، ولكنه لا يزال يأمل أن تنصرف جارته.

ـ أهذا كتابك؟

وتصفحت "التمرد".

ـ نعم، كتابي.

دقيقة صمت.

ـ قل لي، يا رفيق، هل أنت من مصحة اللجنة المركزية؟

تحرك بافل بنفاد صبر. "أي ريح ألقت بها؟ أهذه راحة! الآن من المحتمل أن تسأل بأي شيء مريض. يجب أن أذهب".

قال لها بدون مجاملة:

ـ لا.

ـ ولكن يخيل إليّ أنني رأيتك هناك.

كان بافل قد نهض حين سأل من خلفه صوت نسائي عميق:

ـ لماذا أنت هنا، يا دورا؟

جلست على حافة الكرسي امرأة شقراء ممتلئة ملوحة البشرة في ثوب مصحة للسباحة. ورمقت كورتشاغين بنظرة خاطفة.

ـ رأيتك في مكان ما، يا رفيق. ألست تعمل في خاركوف؟

ـ نعم، في خاركوف.

وعزم كورتشاغين على إنهاء هذه الأحاديث المطوَّلة.

ـ في أي عمل؟

ـ في قسم جمع الزبالة! ـ وشعر برجفة لا إرادية من ضحكتهما.

ـ لا يجوز القول إنك كنت مجاملاً جداً، يا رفيق.

وعلى هذا النحو بدأت صداقتهما. وفي ما بعد كثيراً ما كانت دورا رودكينا عضو مكتب اللجنة الحزبية لمدينة خاركوف تتذكر بداية تعارفهما المضحكة.

ذات مرة، جاء كورتشاغين إلى حفلة من حفلات بعد الغداء والتقى فجأة بجاركي في حديقة مصحة "تالاس".

ورقصة "الفوكستروت" هي التي جمعتهما، على الرغم من ما في هذه الحقيقة من غرابة.

بعد أن غنت مغنية سمينة أغنية "احترق الليل باللذة الشهية" بإيماء عارم، قفز إلى خشبة المسرح اثنان: رجل نصف عار يرتدي قبعة حمراء عالية، ويرقش فخذيه، ببعض القطع اللامعة الملونة، بينما يكسو جزأه الأعلى بقميص أبيض يبهر العين، وربطة عنق. فهو، باختصار، تقليد سيئ لمتوحش، وامرأة مليحة تضع على جسمها كمية كبيرة من القماش. وأخذ هذان يجولان على المسرح برقصة "الفوكستروت" المترنحة وسط دوي الإعجاب من جمهور مؤلف من أصحاب الحوانيت ذوي الرقاب الثيرانية الواقفين وراء مقاعد ومصاطب مرضى المصحة. تلوّت المرأة والرجل الممتلئ شبعاً ذو القبعة الرعناء في أوضاع خليعة وأحدهما يلتصق بالآخر. سمع بافل نخير جثة بدينة من ورائه. استدار لينصرف حين نهض شخص من الصف الأمامي، عند خشبة المسرح تماماً، وصرخ بشراسة:

ـ كفى فُسقاً! اللعنة!

وعرف بافل أنه جاركي.

أوقف عازف البيانو العزف، وأرسل الكمان أنته الأخيرة، وتوقف.

وكف الراقصان على المسرح عن التلوي. وأخذ الناس الواقفون وراء المقاعد يهشون على الصارخ حانقين.

ـ حماقة أن تقطع الراقصة!

ـ أوروبا كلها ترقص!

ـ من العيب!

إلا أن سيريوجا جبانوف سكرتير منظمة الكومسومول لولاية تشيريبوفيتس، وأحد نزلاء مصحة "كومونار" وضع أربعة أصابع في فمه وصفر.

وحذا حذوه آخرون، ونزل الاثنان من المسرح مسرعين وكأن ريحاً ألقتهما عنه. وأعلن عريف الحفلة المنهار الشبيه بخادم خليع أن الفرقة سترحل.

ـ إلى جهنم وبئس المصير! ـ رد عليه شاب بروب المصحة وسط قهقهة الجميع.

وجد بافل جاركي في الصفوف الأولى. وبعد ذلك أمضى الاثنان وقتاً طويلاً جالسين في غرفة بافل. كان جاركي يعمل في قسم الدعاية في إحدى لجان الحزب. قال جاركي:

ـ لعلك لا تعرف أن لي زوجة! وقريباً سيكون لي ولد أو بنت.

ـ أهوه، ومَنْ زوجتك؟ ـ قال كورتشاغين مندهشاً.

أخرج جاركي من جيب صدري تصويراً، وعرضه لبافل.

ـ هل تعرفها؟

كان في التصوير جاركي وآنا بورخارت.

سأل بافل بدهشة أعظم:

ـ وأين دوبافا؟

ـ في موسكو، ترك الجامعة الشيوعية بعد طرده من الحزب، والآن يدرس في معهد باومن التكنيكي. وهناك إشاعة بأنه قد أعيد. ذلك لا يجدي شيئاً إنه إنسان فاسد... أتعرف أين ايغنات بانكراتوف؟ إنه الآن مساعد مدير مصنع لبناء السفن. أما عن الآخرين فلا أعرف إلا القليل. انقطعت صلة بعضنا ببعض. فنحن نعمل في أركان مختلفة من البلاد ولكن ما ألطف أن نلتقي ونتذكر ما مضى.

دخلت دورا إلى الغرفة ومعها بضعة أشخاص. وأغلق الباب رفيق طويل، نظرت دورا إلى الوسام على صدر جاركي، وسألت بافل:

ـ هل رفيقك عضو في الحزب؟ أين يعمل؟ لم يدرك بافل المغزى من سؤالها فتحدث عن جاركي باقتضاب.

وقالت دورا:

ـ إذاً، يمكن أن يبقى، هؤلاء الرفاق جاءوا من موسكو من توهم. وسيحدثوننا عن أخبار الحزب الأخيرة، قررنا أن نعقد عندك اجتماعاً مغلقاً من نوع ما.

كان كل المجتمعين في الغرفة من قدامى البلاشفة ما عدا بافل وجاركي. تحدث بارتاشيف عضو لجنة المراقبة بموسكو عن المعارضة الجديدة التي يترأسها تروتسكي وزينوفيف وكامينيف. وختم بارتاشيف حديثه قائلاً:

ـ إن وجودنا في أماكننا في هذا الوقت الدقيق ضروري. وسأرحل أنا غداً.

بعد ثلاثة أيام عقب الاجتماع في غرفة بافل خلت المصحة قبل الأوان. وسافر بافل أيضاً من دون أن يتم المدة المقررة.

لم يؤخروا كورتشاغين كثيراً في لجنة الكومسومول المركزية، عُيِّن سكرتيراً للمنظمة الكومسومولية في إحدى الدوائر الصناعية، وبعد أسبوع كان نشطاء المنظمة في المدينة قد استمعوا إلى خطابه الأول.

في قلب الخريف بينما كان كورتشاغين مسافراً مع رفيقين آخرين يعملان في الحزب إلى منطقة من المناطق البعيدة عن المدينة، انحرفت السيارة التي كانت تقلهم ووقعت في ساقية على جانب الطريق وانقلبت.

وأصيب الجميع، وتبين أن ركبة كورتشاغين اليمنى قد سحقت. وبعد أيام عدّة نقل إلى المعهد الجراحي في خاركوف حيث قررت اللجنة الطبية بعد فحص الركبة المصابة وصور الأشعة إجراء عملية فورية.

ووافق كورتشاغين.

ـ في صباح الغد إذاً ـ قال في الختام بروفيسور جسيم كان يترأس اللجنة الطبية، ونهض منصرفاً وتبعه الآخرون.

ردهة صغيرة مضيئة لشخص واحد. ونظافة لا شائبة فيها، والرائحة الخاصة التي لم يشمها منذ زمان، رائحة مستشفى. وأجال كورتشاغين بصره. منضدة صغيرة إلى جانب السرير عليها مفرش أبيض، ومقعد أبيض، وهذا كل شيء.

جلبت الممرضة طعام العشاء.

رفضه بافل. وقعد نصف قعود على السرير، وراح يكتب رسائل. كان الألم في ركبته يعيقه عن التفكير وينفره من الطعام.

عندما فرغ من كتابة الرسالة الرابعة فتح باب الردهة بهدوء، ورأى بافل امرأة شابة بمريول أبيض وطاقية بيضاء، تقبل عليه وتقف عند سريره.

لمح في غبش المساء حاجبيها المخططين بدقة، وعينيها الكبيرتين اللتين بدتا سوداوين. كانت تمسك محفظة في يد، وورقة وقلماً في اليد الأخرى. قالت:

ـ أنا طبيبتك المعالجة، واليوم نوبتي في الخفارة، والآن سأشرع في استجوابك، عليك أن تقول كل شيء كرهاً أو طوعاً.

وابتسمت المرأة ببشاشة، وجعلت ابتسامتها "التحقيق" أقل مضايقة.

قضى بافل ساعة كاملة يحدثها ليس عن نفسه فقط، بل وعن أجداد أجداده.

في غرفة العمليات بضعة أشخاص ملثمين بكمامات من الشاش.

لمعان النيكل يشع من أدوات الجراحة، وطاولة ضيقة تحتها طست كبير. عندما استلقى كورتشاغين على الطاولة كان البروفيسور الجراح قد فرغ من غسل يديه. وفي الخلف كان يجري استعداد سريع للعملية. أدار كورتشاغين رأسه. رأى الممرضة تصف الكماشات والمباضع. كانت طبيبته المعالجة باجانوفا تفك الضمادة من ساقه. فقالت له:

ـ لا تنظر إلى الخلف، يا رفيق كورتشاغين، فذلك لا يؤثر في الأعصاب تأثيراً طيباً.

وابتسم كورتشاغين ابتسامة ساخرة.

ـ عن أعصاب مَنْ تتكلمين، يا دكتورة؟

بعد بضع دقائق غطى وجهه قناع سميك وقال البروفيسور:

ـ لا تقلق، سنعطيك الآن كلوروفورم. استنشق عميقاً من أنفك، واحسب...

رد الصوت المكتوم من تحت القناع بهدوء:

ـ حسناً، اعتذر مسبقاً عما يمكن أن يبدر مني من تعابير غير قابلة للنشر.

لم يتمالك البروفيسور نفسه من الابتسام.

القطرات الأولى من الكلوروفورم. رائحة خانقة كريهة.

تنفس كورتشاغين نفساً عميقاً، وأخذ يحسب مجتهداً أن ينطق بالأعداد بوضوح وهكذا بدأ الفصل الأول من مأساته.

شق أرتيم مظروف الرسالة إلى نصفين، وفتح الرسالة يعتوره قلق غامض. والتهمت عيناه السطور الأولى، وراح يقرأ بسرعة، وبلا انقطاع:

أرتيم! من النادر جداً أن نتراسل. مرة وأحياناً مرتين في العام! ولكن هل المهم عدد الرسائل؟ أنت تكتب لي أنك رحلت من شيبيتوفكا مع عائلتك إلى مستودع القطارات في كازاتين لتجتث جذورك. أنا أعرف أن هذه الجذور هي نفسية ستيشا وأقاربها، النفسية المتخلفة، نفسية الملاكين الصغار، ومن الصعب تغيير نفسية أناس على نمط ستيشا. وأخشى أنك أيضاً لا

توفق في ذلك. أنت تقول "عسير أن أتعلم وأنا على عتبة الشيخوخة" ولكنك تسير سيراً حسناً في ذلك. لست على حق في رفضك العنيد لترك المصنع والعمل كرئيس لسوفييت البلدة. ألم تحارب من أجل السلطة السوفييتية؟ تقبله إذاً، تسلم سوفييت البلدة، وابدأ العمل فيه.

والآن أكتب لك عن نفسي، وقع لي شيء مكروه. وأخذت أتردد على المستشفيات غالباً، وقد بضعوني مرتين، ونزفت دماً غير قليل، وفقدت الكثير من قواي، وحتى الآن لم يجبني أحد متى سينتهي هذا كله؟

انقطعت عن العمل، ووجدت لنفسي مهنة جديدة.

ـ مهنة "مريض" . وأنا أتحمل أكداساً من الآلام، وقد أسفر هذا كله عن تيبس ركبتي اليمنى، وبعض آثار الشقوق على جسدي، وفي النهاية، الاكتشاف الطبي الأخير: قبل سبع سنوات أصيب بضربة في عمودي الفقري، والآن يقولون لي إن هذه الضربة قد تكلف غالياً. أنا مستعد لتحمل كل شيء فقط لو يعيدني ذلك إلى العمل.

ليس في حياتي شيء أرهب من فقداني القدرة على العمل. وحتى التفكير بذلك لا أستطيعه. ولهذا السبب أقبل بكل شيء يعرضونه عليّ. ولكن لا أظفر بتحسن. والغيوم تتلبد أكثر فأكثر. بعد العملية الأولى عدت إلى العمل حالما بدأت أسير، ولكن سرعان ما عادوا بي. والآن حصلت على تذكرة إقامة في مصحة "ماييناك" في يفباتوريا وغداً سأسافر. لا تغتم. يا أرتيم، فمن الصعب أن أهلك. عندي من الحياة ما يكفي ثلاثة تماماً،

سنعمل مرة أخرى يا أخي. حافظ على صحتك، ولا تجهدها أكثر من طاقتها، فإن إصلاحها سيكلف الحزب كثيراً.

والأعوام تعطينا التجربة، والدراسة معرفة، وكل ذلك ليس من أجل التردد على المستشفيات أصافحك.

بافل كورتشاغين.

في الوقت الذي كان أرتيم يقرأ فيه رسالة أخيه قاطباً حاجبيه الكثيفين كان بافل يودع باجانوف في المستشفى، سألته وهي تمد له يدها:

ـ هل ستسافر إلى القرم غداً؟ أين ستقضي هذا اليوم؟

أجاب كورتشاغين:

ـ بعد قليل ستأتي الرفيقة رودكينا. وسأقضي النهار والليل مع عائلتها، وفي الصباح ستوصلني إلى المحطة.

وكانت باجانوف تعرف دورا التي كثيراً ما كانت تزور بافل.

ـ هل تتذكر، يا رفيق كورتشاغين، اتفاقنا على أن تلتقي بأبي قبيل سفرك؟ لقد حدثته بالتفصيل عن حالتك الصحية. وأود أن يفحصك. يمكن أن يتم ذلك في مساء هذا اليوم.

ووافق كورتشاغين على الفور.

في ذلك المساء قادت باجانوفا بافل إلى مكتب أبيها الواسع.

فحص الجراح المشهور كورتشاغين بحضور ابنته فحصاً دقيقاً. وكانت باجانوفا قد جلبت من العيادة صور الأشعة، وجميع نتائج الفحوص. لم يغب عن بصر بافل الشحوب المفاجئ الذي علا وجه الطبيبة بعد ملاحظة طويلة قالها أبوها

باللغة اللاتينية. نظر بافل إلى رأس البروفيسور الأصلع الكبير، ،حاول أن يقرأ شيئاً في عينيه الثاقبتين. ولكن لم يكن باجانوف بالرجل الذي تقرأ أفكاره.

عندما ارتدى بافل ملابسه، استأذن باجانوف الانصراف بأدب لحضور اجتماع، وعهد إلى ابنته أن تخبر بافل بنتيجة الفحص.

في غرفة باجانوفا المرتبة ترتيباً ينم عن ذوق رفيع استلقى بافل على الأريكة منتظراً أن تتكلم باجانوفا، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ، وماذا تقول، فقد كان ذلك صعباً عليها. لقد أخبرها أبوها أن الطب لا يملك حتى الآن الوسائل القادرة على إيقاف عملية الإلتهاب المهلكة الجارية الآن في بدن كورتشاغين. وقد اعترض على التدخلات الجراحية وقال: "في انتظار هذا الشاب فاجعة فقدان الحركة، ونحن عاجزون عن تفاديها.".

إنها كطبيبة وصديقة له لم تجد من الممكن إخباره بكل شيء، فنقلت إليه جزءاً صغيراً من الحقيقة في عبارات حذرة.

ـ أنا واثقة، يا رفيق كورتشاغين، إن الطين المعدني في يفباتوريا سيحدث تحولاً في صحتك، وستستطيع العودة إلى العمل في الخريف.

قالت ذلك وقد نسيت أن ع ينين حادتين كانتا تراقبانها طوال الوقت.

ـ أنا أرى من كلماتك، أو بالأحرى من كل ما لا تقولينه، خطورة حالتي الصحية. تذكري أنني طلبت إليك أن تتحدثي معي

بصراحة دائماً. لا حاجة إلى إخفاء أي شيء عني. لن أصاب بالإغماء أو أقطع حلقومي. ـ قال بافل. وتملصت باجانوفا بنكتة.

وهكذا لم يعرف بافل في ذلك المساء الحقيقة عن مستقبله. وعند الوداع قالت باجانوفا بخفوت:

ـ لا تنسَ صداقتي لك يا رفيق كورتشاغين ، فإذا احتجت إلى معونتي أو نصيحتي فاكتب لي، سأعمل كل ما في مقدوري.

ومن النافذة راقبت قامة بافل الطويلة في سترته الجلدية وهو يتحرك ملقياً بثقله على العكازة من المخرج إلى العربة.

يفباتوريا مرة أخرى. قيظ الجنوب. وأناس يتصايحون، سمر الأجساد من تلويح الشمس في طاقيات مذهبة، وتنقل السيارة المسافرين. وبعد عشر دقائق توصلهم إلى بناية مصحة "ماييناك" ذات الطابقين المبنية من الكلس الرمادي.

ويوزع طبيب الخفر القادمين على الغرف.

ـ من أين صدرت بطاقتك، يا رفيق؟ ـ سأل الطبيب كورتشاغين وقد توقف مقابل الغرفة رقم ١١.

ـ من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوكراني.

ـ إذاً سننزلك هنا، مع الرفيق ابنر. إنه ألماني وقد طلب أن يشاركه في الغرفة روسي. ـ قال الطبيب ذلك، وطرق الباب. وصدر جواب من داخل الغرفة باللغة الروسية المهشمة:

ـ دخول.

وضع كورتشاغين حقيبته في الغرفة، والتفت نحو رجل أشقر ذي عينين زرقاوين جميلتين حيتين كان راقداً على السرير. واستقبله الألماني بابتسامة حلوة.

ـ غود مورغن. غينوسه. ـ وصحح كلامه:

أردت أن أقول سلام ـ واعتدل، ومد لبافل يداً شاحبة ذات أصابع طويلة.

بعد دقائق قليلة كان بافل جالساً عند سريره، وقد جرى بينهما حديث حي بتلك اللغة "العالمية" التي تلعب فيها الكلمات دوراً ثانوياً، والعبارة غير المفهومة تفهم بالحدس والإيماء والتصور. وقد عرف بافل أن ابنر عامل ألماني.

في انتفاضة هامبورغ عام ١٩٢٣ أصيب ابنر برصاصة في فخذه، والآن انفتح الجرح القديم، وطرحه على الفراش. كان ابنر على الرغم من أوجاعه بشوشاً، وبذلك كسب احترام بافل في الحال.

لم يحلم بافل بجار أحسن منه. إن هذا الرجل لن يتحدث عن أمراضه من الصباح حتى المساء، ولن يشتكي.

بالعكس، سينسى المرء مصائبه وهو في صحبته. وفكر بافل "من المؤسف فقط أنني لا أعرف الألمانية".

في ركن حديقة المصحة بضعة كراسي للاستلقاء، ومنضدة من البامبو، وعربتان لتنقل المرضى. في هذا الركن كان الخمسة الذين أطلق عليهم المرضى اسم "لجنة الكومنترن التنفيذية" يقضون الوقت كله بعد المعالجات الطبية.

كان ابنر يستلقي في إحدى العربتين نصف استلقاء، بينما كان كورتشاغين الذي منع من المشي يستعمل العربة الأخرى. أما الثلاثة الآخرون فقد كانوا: وإيمان الاستوني المكتنز الذي كان يعمل في مفوضية الشعب للتجارة لجمهورية القرم، ومارتا

لاورين اللاتفية وهي امرأة شابة بنية العينين تبدو مثل فتاة في الثامنة عشرة، وليدنيف السيبيري الطويل العملاق ذو الفودين الأشيبين. حقاً إن هؤلاء يمثلون خمس قوميات: ألماني، واستوني، ولاتفية، وروسي، وأوكراني، كان وايمان ومارتا يجيدان اللغة الألمانية. فكان ابنر يستخدمهما كمترجمين. بينما صادقت الغرفة المشتركة بين بافل وابنر. وقربت المعرفة باللغة مارتا ووايمان من ابنر، مثلما قرب الشطرنج بين ليدنيف وكورتشاغين.

كان كورتشاغين قبل مجيء ليدنيف "بطل" الشطرنج في المصحة. وقد انتزع هذا اللقب من وايمان بعد نضال عنيد من أجل الأولوية. وخسر وايمان وقد أفقدت هذه الخسارة الأستوني الفاتر توازنه. وظل وقتاً طويلاً غير قادر على أن يغفر لبافل هزمه له. ولكن سرعان ما جاء إلى المصحة عجوز طويل، تبدو عليه وهو في سنه الخمسين، مسحة من الشباب غير اعتيادية، واقترح على كورتشاغين أن يلعب معه، وبدأ بافل حركته الأولى ببيدق الملكة مطمئن البال غير متوجس خطراً من ملاعبه. فرد ليدنيف على ذلك بتحريك بيادقه الوسطى. وكان على بافل "كبطل" أن ينازل كل لاعب شطرنج ينزل المصحة، وكان كثير من الناس يجتمعون دائماً لمشاهدة هذه اللعب. بعد الحركة التاسعة عرف بافل أن بيادق ليدنيف المهاجمة بهدوء تسحقه. وأدرك أن أمامه منافساً خطيراً، ولم يكن من الصائب أن يستخف باللعبة هذا الاستخفاف.

بعد معركة دامت ثلاث ساعات كان بافل مضطراً إلى الاستسلام على الرغم من كل ما بذل من جهد وعناء، وكان قد

رأى هزيمته قبل غيره من المحيطين به.

نظر بافل إلى مُلاعبه، وابتسم ليدنيف ابتسامة أبوية حنون. من الواضح أنه أيضاً رأى هزيمة بافل. ولم يكن الاستوني قد لاحظ شيئاً وهو يراقب اللعبة بانفعال ومن دون أن يخفي رغبته في هزيمة كورتشاغين.

ـ أنا دائماً أصمد حتى آخر بيدق ـ قال بافل، وهز ليدنيف رأسه في الجواب مصدقاً على هذه العبارة المفهومة له وحده.

لعب كورتشاغين مع ليدنيف عشر لعبات خلال خمسة أيام، خسر في سبع منها، وكسب في اثنتين، وتعادل في واحدة.

قال وايمان متهللاً:

ـ شكراً، يا رفيق ليندنيف! هزمته هزائم حلوة هذا ما يستحقه! أطاح بنا جميعاً نحن شيوخ الشطرنج، ولكنه انهزم على يد شيخ. ها ـ ها ـ ها!...

ـ كيف طعم الهزيمة؟ غير لذيذ؟ ـ سأل الاستوني غالبه المغلوب يريد أن يغيظه.

فقد كورتشاغين لقب "بطل" ولكنه مقابل هذا الشرف التافه وجد في ليدنيف شخصاً أصبح في ما بعد قريباً منه وعزيزاً عليه. لم تكن هزيمة كورتشاغين في رقعة الشطرنج مصادفة. فقد كان لا يعرف غير استراتيجية سطحية للعبة الشطرنج، وقد خسر على يد ماهر يعرف كل أسرار اللعبة.

وجد كورتشاغين وليدنيف نفسيهما مشتركين في تاريخ واحد، فقد ولد كورتشاغين في العام نفسه الذي دخل فيه

ليدنيف إلى الحزب. كان كلاهما ممثلين نموذجين لرعيل الشيوخ والشباب من البلاشفة. للأول تجربة حياتية وسياسية كبيرة، وأعوام من النضال السري، والسجون القيصرية، ومن ثم سنوات العمل الكبير في الدولة، وللثاني شباب ملتهب، وثمانية أعوام من الكفاح لا غير، ولكنها أعوام بمقدورها أن تحرق أكثر من حياة. وكان لكليهما الشيخ والشاب ـ قلب فوّار، وصحة عليلة.

في المساء كانت غرفة ابنر وكورتشاغين تتحول إلى نادٍ، ومنها كانت تخرج جميع الأنباء السياسية. وفي المساء يعلو الضجيج في الغرفة رقم ١١. في العادة كان وايمان يحاول أن يحكي إحدى النوادر الفاحشة التي كان ولوعاً بها، ولكنه كان يقع في الحال بين نارين ـ مارتا وكورتشاغين. كانت مارتا تجيد تبضيعه بسخرية دقيقة لاذعة. وحين لا تجدي هذه يتدخل كورتشاغين.

ـ كان عليك أن تسألنا يا وايمان، فقد تكون "ظرافتك" لا تناسب أذواقنا...

ـ بشكل عام، أنا لا أفهم كيف تستسيغ ذلك و.... ـ كان كورتشاغين يبدأ الحديث بلهجة منفعلة.

وكان وايمان يمط شفته الممتلئة، وتجول عيناه الضيقتان على الوجوه بنظرة ساخرة.

ـ يقتضي تشكيل قسم لمراقبة الأخلاق لدى الدائرة الرئيسة للتنوير السياسي، واقترح تعيين كورتشاغين كبير المراقبين فيه. أنا أستطيع أن أفهم مارتا المتطبعة على المعارضة النسائية المهنية. ولكن كورتشاغين يريد أن يبدو صبياً بريئاً، طفلاً كومسومولياً

بشكل من الأشكال...

وأنا على العموم لا أحب أن تعلم البيضة الدجاج. بعد مثل هذا الجدال المثير عن الخلق الشيوعي وضعت قضية النوادر الفاحشة للمناقشة المبدئية. وترجمت مارتا لابنر وجهات النظر.

قال آدم ابنر:

ـ النوادر الفاحشة ليست جيدة جداً. أنا متضامن مع بافلوشا.

واضطر وايمان إلى التراجع. حاول قدر إمكانه أن يهون الأمر بنكته، ولكنه تخلى عن رواية النوادر بعد ذلك.

كان كورتشاغين يظن مارتا كومسومولية. فقد خمن من النظر إليها أنها في التاسعة عشرة. وكم كانت دهشته عظيمة حين عرف أثناء حديث معها أنها عضو في الحزب منذ عام ١٩١٧، وأنها الآن في الحادية والثلاثين من عمرها، وأنها كانت من النشطاء العاملين في الحزب الشيوعي اللاتفي. وفي عام ١٩١٨ حكم البيض عليها بالإعدام رمياً بالرصاص، وعقب ذلك حولت إلى الحكومة السوفييتية مع رفاق عدّة آخرين، وهي الآن تعمل في "برافدا". وفي الوقت نفسه كانت تتم الدراسة في معهد عال. لم يفطن كورتشاغين كيف بدأ التقارب بينهما غير أن اللاتفية الصغيرة التي كانت غالباً ما تتردد على ابنر أصبحت جزءاً لا ينفصل من "الخمسة".

كان اغليت اللاتفي الذي يعمل في التنظيم السري يمزح معها بخبث:

ـ مارتا، أين سيذهب أوزول المسكين في موسكو؟ لا يجوز ذلك!

في الصباح، قبل دقيقة من دق الجرس، كان يرتفع في المصحة صياح ديك جهير الصوت. كان ابنر يقلد الصوت بشكل مثالي. وقد خابت جهود مستخدمي المصحة كلها في العثور على هذا الديك الذي لا يعرف أحد كيف انسل إلى المصحة. وكان ابنر يجد في ذلك سروراً كبيراً.

في نهاية الشهر الأول من الإقامة شعر بافل بأن صحته قد تردت. فأمره الأطباء بملازمة الفراش. حزن ابنر لذلك كثيراً. فقد أحب هذا البلشفي الشاب المستبشر بالحياة، الصابر الذي لم يكتئب أبداً، والمالك لطاقة فوارة والفاقد لعافيته في هذه السن المبكرة.

عندما أخبرت مارتا ابنر بأن الأطباء يتوقعون لكورتشاغين مستقبلاً فاجعاً تأثر ابنر تأثراً شديداً.

منع الأطباء كورتشاغين من مغادرة الفراش طوال إقامته في المصحة.

استطاع بافل أن يخفي عذاباته عن المحيطين به، إلا أن مارتا وحدها أحست بها من شحوب وجهه غير الاعتيادي. وقبل خروجه من المصحة بأسبوع تلقى رسالة من اللجنة المركزية الأوكرانية أبلغ فيها بأن مدة إجازته قد مددت شهرين، وبأنه من غير الممكن، بناء على التقرير الطبي، إعادته إلى العمل في وضعه الحالي.

وأرسلت مع الرسالة نقود.

تلقى بافل الضربة الأولى هذه مثلما تلقى في الزمن القديم ضربات جوخراي وهو يعلمه الملاكمة. في تلك المرة وقع

أيضاً، ولكنه نهض في الحال.

جاءت رسالة غير متوقعة من أمه ذكرت فيها أن لها صديقة قديمة تدعى البينا كيوتسام تسكن في بلدة على الساحل غير بعيد عن يفباتوريا، ورجت ابنها بشدة أن يزور هذه الصديقة التي لم ترها منذ خمسة عشر عاماً. إن هذه الرسالة الطارئة لعبت دوراً كبيراً في حياة بافل.

بعد أسبوع ودع أصدقاء المصحة بافل وداعاً حاراً في المرفأ. عانق ابنر بافل عند الوداع بحرارة، وقبله كأخ. وكانت مارتا قد اختفت، فغادر بافل من دون أن يودعها.

وفي صباح اليوم التالي توقفت العربة التي حملت بافل من المرفأ عند بيت صغير له حديقة صغيرة أيضاً، وأرسل كورتشاغين مرافقه ليسأل عما إذا كانت كيوتسام تعيش هنا.

كانت عائلة كيوتسام تتألف من خمسة أفراد: البينا كيوتسام الأم، وهي امرأة كهلة ممتلئة في عينيها السوداوين نظرة كئيبة مسحوقة، لا تزال على وجهها العجوز آثار جمال سابق، وابنتاها ليليا وتايا، وابن ليليا الصغير، والعجوز كيوتسام المفرط البدانة الشبيه بخنزير مسمن.

كان العجوز يعمل في دكان، والابنة الصغيرة تايا تعمل ما يقع لها من أعمال، وليليا الكبيرة التي كانت كاتبة طابعة انفصلت قبل مدة قصيرة عن زوجها السكير الشقي، وبقيت بلا عمل تقضي أيامها في البيت ترعى ابنها وتساعد أمها في شؤون البيت.

وكان للعائلة ابن آخر، إلا أنه في تلك الأثناء كان في لينينغراد.

استقبلت عائلة كيوتسام كورتشاغين بترحاب، ما عدا العجوز، فقد حدج الضيف بنظرة نكراء حذرة.

قص بافل على البينا بتأن كل ما كان يعرفه مما وقع لعائلته، وخلال ذلك كان نفسه يسأل عن حياة عائلة كيوتسام.

كانت ليليا في الثانية والعشرين، فتاة بسيطة قصيرة الشعر لها وجه عريض صبوح، وثقت ببافل في الحال وثوق الصديق بالصديق، وأطلعته على أسرار العائلة كلها. فعرف بافل منها أن العجوز يستبد بالعائلة استبداداً فظاً، قامعاً كل مبادرة وأقل مظهر لاستقلال الذات، فكان، وهو الضيق الأفق، القصير النظر، المتزمت إلى حد التفاهة، يجعل عائلته تعيش في حالة مستديمة من الهلع، وبذلك كسب نفوراً شديداً من جانب ابنتيه وكراهية عميقة من جانب زوجته التي قضت الأعوام الخمسة والعشرين من حياتهما الزوجية تصارع استبداده. كانت الابنتان تقفان إلى جانب أمهما دائماً، وقد سممت المشاجرات العائلية الدائمة حياتهما.

وبهذا الشكل كانت تنقضي الأيام مملوءة بالتكدرات الصغيرة والكبيرة.

وكان الابن جورج الفظاعة الثانية في العائلة. كان، استنتاجاً مما روته ليليا، متبطلاً نموذجياً في تبطله، متبجحاً ومتعجرفاً، ولوعاً بالطعام الطيب، واللباس الأنيق، مغرماً في شرب الخمرة. بعد أن تخرج جورج ـ الابن المفضل لدى أمه ـ من المدرسة الثانوية طلب منها مالاً للسفر إلى العاصمة، قائلاً:

ـ أنا ذاهب لدخول الجامعة، لتَبِعْ ليليا خاتمها، وأنت

أشياءك. فأنا بحاجة إلى نقود، ولا يهمني من أين تحصلون عليها.

وكان جورج يعرف أن أمه لا ترفض له شيئاً، فاستغل ذلك أنكر الاستغلال. وكان ينظر إلى أختيه باحتقار، متعالياً عليهما يعتبرهما أوطأ منه، وكانت الأم ترسل إلى ابنها كل ما قدرت على اقتناصه من العجوز، والنقود التي تكسبها تايا، أما الابن فبعد أن فشل في الامتحان فشلاً ذريعاً، عاش عيشة ممتعة مع خاله، مثيراً الرعب في قلب أمه ببرقيات يطلب فيها النقود.

لم يرَ كورتشاغين الابنة الصغيرة تايا إلا في ساعة متأخرة من المساء. أخبرتها أمها في المجاز بمجيء الضيف همساً. مدت الفتاة يدها إلى بافل مرتبكة وهي تحييه، واحمرت حتى أذنيها الصغيرتين احمراراً تاماً وهي أمام شاب لا تعرفه. أبقى بافل يدها القوية الجاسية الخشنة في يده قليلاً.

كانت تايا في التاسعة عشرة من عمرها. ولم تكن جميلة، ولكن عينيها البنيتين الكبيرتين وخطا حاجبيها المنغوليين الدقيقين، واستقامة أنفها الجميل، وشفتيها الطريتين العنيدتين أضفت عليها جاذبية، وكان نهداها الغضان اللدنان يبدوان بارزين من وراء بلوزة العمل المخططة.

كانت الأختان تقيمان في غرفتين صغيرتين، كان في غرفة تايا سرير حديدي ضيق، وصوان عرضت فيه مختلف مصنوعات الزينة، ووضعت عليه مرآة صغيرة. وعلى الحائط زهاء ثلاثين صورة وبطاقة بريد مصورة. وعلى النافذة مزهريتان للجيرانيوم الأحمر، والأسطر الوردي الشاحب. وستارة الدنتلا على النافذة

قد شدت بشريط أزرق.

قالت ليليا تمازح أختها:

ـ تايا لا تحب السماح لممثلي الجنس الرجالي بالدخول إلى غرفتها، ولكن انظر، كيف أستثنتك.

في مساء اليوم التالي كانت العائلة تشرب الشاي في النصف المخصص للزوجين العجوزين من البيت. وكانت تايا في غرفتها، ومن هناك كانت تسمع ما يجري من حديث. قلب كيوتسام السكر في قدحه بحركة مركزة، ونظر من فوق نظارته نظرة عداء إلى الضيف الجالس أمامه، وقال:

ـ أنا أشجب قوانين الزواج الحالية. إذا أراد المرء تزوج، وإذا أراد طلق، حرية تامة.

وشرق العجوز وسعل، وبعد أن هدأ أشار إلى ليليا:

ـ ها هي قد تزوجت عشيقها دون إذن، وطلقت من دون إذن. والآن عليَّ أن أطعمها وابنها على الرحب والسعة. قلة حياء!.

احمرت ليليا متكدرة، وأخفت عن بافل عينيها المغرورقتين بالدموع.

سأل بافل من دون أن يخفض عن العجوز بصره المتقد:

ـ وماذا حسب شرعك؟ هل كان عليها أن تعيش مع هذا الطفيلي؟

ـ كان عليها أن تتأكد ممن تتزوجه.

تدخلت البينا في الحديث. فتكلمت مختلجة ضابطة نفسها بصعوبة:

ـ اسمع، يا شيخ، لماذا تفتح هذه الأحاديث في حضور

إنسان غريب؟ بوسعك أن تتحدث عن شيء آخر غير هذا.

التفت العجوز نحوها وثباً.

أنا أعرف ماذا أقول! من أي وقت بدأتم تقدمون الملاحظات على سلوكي؟

في الليل فكر بافل طويلاً في عائلة كيوتسام. لقد جاء إليها عرضاً، ولكنه أصبح مشاركاً في مأساتها من دون قصد. فكر كيف يساعد الأم وابنتيها على التخلص من هذا الجور، إن حياته الخاصة توقفت عن سيرها، وكانت أمامه مسائل لم تحل بعد، والآن صعب عليه أكثر من أي وقت مضى اتخاذ إجراءات حاسمة.

كان هناك مخرج واحد من الأزمة: أن تنفصل الأم وابنتاها عن العجوز انفصالاً نهائياً. ولكن ذلك لم يكن بالأمر البسيط. ولم يكن في وسعه أن يضطلع في هذه الثورة العائلية، فإن عليه أن يغادر بعد بضعة أيام، وقد لا يلتقي بهؤلاء الناس طوال حياته. أليس من الأفضل أن يترك كل شيء يجري في مجراه الطبيعي، ولا يثير الغبار المنفرة. سلبته الأفكار راحة نفسه. أقام في ذهنه عدة خطط، ولكنها جميعاً بدت غير قابلة للتنفيذ.

كان اليوم التالي يوم أحد، وعندما عاد كورتشاغين من البلدة لم يجد في البيت غير تايا.

أما الآخرون فقد خرجوا لزيارة أقاربهم. ذهب بافل إلى غرفتها، وجلس على المقعد تعباً. وسألها:

ـ لماذا لا تخرجين للنزهة والترفيه عن نفسك؟

أجابت تايا بخفوت:

ـ لا أريد الخروج إلى أي مكان.

تذكر بافل الخطط التي فكر فيها ليلاً، وقرر أن يجربها.

دخل الموضوع مباشرة متعجلاً مخافة أن يأتي شخص فيقطع حديثه.

ـ اسمعي، يا تايا، سنتكلم في ما بيننا من دون كلفة. فما حاجتنا إلى تلك المجاملات الصينية؟ أنا سأغادر عن قريب. وقد التقيت بكم في ظرف سيئ، في وقت أعاني فيه أنا نفسي من مشكلة، ولولا ذلك لعالجنا الأمور معالجة أخرى. لو كان هذا قبل عام لرحلنا سوية من هنا. فإن هناك عملاً كثيراً لمثلك ولمثل ليليا! يجب التخلي عن العجوز، فإن من المتعذر إصلاحه. ولكن ليس من الممكن الإقدام على ذلك الآن. أنا نفسي لا أعرف ماذا سيحصل لي. ولهذا السبب أجد نفسي أعزل. فما العمل إذاً؟ سأسعى للعودة إلى العمل. لقد كتب الأطباء عني كل أنواع السفاسف، والرفاق يحملونني على أن أتعالج إلى ما لا نهاية. ولكننا سنغير ذلك هناك. سأراسل أمي، وسنرى كيف ننهي هذا النكد. لن أترككم على أي حال. سوى أن هناك شيئاً واحداً يا تايا، هو أن تقلب حياتكم، وعلى الأخص حياتك، رأساً على عقب. فهل عندك القوة والرغبة في ذلك؟

رفعت تايا رأسها المنكس، وأجابت بصوت خافت:

ـ عندي الرغبة، أما القوة فلا أدري.

كان كورتشاغين يفهم عدم الثقة هذه.

ـ لا بأس، يا تايا! إذا كانت هناك رغبة فمن الممكن تسوية ذلك. والآن أخبريني هل أنت متعلقة بعائلتك كثيراً؟...

لم تجب تايا رأساً، مأخوذة بالمباغتة، ثم قالت أخيراً:

ـ أنا مشفقة على أمي. مزق أبي حياتها كلها، والآن يستنزف جورج كل شيء منها. وأنا أرثي لها كثيراً... على الرغم من أنها لا تحبني حبها لجورج....

في ذلك اليوم تحدثا كثيراً، وقبل مجيء الآخرين بوقت قصير قال بافل لها مازحاً:

ـ غريب أن العجوز لم يدفعك للزواج من أحد!

لوحت بذراعها بذعر شديد:

ـ لن أتزوج. رأيت ما حدث لليليا. لن أتزوج أبداً!

ضحك بافل باقتضاب:

ـ أهذا يعني عهداً قطعته على نفسك طول عمرك؟ وإذا طرأ شاب شاطر، وباختصار فتى طيب، فماذا ستفعلين؟

ـ لا أتزوج! كلهم طيبون ما داموا تحت شباك الحبيبة.

وضع بافل يده على كتفها مجارياً لها:

ـ لا بأس. لا يضيرك أن تعيشي بلا زوج. غير أنك لست رفيقة بالفتيان كثيراً. لطيف إنك لا تشكين في أني أغازلك لأكون خطيباً لك. وإلا لوقعت في داهية ـ ومرر كفه الباردة بأخوة على يد الفتاة المرتبكة.

قالت تايا بصوت خافض:

ـ رجال من مثلك لا يبحثون عن زوجات على شاكلتنا، فأي حاجة لهم بنا؟

بعد أيام عدّة حمل القطار كورتشاغين إلى خاركوف. وقد ودعته في المحطة تايا وليليا والبينا واختها روزا. وعند الوداع

أخذت البينا منه عهداً بأن لا ينسى الفتاتين، وأن يساعدهما في الخروج من الجب. وودعهن وكأنه يودع أقارب له، وكان في عيني تايا دموع. وبقي بافل وقتاً طويلاً عند نافذة العربة يرى المنديل الأبيض في يدي ليليا، وبلوزة تايا المخططة.

نزل بافل في خاركوف عند صديقه بيتيا نوفيكوف غير راغب في مضايقة دورا. استراح قليلاً ثم توجه إلى اللجنة المركزية. وانتظر هناك أكيم، وحين اختلى به، طلب إليه أن يوجهه إلى عمل في الحال. هز أكيم رأسه رفضاً.

ـ لا يمكن القيام بذلك يا بافل! عندنا قرار اللجنة الطبية التابعة للجنة الحزب المركزية حيث كتب: "بالنظر لحالته الصحية السيئة يرسل إلى معهد الأمراض العصبية للمعالجة، وعدم السماح له بالعودة إلى العمل".

ـ وما أكثر ما يكتبون يا أكيم! إنني أرجوك أنت أن تتيح لي الإمكانية للرجوع إلى العمل! هذا التطواف في المستوصفات لا يجديني نفعاً.

رفض أكيم.

ـ لا يجوز لنا خرق القرار، أفهمني يا بافل، إن ذلك خير لك.

إلا أن كورتشاغين أصر إصراراً شديداً حتى اضطر أكيم إلى الرضوخ، والموافقة أخيراً.

في اليوم التالي كان كورتشاغين يعمل في القسم السري لسكرتارية اللجنة المركزية. وقد تصور أن قواه المستنزفة ستعود إليه حالما يبدأ بالعمل.

ولكنه تبين خطأ تصوره منذ اليوم الأول. كان يلازم عمله ثماني ساعات متواصلة من دون أن يتناول طعاماً، لأنه لم يكن يقوى على النزول من الطابق الثالث إلى المطعم المجاور للإفطار والغداء. غالباً ما كانت تتخدر ذراعه أو ساقه. وفي أحيان كان جسمه بكليته يفقد القدرة على الحركة، وترتفع حرارته.

وفي بعض المرات حين كان يحل موعد الذهاب إلى العمل كان يجد نفسه عاجزاً عن النهوض من الفراش، وحين كانت النوبة تزول يتبين في جزع أنه تأخر ساعة كاملة. وفي آخر الأمر جاء يوم نبه فيه إلى تأخره، وأدرك أن ذلك نذير بالشيء الرهيب في حياته ـ عجزه عن العمل.

ساعده أكيم مرتين في نقله إلى عمل آخر، ولكن الشيء المحتوم قد حصل: في الشهر الثاني وقع بافل طريح الفراش. عند ذاك تذكر الكلمات التي قالتها باجانوفا عند الوداع وكتب لها رسالة. وقد جاءت في اليوم نفسه، وعرف منها أهم شيء عنده، أن لا حاجة إلى الإقامة في المستشفى.

ـ يعني أن حالتي جيدة بحيث لا أحتاج إلى علاج ـ حاول أن يمزح، ولكن لم يوفق في مزاحه.

ما أن استرد بعض قواه حتى ذهب إلى اللجنة المركزية، فوجد اكيم متصلباً في هذه المرة. رد بافل على اقتراحه القاطع في دخول المستشفى رداً باتاً:

ـ لن أذهب. لا جدوى من ذهابي. عرفت ذلك من مصادر موثوقة. لم يبقَ إلا شيء واحد: أن أستقيل، وأحصل على راتب تقاعدي. ولكن هذه التمثيلية لن تحصل. لا يجوز لكم إخراجي

من العمل. أنا لم أتجاوز الرابعة والعشرين ولا أستطيع قضاء عمري بدفتر العجز عن العمل، والتنقل من مستشفى إلى آخر، مع معرفتي بأن ذلك بلا طائل. أنتم ملزمون بإعطائي عملاً مناسباً لحالتي. بوسعي أن أعمل في البيت، أو أعيش في مؤسسة... على شرط أن لا أكون كاتب أوراق يسجل أرقام الأوراق الصادرة والواردة... يجب أن يعطيني العمل ما يرضيني حتى لا أشعر بأنني في عزلة.

وظل صوته يزداد انفعالاً وتهدجاً.

أدرك أكيم المشاعر التي تجيش في قلب هذا الفتى الذي كان لاهباً منذ قريب. وأدرك مأساة بافل، وعرف أن الانقطاع عن العمل، والانتقال إلى صفوف المؤخرة العميقة إنما هو الفظاعة بعينها بالنسبة لكورتشاغين الذي وهب حياته القصيرة للحزب، فعزم على أن يفعل كل ما في وسعه.

ـ حسناً، لا تقلق يا بافل. غداً سيعقد اجتماع السكرتارية، وسأطرح قضيتك عليها. أعطيك عهداً بأن أفعل كل ما في مستطاعي.

نهض بافل ثقيلاً، ومد له يده.

ـ هل تستطيع أن تتصور، يا أكيم، أن الحياة سترميني في ركن، وتسحقني؟ ما دام قلبي ينبض ـ وجذب يد أكيم بقوة نحو صدره، فأحس أكيم جلياً بخفقات قلبه الشديدة ـ ما دام قلبي ينبض لا يمكن فصلي عن الحزب. الموت وحده قادر على انتزاعي من الصفوف. تذكر ذلك، يا أخي.

لزم أكيم الصمت، كان يعرف أن هذه العبارة لم تقل حباً

بالكلمات الطنانة، بل هي صيحة مكافح مثخن بالجراح. وكان يدرك أن مثل هؤلاء الناس ليس بمقدورهم أن يقولوا غير هذا القول، وأن يحسوا بغير هذا الإحساس.

بعد يومين أبلغ اكيم بافل بأنه قد سُمح له بأن يتولى عملاً مهماً في تحرير جريدة مركزية، ولكن ذلك يحتاج إلى التأكد من إمكانية الاستفادة منه في الميدان الأدبي. استقبل بافل في هيئة التحرير بترحاب. وجهت إليه مساعدة المحرر التي كانت تعمل في الحزب منذ عهده السري، والعضو في رئاسة لجنة الرقابة المركزية لأوكرانيا، عدة أسئلة:

ـ ما هي درجة تحصيلك العلمي، أيها الرفيق؟

ـ ثلاث سنوات في المدرسة الابتدائية.

ـ ألم تدرس في مدارس الحزب السياسية؟

ـ لا.

ـ هذا لا يهم. يمكن أن يكون الإنسان صحفياً جيداً من دون ذلك. حدثنا عنك الرفيق اكيم. نستطيع أن نعطيك عملاً ليس من الضروري أن تقوم به هنا، بل في البيت، وبشكل عام سنوفر لك الظروف المناسبة. وعلى أي حال أن هذا العمل يحتاج إلى معارف واسعة لا سيما في مجال الأدب واللغة.

ولم يكن ذلك كله يبشر بافل بخير. في نصف الساعة الذي قضى في المحادثة اتضح أن معارفه غير كافية، والمقالة التي كتبها حفلت بأكثر من ثلاثين خطأً في التعبير وغير قليل من الأخطاء النحوية خطت عليها المرأة التي راجعت المقالة بالقلم الأحمر.

ـ يا رفيق كورتشاغين ! عندك بوادر طيبة، وفي وسعك إذا تعهدت نفسك بالمواظبة والتعمق، أن تصبح مشتغلاً في الأدب في المستقبل. ولكن كتابتك الآن ركيكة. يبدو من مقالتك أنك لا تعرف اللغة الروسية، وليس هذا غريباً، فإن الوقت لم يتسع لك للدراسة. ولكننا مع الأسف لا نستطيع استخدامك. إلا أنني أكرر ثانية: إن لك بوادر طيبة. إذا أعيدت كتابة مقالتك، من دون تغيير في محتواها، فإنها ستكون جميلة. غير أننا بحاجة إلى أناس قادرين على أن يعيدوا كتابة مقالات الآخرين.

نهض بافل معتمداً على عصاه، واختلج حاجبه الأيمن.

ـ نعم، أنا متفق معك، فأي أديب أنا؟ كنت وقاداً جيداً، وكهربائياً لا بأس به، وكنت أجيد ركوب الخيل، وتأجيج حماس الكومسموليين. أما لجبهتكم فلست جندياً حسناً.

واستأذن وانصرف.

وكاد يقع لدى انعطافه في الممشى لو لم تمسك به امرأة كانت تحمل محفظة.

ـ ماذا بك، يا رفيق؟ أنت ممتقع الوجه!

ومرت بضع ثوان قبل أن يفيق كورتشاغين على نفسه. وحين أفاق نحى المرأة برفق، وسار متكئاً على عصاه.

منذ ذلك اليوم أخذت حياة كورتشاغين تجنح إلى الانحدار، وأصبح العمل بعيداً عنه فلم يعد من الممكن حتى الإشارة إليه. وأخذت ملازمته للفراش تزداد أكثر فأكثر. أعفته اللجنة المركزية من العمل، وطلبت من قسم الضمان الاجتماعي أن يعيّن راتباً تقاعدياً. وأعطي راتبه التقاعدي مع دفتر العجز عن

العمل. وقدمت له اللجنة المركزية نقوداً وأوراقه الشخصية ومنحته الحق في السفر إلى حيث يشاء. تسلم من مارتا رسالة تدعوه فيها إلى المجيء إليها في موسكو والاستراحة هناك. وكان بافل، قبل هذه الرسالة، قد نوى السفر إلى موسكو، على أمل ضئيل في أن يجد حظاً سعيداً في اللجنة المركزية لعموم الاتحاد السوفييتي، أي أن يجد عملاً لا يتطلب حركة. إلا أنهم اقترحوا عليه العلاج في موسكو أيضاً، ووعدوا بإدخاله في مستشفى جيد ولكنه رفض ذلك.

ومرت سراعاً الأيام التسعة عشر التي عاشها في شقة مارتا وصديقتها ناديا بيترسون. كان يقضي أياماً كاملة وحيداً. كانت مارتا وناديا تخرجان في الصباح وتعودان مساء. فكان بافل يستغرق وقته في المطالعة إذ كانت لمارتا كتب كثيرة. وفي المساء كانت الصديقتان تأتيان مع بعض الأصدقاء.

كانت تأتي من البلدة المرفأ رسائل تدعوه فيها عائلة كيوتسام إلى زيارتها. كانت الحياة تضيّق عليه طوقها، بينما كان هناك أناس في انتظار مساعدته.

في صباح أحد الأيام غادر كورتشاغين بهدوء شقة مارتا في موسكو، وانطلق به القطار جنوباً، إلى البحر حاملاً إياه من الخريف الممطر الرطب إلى جنوب القرم الدافئ. ظل يلاحظ الأعمدة تتراكض مبتعدة وراء النافذة، وكان حاجباه معقودين، وعيناه الداكنتان تنطويان على عناد.

الفصل الثامن

البحر يتلاطم في الأسفل على الصخور الوعرة الجبارة ونسمة جافة تداعب الوجه آتية من تركيا البعيدة. والمرفأ محصور على الساحل بقوس مكسور، مفصول عن البحر بحاجز من الخرسانة. وكان الممر الجبلي يقطع سلسلته عند البحر. وبعيداً إلى الأعلى، في الجبال كانت تتصاعد أدخنة بيضاء تبدو صغيرة، طالعة من أطراف البلدة.

والجو هادئ في المتنزه القديم خارج البلدة. وفي الدروب التي لم تنظف منذ زمان نما العشب وراحت تتساقط ببطء أوراق الاسفندان الصفراء التي أماتها الخريف.

حمل سائق فارسي عجوز بافل من البلدة إلى هذا المكان، ولما أنزل راكبه الغريب لم يتمالك نفسه من أن يسأله:

ـ لما جئت إلى هنا؟ لا فتيات هنا، ولا مسرح. ابن آوى يسير وحده هنا... لا أعرف ماذا ستفعل هنا. دعنا نعود يا سيد يا رفيق!...

دفع كورتشاغين له أجرته، وانصرف العجوز.

المتنزه خالٍ. وجد بافل مصطبة عند صخرة مطلة على البحر، وجلس عارضاً وجهه لأشعة الشمس التي فترت حدتها.

لقد جاء إلى هذا المكان الساكن ليتأمل مجرى الحياة، وما يجب أن يفعل معها. فقد حان أوان استخلاص النتائج، واتخاذ قرار.

منذ وصوله إلى هنا اشتدت التناقضات في عائلة كيوتسام إلى أقصى حدتها. عندما علم العجوز بمجيئه احتدم غيظاً، وأثار في البيت عاصفة مذهلة. وكان من الطبيعي أن يوجه كورتشاغين المقاومة. بوغت العجوز بالمجابهة الشديدة من جانب ابنتيه وزوجته. ومنذ اليوم الأول من عودة كورتشاغين انقسم البيت إلى نصفين متعاديين متكارهين. برشم الباب المؤدي إلى النصف الذي يعيش فيه العجوزان. وخصصت إحدى الغرف الجانبية الصغيرة لكورتشاغين بالإيجار. دفع بافل فلوس الإيجار إلى العجوز مقدماً، وبعد قليل من الوقت بدا العجوز مطمئناً بعض الشيء من انفصال ابنتيه عنه، فذلك يعني أنهما لن تطلبا إعالته بعد الآن.

ظلت البينا، لاعتبارات اللياقة، تعيش مع العجوز في النصف المخصص لهما. ولم يكن العجوز يزور النصف المخصص لابنتيه، كارهاً رؤية الشخص الممقوت له، ومع ذلك كان لهاثه يسمع في الفناء مثل لهاث قاطرة، مظهراً أنه هنا رب البيت .

كان العجوز قبل اشتغاله في الدكان يعرف مهنتين ـ السكافة والنجارة ـ فكان في ساعات فراغه يمارسهما في ورشة أقامها في السقيفة. ولكي يضايق النازل الجديد أسرع في نقل منجره تحت نافذة النازل تماماً، وكان يدق المسامير بضربات شديدة متلذذاً

بذلك. وكان يعرف جيداً أنه يعيق بافل عن القراءة.

"انتظر، فسأخرجك من هنا...." ـ كان العجوز يهمس بذلك مع نفسه.

على مسافة بعيدة، عند الأفق تقريباً خلفت باخرة وراءها أثراً داخناً يبدو مثل لطخة داكنة. وصوت سرب من زمج الماء تصويتاً صادحاً مرتمياً في البحر.

وضع كورتشاغين رأسه بين يديه، واستغرق في تفكير عميق. مرت أمام عينيه حياته كلها من الطفولة حتى أيامه الحاضرة. ترى هل عاش أعوامه الأربعة والعشرين على نحو جيد أم سيئ؟.. استعرض السنين في ذاكرته واحدة بعد أخرى مدققاً فيها مثل قاضٍ عادل، وحكم برضى عميق أنه لم يعش حياته على نحو سيئ ولكنها احتوت على أخطاء غير قليلة ارتكبت عن حماقة وعن حداثة سن وأكثر من كل شيء عن عدم معرفة. والشيء الأهم أنه لم يفوت الأيام العاصفة، ووجد موضعه في النضال الفولاذي من أجل السلطة السوفييتية، فعلى راية الثورة الحمراء بعض قطرات من دمه أيضاً.

لم يخرج من الصفوف إلا حين استنزفت قواه.

والآن وقد أثخنته الجراح، لا يستطيع أن يتمسك في موضعه في خط الجبهة، وليس أمامه إلا مستشفيات المؤخرة. وتذكر كيف أصابت رصاصة محارباً أيام انصبابهم على فرصوفيا. فوقع هذا المحارب تحت حوافر الحصان. وبسرعة ضمد الرفاق الجريح، وسلموه إلى رجال الإسعاف، ومضوا في طريقهم يلاحقون العدو. لم توقف الفصيلة زحفها لفقدانها محارباً. لقد

كان الأمر كذلك في النضال من أجل غاية جلى، ويجب أن يكون كذلك. حقاً كانت هناك استثناءات، فقد رأى أيضاً رماة رشاشات مبتوري السيقان محمولين على عربات. لقد كان هؤلاء يبثون الفزع في قلب العدو، إذ كانت رشاشاتهم تحمل الموت والدمار له. وقد أصبحوا فخر الأفواج لصمودهم الحديدي، وتصويبهم الدقيق. ولكن مثل هؤلاء كانوا ندرة.

ماذا عليه أن يفعل الآن، بعد الهزيمة، حيث لا أمل في الرجوع إلى الصفوف؟ لقد استدرج باجانوفا إلى الاعتراف بأن عليه أن يتوقع في المستقبل شيئاً أسوأ. فما العمل إذاً؟ نهض أمامه هذا السؤال مثل هوة سوداء تهدده.

لأي شيء يعيش إذا كان قد فقد أعز شيء ـ القدرة على الكفاح؟ بمَ يسوّغ حياته الآن وفي الغد الكالح؟ بمَ يملؤها؟ مجرد أن يأكل ويشرب ويتنفس؟ هل يبقى متفرجاً لا حول له يرقب رفاقه يشقون في أرض المعركة طريقهم إلى الأمام؟ يصبح عبئاً على الفصيلة؟ هل يدمر جسمه الذي غدر به؟ رصاصة في القلب، وينتهي كل شيء! استطاع أن يعيش حياة جيدة، فليستطع أن يموت في اللحظة المناسبة. ومن سيدين محارباً تخلص من سكرات الموت؟

تلمست يده مسدس براونينغ الأملس الموضوع في جيبه، وأمسكت أصابعه المقبض بحركة ألفتها. وأخرج المسدس ببطء.

ـ من كان بوسعه أن يفكر بأنك ستصل إلى هذا اليوم في حياتك؟..

تفرست فيه فتحة المسدس بازدراء، وضع بافل المسدس

على ركبته، ولعن نفسه حنقاً.

ـ كل هذه بطولة فارغة، يا أخ! يستطيع أي غبي أن يطلق الرصاص على نفسه دائماً، ومتى شاء، فذلك أجبن وأسهل مخرج من الوضع. إذا صعبت عليك الحياة تستطيع أن تقتل نفسك. ولكن هل حاولت أنت أن تنتصر على هذه الحياة؟ هل جربت كل شيء للخروج من الطوق الحديدي؟ هل نسيت كيف هاجمتم عند نوفوغراد ـ فولينسكي سبع عشرة مرة في يوم واحد حتى انتصرتم في آخر الأمر على الرغم من كل شيء؟ خبئ المسدس، ولا تتحدث بذلك أبداً! وأعرف كيف تعيش حين تصبح الحياة لا تُطاق، واجعلها نافعة.

نهض وسار إلى الطريق، أوصله جبلي في عربته إلى البلدة. وهناك، في أحد مفارق الطريق اشترى الجريدة المحلية، وكان فيها خبر عن انعقاد اجتماع لنشطاء الحزب في البلدة في نادي دميان بدني. وفي ذلك اليوم عاد بافل إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، فقد ألقى في الاجتماع خطاباً من دون أن يعرف أنه سيكون آخر خطاب يلقيه في اجتماع كبير.

كانت تايا لا تزال مستيقظة، استولى عليها قلق من غياب كورتشاغين الطويل. ماذا حصل هل؟ وأين هو؟ رأت اليوم شيئاً قاسياً وبارداً في عينيه اللتين كانتا من قبل حافلتين بالحياة دائماً. كان قليل الكلام عن نفسه، ولكنها شعرت بأنه يعاني من محنة.

دقت الساعة في النصف الذي تسكنه أمها دقتين حين سمعت البوابة تطرق. ألقت السترة عليها، وذهبت لتفتح الباب. كانت ليليا نائمة في غرفتها تتمتم بشيء في نومها.

ـ قلقت عليك ـ همست تايا حين دخل بافل في المجاز، وقد فرحت بعودته .

أجابها بافل في همس أيضاً:

ـ لن يحصل لي شيء حتى أموت، يا تايا. هل ليليا نائمة؟ أما أنا فلا أريد أن أنام مطلقاً. أريد أن أحدثك بشيء عما حدث اليوم. لنذهب إلى غرفتك، وإلا فسنوقظ ليليا.

ترددت تايا، كيف تتحدث معه في هذا الهزيع من الليل؟ ماذا ستظن أمها لو عرفت بذلك؟ ولكن من غير اللائق أن تقول له ذلك، فسيتكدر. عمّ يريد أن يتحدث؟ ذهبت إلى غرفتها وهي تفكر بهذا.

ـ القضية يا تايا، ـ بدأ بافل يتحدث بصوت مكتوم، عندما جلسا في الغرفة المظلمة، متقابلين متقاربين حتى أحست هي بأنفاسه ـ إن الحياة تنعطف بشكل يدهشني بعض الشيء. لقد كنت طوال هذه الأيام بحالة نفسية سيئة. لم يكن واضحاً لي كيف سأواصل حياتي! لم تمر في حياتي أوقات قاتمة قتام هذه الأيام. ولكنني اليوم عقدت اجتماعاً لـ "مكتبي السياسي"، واتخذت قراراً له أهمية جبارة. لا تستغربي من أنني أخبرك به.

أخبرها بما قاساه في الشهور الأخيرة، وبكثير من أفكاره عندما كان في المتنزه خارج البلدة.

ـ هذه هي الحالة، والآن أصل إلى الشيء الأساسي. الاضطراب في العائلة لا يزال في مستهله. يجب الخروج من هنا إلى الهواء الطلق، والابتعاد عن هذا الوكر.

يجب البدء بالحياة من جديد، وما دمت قد تدخلت في

هذا العراك فسأخوض به حتى نهايته. وحياتي وحياتك الشخصية كئيبة الآن. وقد عزمت على أن أصب فيها ناراً. أتفهمين ما معنى هذا؟ هل تكونين صديقتي وزوجتي؟

كانت تايا تصغي إليه بانفعال شديد حتى تلك اللحظة. وعندما سمعت الكلمة الأخيرة جفلت مبهوتة.

ـ أنا لا أريد منك أن تردي اليوم على اقتراحي. فكري كثيراً في كل شيء. لعلك مندهشة من أن تُقال هذه الأشياء من دون أي مقدمات غزلية. لا أنا ولا أنت بحاجة إلى تلك الأقوال الفارغة. أنا أقدم لك يدي يا فتاتي، هذه هي مبسوطة. وإذا وثقت بي فلن يخيب ظنك. عندي كثير مما أنت بحاجة إليه، وبالعكس. وقد قررت أن رباطنا سيستمر حتى تنمين كإنسان حقيقي، وأنا أتعهد بذلك، ولئن لم أفعل أكن تافه القيمة. وحتى ذلك الحين يجب أن لا تُقطع صلتنا. ولكن عندما تكبرين ستكونين متحررة من كل الالتزامات. ومن يدري فقد أصبح منهاراً جسمياً تماماً، فليكن في علمك أنني في هذه الحال لن أربط حياتك.

وبعد أن صمت بضع ثوانٍ تابع كلامه بحرارة ورقة:

ـ والآن أعرض عليك صداقتي وحبي.

ولم يترك أصابعها من يده، وكان مطمئناً، وكأنما ردت عليه بالموافقة.

ـ وأنت لا تتركني؟

ـ الكلمات لا تقيم برهاناً، يا تايا. يبقى أمامك شيء واحد: أن تثقي بأن رجالاً من مثلي لا يخونون أصدقاءهم... شريطة أن لا يخونوني ـ أضاف بافل بمرارة. فردت تايا:

ـ لن أقول لك شيئاً اليوم، كل ذلك كان مفاجأة لي.

نهض كورتشاغين.

ـ نامي، يا تايا، الفجر يوشك أن يطلع، وذهب إلى غرفته واستلقى من دون أن يخلع ملابسه، وما إن مس رأسه الوسادة حتى غفا.

في غرفة كورتشاغين منضدة عند النافذة عليها أكوام من الكتب المستعارة من المكتبة الحزبية، وحزمة من الجرائد، وبعض الدفاتر المكتوبة، وفي الغرفة أيضاً سرير، ومقعدان، وعلى الباب المؤدي إلى غرفة تايا خارطة كبيرة للصين غرزت عليها أعلام حمراء وسوداء. اتفق كورتشاغين مع العاملين في اللجنة الحزبية على أن يزودوه بالمطبوعات من مكتب الحزب، كما وعدوا بأن يبلغوا مدير أكبر مكتبة عامة في البلدة ليرسل له ما يشاء من الكتب. وسرعان ما بدأت الكتب ترد من هناك في طرود كبيرة. كانت ليليا تراقب بدهشة كيف كان بافل يطالع ويكتب منذ الصباح الباكر. وبعد فترة قصيرة للغداء يواصل القراءة والكتابة حتى المساء. وكان يقضي الأمسيات مع الأختين دائماً حيث كان يروي لهما ما قرأ.

وكان العجوز، إذا خرج إلى الفناء بعد منتصف الليل بوقت طويل، يرى دائماً خطاً من الضوء بين مصراعي نافذة الغرفة التي يقيم فيها الساكن الدخيل. وكان العجوز يقترب من النافذة بهدوء ماشياً على أطراف أصابعه، ويراقب من خلال الخصاصة رأساً منكباً على الطاولة.

"الناس نيام، وهذا يحرق الضوء طوال الليل. ويسير في

البيت وكأنه صاحبه. وبنتاي أخذتا تلغطان" ـ كان العجوز يدمدم مع نفسه ضاغناً، وينصرف.

لأول مرة بعد ثمانية أعوام يجد بافل بين يديه هذا القدر من أوقات الفراغ، وبدون أي مهمة. فكان يقرأ بنهم مستجد في المعرفة. وكان ينكب على الدراسة ثماني عشرة ساعة في اليوم. وليس معروفاً الأثر الذي كان سيتركه هذا الجهد في صحته إن لم تقل له تايا ذات مرة بعض الكلمات العرضية:

ـ نقلت الدرج إلى مكان آخر، والآن أصبح من الممكن فتح الباب المؤدي إلى غرفتك. فإذا رغبت في أن تحدثني عن شيء يمكنك أن تأتي إلي رأساً من دون حاجة إلى اجتياز غرفة ليليا.

.... احمر بافل وابتسمت تايا فرحاً فقد تم الوصل.

لم يعد العجوز يرى في منتصف الليل أشرطة الضوء من النافذة الجانبية، وأخذت الأم ترى في عيني تايا فرحاً لم تحسن إخفاءه. وظهرت خطوط باهتة تحت العينين المشعتين من الداخل إمارة على ليالي الأرق. وأخذت أغاني تايا ورنين القيثار تتردد أكثر فأكثر في البيت الصغير.

وتعذبت المرأة المتيقظة فيها من أن حبها بدا وكأنه مختلس. كانت تجفل من كل صوت متوهمة فيه وقع خطوات أمها، وفكرت في قلق ماذا ستجيب لو سئلت لماذا أخذت تغلق باب غرفتها في المزلاج ليلاً. فطن كورتشاغين إلى ذلك فقال لها برقة مهدئاً إياها:

ـ ماذا تخافين؟ نحن، إذا فكرت في الأمر ملياً، أصحاب البيت. فنامي قريرة العين. لا أحد يتدخل في حياتنا.

ضغطت خدها على صدره، وهدأ بالها، وطوقت محبوبها، وغفت. أصغى طويلاً إلى تنفسها، ولم يتململ خوفاً من أن يعكر صفو نومها، وقد تملكه حنان شديد نحو هذه الفتاة التي أمنته على حياتها.

كانت ليليا أول من عرف السبب في الألق الدائم في عيني أختها، ومنذ ذلك اليوم نشأ ظل من الاغتراب بين الأختين، وعرفت الأم، أو بالأحرى حدست. وقلقت. ولم تكن تنتظر ذلك من كورتشاغين.

قالت لليليا ذات مرة:

ـ تايا ليست فتاته، ماذا سيحصل من هذا كله؟

وساورتها الهواجس المقلقة، ولكنها لم تجرؤ على مفاتحة كورتشاغين في الحديث.

أخذ الشبان يترددون على كورتشاغين ، وأصبحت الغرفة الصغيرة تزدحم بهم أحياناً، وكانت أصواتهم تصل إلى مسمع العجوز مثل طنين النحل. وغنوا غير مرة بصوت جماعي:

بحرنا لا يبحر فيه أحد

هادر الموج ليل نهار......

والأغنية التي يحبها بافل:

العالم الشاسع غارق بالدموع....

كانت تجتمع في غرفة حلقة العمال من نشطاء الحزب التي عهدت بها اللجنة الحزبية إلى كورتشاغين بعد رسالته التي طلب فيها أن يوكل إليه عمل دعائي. وعلى هذا النحو كانت تنقضي أيام بافل.

عاد بافل يمسك الدفة بكلتا يديه، ووجه حياته إلى غاية جديدة بعد أن تقلبت تقلبات عدّة حادة. وكان ذلك حلمه في العودة إلى الصفوف عن طريق الدراسة والأدب.

إلا أن الحياة راحت تضع العقبات واحدة بعد الأخرى، وقد قابل هذه العقبات مفكراً في قلق بمقدار أعاقتها له عن بلوغ الغاية.

وفجأة وصل من موسكو جورج الطالب الخائب ومعه زوجته. ونزل عند والد زوجته المحامي، وأخذ يأتي من هناك ليعتصر النقود من أمه.

وسع مجيء جورج شقة الخلاف في العائلة. انحاز جورج إلى جانب أبيه من دون تروٍ، وراح مع عائلة زوجته ذات الميول المعادية للحكم السوفييتي يحوك الدسائس محاولاً إخراج كورتشاغين من البيت وانتزاع تايا منه مهما كلف الأمر.

بعد أسبوعين من مجيء جو حصلت ليليا على عمل في إحدى المناطق القريبة. فكانت تذهب إلى مكان عملها مع أمها وطفلها. وانتقل كورتشاغين وتاي إلى بلدة ساحلية بعيدة.

.... كان أرتيم نادراً ما يتلقى الرسائل من أخيه، ولكنه عندما كان يجد في مكتبه في سوفييت البلدة مظروفاً رمادياً عليه الخط المائل المألوف له كان يفقد رصانته المعهودة، وهو يقرأ صفحات الرسالة، واليوم وهو يفض المظروف فكر برقة خفية:

"آه، يا بافل، لو كنا نعيش على مقربة لأسعفتني بنصائحك يا أخي".

"أرتيم، أريد أن أحدثك عما لاقيته. يبدو أنني لن أكتب

مثل هذه الرسائل لأحد غيرك، فأنت تعرفني، وتفهم كل كلمة. الحياة مستمرة في الضغط عليَّ في جبهة النضال من أجل الصحة".

أتلقى الضربة تلو الضربة. وما أكاد أقف على قدمي إثر واحدة حتى تعاجلني ضربة أخرى ليست أرأف من الأولى، وأرهب شيء هو أنني عاجز عن المقاومة. تبين أن يدي اليسرى بدأت تخونني. وقد صعب علي ذلك، ولكن قدمي لحقتا بها فخانتاني أيضاً، والآن أصبحت، أنا الذي كنت قبل هذا لا أكاد أتحرك إلا في حدود الغرفة فقط، أجد عسراً في الانتقال من السرير إلى الطاولة، ولكن ذلك ليس كل نصيبي من الآلام في أغلب الظن. فأنا لا أعرف ماذا يخبئ الغد لي.

لم أعد أغادر البيت، ولا أرى من النافذة غير قطعة من البحر. أمن الممكن أن توجد مأساة أقسى من مأساة إنسان اجتمع فيه جسد خائن يرفض إطاعته، وقلب بلشفي، ولهفته المتأججة في صدره، لهفته إلى العمل، إليكم، إلى الجيش العامل الزاحف في جميع الجبهات في خضم الاندفاع الحديدي؟..

ما أزال على إيماني بأني سأعود إلى الصفوف، وبأن حربتي ستظهر بين حراب الصفوف المهاجمة. ولا يجوز أن أتخلى عن هذا الإيمان، ولا يحق لي أن أتخلى عنه. علمني الحزب والكومسومول خلال عشر سنين فن المقاومة، وكلمات قائدنا موجهة إليَّ أيضاً: "لا توجد قلاع لا يستطيع البلاشفة الاستيلاء عليها".

حياتي الآن هي الدراسة، كتب وكتب ومزيد من الكتب. وقد أنجزت الكثير يا أرتيم، عكفت على المؤلفات الأساسية للأدب الكلاسيكي. ودرست وأديت امتحانات السنة الأولى في الجامعة الشيوعية بالمراسلة. وفي الأمسيات اشتغل مع حلقة من شبيبة الحزب. وأنا عن طريق هؤلاء الرفاق ارتبط بالحياة العملية للمنظمة الحزبية. ثم هناك تايا وتثقيفها، وتقدمها، وحبها أيضاً، والملاطفات الرقيقة لفتاتي هذه. ونحن نعيش في وئام. وميزانيتنا بسيطة لا تعقيد فيها ـ اثنان وثلاثون روبلاً هو راتبي التقاعدي، وأجرة تايا، وتايا تسير إلى الحزب في الطريق الذي سرت فيه: عملت خادمة في بيت، والآن تعمل غسالة أوان في مطعم (ليست في هذه البلدة صناعة).

قبل أيام أطلعتني تايا باعتزاز على أول بطاقة تفويض من القسم النسائي. وهي بالنسبة لها ليست مجرد قطعة من الكارتون. وأنا أراقب ولادة إنسان جديد فيها، وأساعد على هذه الولادة قدر مستطاعي. وسيأتي وقت، وسيتم بناء مصنع كبير، محيط عمالي يتم تكوينها، وما دمنا هنا فهي تسير في الطريق الممكن الوحيد.

زارتنا أم تايا مرتين، وهي، من دون وعي، تجر تايا إلى الوراء، إلى حياة قائمة على التوافه، ومثقلة بالانعزال الفردي الأناني. جاهدت لأقنع البينا بأن قتامة الأيام التي عاشتها يجب أن لا تلقي ظلها على طريق الفتاة. ولكن كل ذلك كان بلا جدوى. أحس أن الأم ستقف في يوم ما في طريق الفتاة نحو حياة جديدة، وأن الصدام معها لا مندوحة منه. أصافحك.

أخوك بافل".

المصحة رقم ٥ في ماتسيستا القديمة. بناية آجرية من ثلاثة طوابق قائمة على مسطح سوّي على سفح جبل. ونوافذ الغرفة مفتوحة، والنسيم يحمل من الأسفل رائحة العيون الكبريتية. وكورتشاغين وحيد في غرفته، وغداً سيأتي رفاق جدد، وسيكون له شركاء في الغرفة. سمع خارج الغرفة وقع أقدام وصوتاً مألوفاً. بضعة أشخاص يتحدثون، ولكن أين سمع هذا الصوت العالي النبرة، العميق؟ عملت ذاكرته بجهد، والتقطت من زاوية بعيدة اسماً انزوى هناك، ولكنه لم يُنس: "ليدنيف. إنه هو، لا أحد غيره". ناداه بافل واثقاً من حدسه. وبعد دقيقة كان ليدنيف بالقرب منه يهز يده فرحاً.

ـ أنت حي ترزق؟ حسناً، بأي أخبار ستفرحني؟ ولكن أراك قد عزمت على ملازمة السرير عن جد؟ لا أوافق. كن مثلي. الأطباء تكهنوا لي بالقعود عن العمل ولكنني ما أزال صامداً رغماً عنهم. ـ وضحك ليدنيف بطيبة نفس.

لمح كورتشاغين في هذه الضحكة إشفاقاً دفيناً، وظلال كدر.

قضيا ساعتين في حديث شائق. تحدث ليدنيف عن أخبار موسكو. وعرف منه كورتشاغين لأول مرة أهم القرارات التي اتخذها الحزب ـ تطبيق النظام التعاوني في الزراعة، وإعادة تنظيم الريف. وكان يلتهم كل كلمة بنهم.

ـ ظننتك تعمل الآن في منطقة من موطنك أوكرانيا، فإذا أنت مقيم هنا. ولكن لا بأس. لقيت أنا أمر من ذلك. قضيت

زمناً طويلاً طريح الفراش.

والآن انظر إليّ مرفوع القامة. لا يمكن للإنسان الآن أن يأخذ الحياة بيسر. لا يجوز ذلك! وأنا في بعض الأحيان أفكر آثماً بأن من الضروري أن أستريح قليلاً، أن أسترد أنفاسي، فأنا لست في مقتبل العمر، والعمل اثنتي عشرة أو عشر ساعات يجهدني أحياناً. وأفكر في الأمر، بل وأبدأ بمراجعة أموري لأخفف العبء ولكن الشيء نفسه يحصل في كل مرة.

ما إن أبدأ بـ "التخفيف" حتى أجد نفسي قد غرقت في العمل مرة أخرى، حتى أنني لا أعود إلى البيت قبل الثانية عشرة. كلما ازداد سير الآلة ازدادت سرعة عجلاتها، وعندنا تزداد السرعة كل يوم، والذي يحصل هو أننا، نحن الشيوخ، يتعين علينا أن نعيش عيشة الشبان.

مسح ليدنيف جبهته العريضة بكفه، وقال بدفء أبوي:

ـ والآن حدثني عن أمورك.

وأصغى ليدنيف إلى رواية كورتشاغين عما حدث له، واستشعر بافل نظرته المستحسنة الحية.

لفيف من نزلاء المصحة تحت ظل الأشجار الوارفة في زاوية من السطيحة. وكان خريستانف تشرنكوزوف يقرأ "البرافدا" وراء طاولة صغيرة وقد عقد حاجبيه الكثيفين. وكان قميصه الأسود، وقبعته القديمة ووجهه الملوح النحيل الذي لم يحلق منذ وقت طويل، ذو العينين الزرقاوين الغائرتين، كل ذلك ينم عن كونه عامل منجم أصيلاً. إن هذا الرجل ترك المعول قبل اثنتي عشرة سنة مدعواً إلى منصب قيادي في إدارة الإقليم،

ولكنه بدا وكأنه قد خرج من المنجم لساعته، كان ينم عن ذلك مسلكه وطريقة حديثه، والتعابير التي يستعملها.

وتشرنكوزوف هو عضو مكتب اللجنة الحزبية للإقليم وعضو في الحكومة. هدت حيله علة موجعة هي غنغرينا الساق. وكان تشرنكوزوف يكره ساقه الموجعة التي طرحته في الفراش ستة أشهر تقريباً.

كانت الكسندرا الكسييفنا جيغيريفا تجلس قبالته تدخن، وهي غارقة في أفكارها. إنها في السابعة والثلاثين من عمرها، وقد مضى على عضويتها في الحزب تسعة عشر عاماً. وكان رفاقها في عهد النضال السري في بطرسبورغ يسمونها "شوروتشكا المعدنة". وقد عرفت النفي إلى سيبيريا، وهي فتاة في سن اليفاعة تقريباً.

أما الشخص الثالث الجالس إلى الطاولة فهو ميخائيل فاسيليفتش بانكوف. أحنى رأسه الجميل ذا البروفيل الكلاسيكي، وراح يقرأ في مجلة ألمانية معدلاً بين الحين والآخر نظارته الكبيرة ذات الإطار العظمي. كان يوجع القلب مرأى هذا الرجل الرياضي في هيكله، ابن الثلاثين، وهو يرفع بصعوبة قدمه التي لا تطيعه. وميخائيل فاسيليفتش محرر وكاتب يشتغل في مفوضية الشعب للتعليم، وهو يعرف أوروبا ويجيد لغات أجنبية عدّة، وقد استوعب ذهنه معارف كثيرة، وحتى تشرنكوزوف المتحفظ كان يعامله باحترام.

رفع تشرنكوزوف بصره من الجريدة وتنور محياه في الحال.

ـ نعم، إنه كورتشاغين . أحرى بك أن تتعرفي عليه يا

شورا. أقعده المرض عن السير، وحرمنا من الانتفاع بهذا الشاب في المواقع الزنقة، إنه من الجيل الأول من الكومسومول وباختصار إذا ساندناه ـ وقد عزمت أنا على ذلك ـ فسيكون في مقدوره أن يعود إلى العمل.

تسمع بانكوف إلى حديث تشرنكوزوف.

سألت شورا جيغيريفا بالصوت الخافت نفسه:

ـ ما هو مرضه؟

ـ من آثار ١٩٢٠ . عيب في عموده الفقري. وقد تكلمت مع الطبيب. هناك خطر من أن يؤدي العيب إلى شلل تام. يا للمصيبة!

قالت شورا : ـ أنا ذاهبة الآن لأجلبه إلى هنا.

وهكذا بدأ تعارفهم. ولم يكن بافل يعرف أن اثنين منهم ـ جيغيريفا وتشرنكوزوف ـ سيصبحان شخصين عزيزين عليه، وأنهما سيكونان عماده الأول في أعوام استفحال المرض.

... سارت الحياة على منوالها السابق. كانت تايا تعمل، وكورتشاغين يدرس. ما كاد يبدأ العمل مع الحلقة حتى تسربت إليه محنة جديدة من حيث لا يدري. قيد الشلل ساقيه. الآن لا تطيعه غير يده اليمنى. أدمى شفتيه عضاً حين تيقن بعد جهود مضنية من أنه غير قادر على التحرك. أخفت تايا بشجاعة فجيعتها، ومرارة عجزها عن مساعدته.

قال بافل مبتسماً ابتسامة تكفيرية:

ـ يجب أن ننفصل يا تايوشا. لم يكن في بنود رباطنا الانهيار بهذا الشكل. سأفكر اليوم بذلك كما ينبغي.

ولم تتركه يتحدث، وكان من الصعب حبس عبراتها. أجهشت باكية ضاغطة رأس بافل على صدرها.

عرف أرتيم بمحنة أخيه الجديدة، وكتب إلى أمه، فألقت الأم كل ما بين يديها، وسافرت إليه. وأخذ الثلاثة يعيشون سوية. وعاشت الأم مع تايا في وئام.

تابع كورتشاغين دراسته.

في أمسية شتائية كالحة حملت تايا نبأ أول نصر لها ـ بطاقة عضوية ـ سوفييت البلدة. ومنذ ذلك الحين أخذ بافل نادراً ما يراها. بعد نهاية العمل في غسل الأواني في مطبخ المصحة، كانت تايا تذهب إلى القسم النسائي ومن ثم إلى سوفييت البلدة، وأمست تعود في ساعة متأخرة من المساء تعبة ولكنها مفعمة بالانطباعات. كان يقترب يوم قبولها مرشحة إلى عضوية الحزب. وكان تستعد لهذا اليوم بانفعال شديد. ولكن نكبة أخرى وقعت. فعل المرض فعله، التهبت عين كورتشاغين اليمنى بألم كالنار لا يطاق، سرى مفعوله إلى العين اليسرى أيضاً. وأدرك بافل لأول مرة في حياته ما هو العمى.

ـ حجاب داكن يسبل على كل شيء حوله.

دبت في الخفاء عقبة رهيبة كأداء واعترضت طريقه. وكان جزع أمه وتايا لا حد له. أما هو فقد عزم بهدوء بارد:

"يجب أن أنتظر ما سيحدث في المستقبل. فإذا لم تكن هناك إمكانية للتقدم حقاً، إذا شطب العمى كل شيء بُذل للعودة إلى العمل، واستحال الرجوع إلى الصفوف توجب عليّ أن أضع حداً لكل شيء".

كتب كورتشاغين إلى أصدقائه فأجابوه برسائل تحثه على التجلد ومواصلة الكفاح.

في تلك الأيام العصيبة عليه أبلغته تايا فرحة متأججة المشاعر:

ـ أنا مرشحة إلى عضوية الحزب يا بافلوشا.

وتذكر بافل خطواته الأولى إلى الحزب، وهو يصغي إليها تروي له كيف قبلتها الخلية رفيقة جديدة في صفوفها. فقال لها شاداً على يدها:

ـ وهكذا، أيتها الرفيقة كورتشاغينا نؤلف أنا وأنت خلية شيوعية.

وفي اليوم التالي كتب رسالة إلى سكرتير لجنة المنطقة يرجو فيها أن يزوره. وفي المساء توقفت عند البيت سيارة ملطخة بالوحل، وهز يد كورتشاغين اللاتفي الكهل فولمر ذو اللحية التي تغطي وجهه من اللغد حتى الأذنين. قال اللاتفي:

ـ كيف الحال؟ ما هذا التصرف غير اللائق؟ انهض وسنرسلك إلى الريف في الحال. ـ وضحك.

قضى سكرتير اللجنة المنطقية ساعتين عند بافل ناسياً حتى الاجتماع المسائي الذي عليه أن يحضره. ذرع اللاتفي الغرفة مصغياً إلى كلام بافل المنفعل، وأخيراً قال:

ـ دع الحديث عن الحلقة. يجب عليك أن تستريح. ثم يجب أن نتأكد مما أصاب عينيك. ربما لا يزال هناك أمل. هل تسافر إلى موسكو؟ فكر في الأمر...

قاطعه كورتشاغين:

ـ أنا بحاجة إلى بشر، يا رفيق فولمر، أناس أحياء! لا أستطيع العيش في عزلة. أنا الآن بحاجة إليهم أكثر من أي وقت مضى. أرسل لي شباناً، ممن لهم تجارب قليلة. إنهم في القرى يجنحون إلى اليسارية، إلى نظام الكومونة، ويتضايقون من الكولخوز. و الكومسومولي إذا لم تراقب خطواته يحاول غالباً أن يسبق صفه. أنا أعرِف ذلك، لأنني قد مررت بالحالة نفسها.

توقف فولمر:

ـ من أين عرفت ذلك؟ اليوم فقط هذا الخبر من مركز المنطقة.

ابتسم كورتشاغين:

ـ لعلك تتذكر زوجتي؟ بالأمس قُبلت في الحزب. وهي التي حدثتني بذلك.

ـ أهي كورتشاغينا، غسالة الأواني؟ هذه زوجتك؟ ها، وأنا الآن أعرف! ـ وفكر فولمر قليلاً وضرب جبهته بيده، ـ عرفت من سنرسله لك ـ ليف برسينيف. لا حاجة لك إلى رفيق أحسن منه. بل أنتما متشابهان في طبيعتكما. كأنكما محولان عاليا الذبذبة. لعلك لا تعرف أنني كنت كهربائياً ذات مرة، ومن هناك ورثت هذه التعابير والتشابيه. نعم، سيركب ليف جهاز راديو لك. إنه أستاذ في قسم الراديو، وأنا كثيراً ما أسهر عنده حتى الساعة الثانية ليلاً مع سماعاته. حتى أن زوجتي أخذت تسألني مرتابة: أين أخذت تختفي في الليالي، يا إبليس العجوز؟

سأله كورتشاغين مبتسماً:

ـ من هو برسينيف هذا؟

تعب فولمر من ذرع الغرفة، فجلس على مقعد وحكى:

ـ إنه كاتب عدل، ولكنه كاتب عدل مثل راقصة باليه، قبل مدة قصيرة كان ليف يشغل عملاً كبيراً، وقد دخل إلى الحركة الثورية منذ عام ١٩١٢، وإلى الحزب منذ ثورة أكتوبر. وفي الحرب الأهلية خدم في المحكمة الثورية لجيش الخيالة الثاني، وقصع القمل الأبيض في القفقاس. كما كان في تساريتسين، وفي الجبهة الجنوبية، وكان عضواً في المحكمة العسكرية العليا لجمهورية في الشرق الأقصى، وقاسى الكثير، حتى هذّه السل. فجاء من الشرق الأقصى إلى هنا، فشغل في القفقاس منصب رئيس محكمة الولاية، ونائب رئيس محكمة الإقليم. ثم غدرت به رئتاه أخيراً. والآن جاءوا به إلى هنا وهو مهدد بالموت. وبهذا الشكل صار لنا كاتب عدل فوق العادة. إن وظيفته هادئة، ولهذا فهو باقٍ على قيد الحياة، وهنا أعطوا له خلية، ثم انتخب إلى لجنة المنطقة، وأناطوا به مدرسة سياسية قبل أن يتبين الأمر، ثم وضعوه في لجنة الرقابة. هو العضو الدائم لجميع اللجان المهمة في القضايا المشربكة العويصة. وهو بالإضافة إلى هذا كله صياد بري، وهاوٍ مولع بالراديو، بالرغم من أنه ذو رئة واحدة، إلا أن من الصعب عليك أن تصدق بأنه مريض. إنه يتفجر حيوية. أغلب الظن أنه سيموت وهو راكض بين اللجنة المنطقية والمحكمة.

قاطعه بافل بسؤال حاد:

ـ ولماذا أثقلتم عليه بهذا الشكل؟ إنه يعمل عندكم أكثر مما كان يعمل من قبل.

نظر فولمر إلى كورتشاغين بطرف عينيه المتقلصتين:

ـ لو أعطيتك حلقة أو شيئاً آخر فسيأتي ليف ويقول:

ـ "لماذا تثقلون عليه؟ " ولكنه نفسه يقول: "أفضل أن أعيش سنة واحدة في عمل ملتهب على أن أعيش خمسة أعوام مسترخياً في مستشفى". يبدو أننا لا نستطيع أن نحرص على الناس إلا حين نبني الاشتراكية.

ـ هذا صحيح. أنا أيضاً أفضل العيش سنة واحدة، على الاسترخاء خمسة أعوام، ولكننا هنا أيضاً نفرّط بقوانا أحياناً بشكل إجرامي. الآن فقط أدركت أن ذلك لا ينطوي على بطولة بقدر ما ينطوي على عفوية وعدم شعور بالمسؤولية، أخذت الآن فقط أدرك أنه لم يكن لي أي حق في أن أعامل صحتي تلك المعاملة القاسية. تبين لي أن ذلك خالٍ من البطولة. ربما كان بإمكاني أن أقاوم بضع سنوات أخرى لو لم تكن هذه النزعة الإسبارطية الشموس. وباختصار أن مرض الطفولة اليساري هو أحد الأخطار الأساسية عليّ.

"هذا كلام. جرب أن توقفه على قدميه وستجده ينسى كل شيء في الدنيا"، ـ فكر فولمر بذلك ولكنه صمت.

في مساء اليوم التالي جاء ليف إلى بافل. وظل معه حتى منتصف الليل، وقد خرج ليف من صديقه الجديد وهو يشعر بأنه التقى بأخ فقده منذ سنين عديدة.

في الصباح صعد أشخاص إلى سطح البيت، وشدوا هوائي الراديو، بينما انشغل ليف في نصب الجهاز في الشقة وهو يروي حكايات طريفة من ماضيه. ولم يبصره بافل ولكنه عرف، من

وصف تايا، إن ليف أشقر ذو عينين وضيئتين، وقامة رشيقة، وحركات خفيفة، أي مثلما تصوره بافل في خياله في الدقائق الأولى من تعارفهما.

في المساء أضيئت ثلاثة مصابيح راديو في الغرفة، وقدم ليف سماعة الأذن إلى بافل بهيئة انتصار. كانت أصوات متنافرة تملأ الأثير. زقزقت مرسلات الميناء كالطيور، وفي مكان ما (في البحر، كما يبدو قريباً) أرسلت باخرة إشاراتها. وفي هذه الضوضاء من الأصوات والصخب التقط الجهاز، وأرسل الصوت الهادئ الواثق:

ـ هنا موسكو...

جذب الجهاز الصغير إلى هوائيه ستين محطة من محطات العالم. والحياة التي انقطع عنها بافل اندفعت إليه من خلال صفحة السماعة الحديدية، فأحس بأنفاسها الجبارة.

وابتسم برسينيف التعب وقد رأى عيني بافل وقد تألقتا.

أهل البيت الكبير نائمون، وتايا تهمس في نومها قلقة. إنها تعود إلى البيت في ساعة متأخرة تعبة مرتجفة برداً، وبافل لا يراها إلا قليلاً. كلما أوغلت في العمل ندرت عندها أمسيات الفراغ، فيتذكر بافل كلمات برسينيف:

"إذا كانت للبلشفي زوجة، رفيقة في الحزب فإنهما لا يلتقيان إلا قليلاً... وفي ذلك فائدتان: لا يضجر أحدهما من الآخر، ولا وقت للمشاجرة!".

وهل يستطيع أن يعترض؟ كان يجب أن يتوقع ذلك. مرت أيام كانت تايا تكرس فيها كل أمسياتها له. فكانت أمسيات عامرة

بالمزيد من الدفء وبالمزيد من الرقة. ولكنها آنذاك كانت صديقة فقط، زوجة، أما الآن فهي تلميذته ورفيقته في الحزب.

أدرك أنه كلما ترقت تايا قلت الساعات التي تكرسها له، فقبل ذلك كشيء لازم .

وحصل بافل على حلقة من الشبان لتدريسها.

ومن جديد صار البيت صاخباً في الأمسيات. كانت الساعات التي يقضيها بافل مع الشبان شحنة من دفق الحياة.

وفي بقية الوقت كانت الأم تأخذ السماعة منه بصعوبة لتطعمه.

أعطى له الراديو ما سلب العمى - إمكانية الدراسة، وفي هذه اللهفة التي لا تقهر كان بافل ينسى الآلام المبرحة الحارقة لجسده باستمرار، وينسى النار الملتهبة في عينيه، والحياة الشرسة التي لا تلين له.

عندما كان الهوائي يحمل له من موقع بناء مصنع ماغنيتوغورسك للتعدين أخبار مآثر الشبيبة التي نابت عن جيل كورتشاغين وأمثاله تحت راية الكومسومول كان بافل يشعر بسعادة طافحة.

كان يتصور في خياله عاصفة ثلجية ضارية مثل قطيع الذئاب، ونوبات شرسة من زمهرير الأورال. والريح تعول، وفصيلاً من الجيل الكومسومولي الثاني، في وجه العاصفة الثلجية يركب على ضوء المصابيح القوسية الزجاج على سقوف مبانٍ جبارة، منقذاً الورش الأولى لمصنع ضخم من الثلج والبرد. وكانت تبدو صغيرة، إذا قورنت به، المنشأة في الغابة تلك التي

شهدت كفاح الجيل الأول من كومسومولي كييف ضد الزوبعة الثلجية. فقد نمت البلاد، ونما الناس.

وعلى الدنيبر اخترق الماء الحواجز الفولاذية، وتدفق مكتسحاً الآلات والناس. ومرة أخرى اندفع الكومسوموليين للقاء الطبيعة، وبعد معركة ضارية استمرت يومين بلا نوم ولا راحة أجبروا الماء الجامح على العودة إلى ما وراء الحواجز الفولاذية، إلى هذا النضال الزاحف الجبار سار جيل جديد من الكومسومول. وفرح بافل فرحاً عظيماً حين سمع بين أسماء الأبطال اسماً عزيزاً عليه: ايغنات بانكراتوف.

الفصل التاسع

عاشا بضعة أيام في موسكو في غرفة أرشيف تابع لمؤسسة ساعد مديرها بافل في الدخول إلى مستوصف متخصص.

الآن فقط أدرك بافل أن الثبات يسهل كثيراً ويبسط على إنسان يملك شباباً وجسداً قوياً، ولكن التزامه الآن، حين تعتصره الحياة بقبضتها الحديدية إنما هو مسألة شرف.

.... انقضى عام ونصف العام منذ ذلك المساء الذي قضاه كورتشاغين في غرفة الأرشيف، ثمانية عشر شهراً من العذابات المبرحة.

في المستوصف قال البروفيسور افرباخ لبافل بصراحة بأن إعادة البصر لعينيه غير ممكنة. وفي مستقبل غير مسمى، حين يزول الالتهاب ستحاول الجراحة إجراء عملية للحدقتين، ولإيقاف الالتهاب اقترحوا عليه القيام بتدخلات جراحية.

طلب الأطباء موافقة بافل، فأذن لهم أن يفعلوا به كل ما يرونه ضرورياً.

في تلك الساعات التي قضاها بافل على طاولة العمليات، حين كانت المباضع تشرط حلقومه لاستئصال الغدة الدرقية رف الموت بجناحه الأسود عليه ثلاث مرات. إلا أن الحياة تشبثت

به. كانت تايا تجد زوجها بعد ساعات رهيبة من الانتظار ممتقعاً كالميت، ولكنه حي، ورقيق هادئ كما هو دائماً.

ـ لا تقلقي، يا فتاتي، ليس من السهل جداً إزهاق روحي. وسأعيش وأهرج على الأقل نكاية بتقديرات الأطباء العلماء. إنهم صائبون في كل ما قالوه عن صحتي، ولكنهم سيخطئون خطأ كبيراً إذا كتبوا بأنني عاجز كلياً عن العمل. سنرى كيف ذلك.

واختار بافل بعزيمة الطريق الذي عزم على اتخاذه للعودة إلى صفوف بناة الحياة الجديدة.

.... ولى الشتاء وفتح الربيع مصاريع النوافذ، وقرر بافل مع نفسه، بعد أن خرج حياً من آخر عملية، إنه غير قادر على البقاء في المستوصف بعد الآن، لقد كان العيش شهوراً طويلة وسط العذابات الإنسانية وبين أنات أناس ميئوس من شفائهم أصعب بما لا يُقاس من تحمل عذاباته.

وحين اقترح عليه إجراء عملية جديدة له أجاب ببرود وحدة.

ـ لا، هذا يكفيني. أعطيت للعلم قسماً من دمي، أما القسم الباقي فأنا أحتاجه لغرض آخر.

في ذلك اليوم كتب بافل رسالة إلى اللجنة المركزية يرجو فيها أن تساعده على البقاء في موسكو، حيث تعمل زوجته، لأن الاستمرار في تنقله لا يجدي نفعاً. هذه أول مرة يطلب فيها من الحزب مساعدته. ورداً على رسالته أعطى له سوفييت موسكو غرفة، فغادر بافل المستوصف وفي نفسه رغبة واحدة، هي أن لا يعود إليه بعد الآن.

بدت الغرفة المتواضعة في زقاق هادئ متفرع من شارع كروبوتكينسكايا غاية في الترف. وعندما كان بافل يستيقظ ليلاً، كان غالباً لا يصدق بأنه خلف المستوصف وراءه حقاً.

أصبحت تايا عضواً في الحزب، وبقيت، وهي المثابرة على العمل في مكانها في صفوف الصداميين على الرغم من مأساة حياتها الشخصية، فأودع الزملاء ثقتهم بهذه العاملة الصموت فانتخبت عضواً في لجنة المعمل، وقد خفف من آلام بافل اعتزازه بزوجته التي كانت ترتقي وتصبح بلشفية.

زارته باجانوفا أثناء وجودها في مهمة في موسكو، وجرى بينهما حديث طويل، تحدث بافل بحرارة عن الطريق التي يسلكها للعودة في المستقبل القريب إلى صفوف المكافحين.

ولاحظت باجانوفا خيط الشيب في صدغيه، فقالت بنعومة:

ـ أراك قد عانيت الكثير، ولكنك، على أي حال، لم تفقد حماسك المتقد. وماذا تريد أكثر من ذلك؟ جميل منك أن تقرر البدء في العمل الذي أعددت نفسك له خمس سنوات. ولكن كيف ستعمل؟

ابتسم بافل ابتسامة مهدئة:

ـ غداً سيجلبون لي صفحة مشرطة في الكارتون. لا أستطيع الكتابة بدونها، لأن السطر يركب على السطر الآخر. بحثت طويلاً عن مخرج فوجدته ـ جداول مشرطة على كارتون تمنع قلمي من الخروج من حيز السطر المستقيم. إن الكتابة من دون رؤية صعبة ولكنها ممكنة. لقد تأكدت من ذلك. قضيت وقتاً

طويلاً من دون أن أصيب نجاحاً ولكنني الآن بدأت أكتب ببطء، وأخط كل حرف بعناية، والنتيجة جيدة بشكل كافٍ.

وبدأ بافل يعمل.

أزمع على كتابة قصة عن فرقة كوتوفسكي البطلة. وقد خطر العنوان على باله تلقائياً:

"أبناء العاصفة"

ومنذ ذلك اليوم انصبت كل حياته على تأليف هذا الكتاب، وولدت الصفحة ببطء سطراً بعد سطر. نسي كل شيء مغموراً في عالم الصور، معانياً لأول مرة في حياته، من آلام الإبداع، حين تستعصي الصور الساطعة التي لا تنسى، المحسوسة بوضوح شديد، على الظهور على الورق، فتخرج السطور شاحبة لا حرارة فيها ولا عاطفة.

وكان عليه أن يتذكر كل ما كتبه كلمة كلمة. وكان عمله يتوقف حين يفقد خيط أفكاره. وكانت الأم تنظر في ذعر إلى ما يفعله ابنها.

كان يضطر إلى أن يحفظ في ذاكرته صفحات كاملة، بل وفصولاً في بعض الأحيان، فيبدو لأمه أحياناً أن ولدها فقد عقله. وكانت تتردد في الاقتراب منه بينما كان يكتب، إلا إذا التقطت الأوراق المتساقطة، عندئذٍ كانت تقول له بتوجس:

ـ كان من الأفضل أن تنشغل بشيء آخر، يا بافل، وإلا فإنك ستظل تكتب إلى ما لا نهاية....

عند ذاك كان يضحك بكل قلبه من هلعها هذا، مؤكداً للعجوز أنه "لم يضع صوابه" تماماً.

كملت ثلاثة فصول من الكتاب. وأرسلها بافل إلى رفاق قدامى من فرقة كوتوفسكي في أوديسا لتقييمها، وبعد فترة قصيرة تلقى منهم رسالة ضمنوها آراء إيجابية، إلا أن المخطوط فقد في البريد أثناء إعادته إليه. وضاع جهد ستة أشهر. وكان ذلك بالنسبة له صدمة كبيرة. وقد تأسف بمرارة على أنه أرسل النسخة الوحيدة من دون استنساخها. وحدّث ليدنيف عن خسارته.

ـ لماذا لم تلتزم الحذر؟ خفف عنك، لا مرد لما وقع. ابدأ من جديد.

ـ ولكن جهد ستة أشهر سُلب مني يا إينوكنتي بافلوفيتش ! وقد عملت فيها ثماني ساعات في اليوم عملاً مضنياً. اللعنة ثلاثاً على هؤلاء الطفيليين!

سعى ليدنيف إلى تهدئته.

واضطر بافل إلى البدء من جديد. حصل ليدنيف على ورق، وساعده على طبع ما كتبه على الآلة الكاتبة. وبعد شهر ونصف أعيدت كتابة الفصل الأول.

كانت تشاركه في الشقة التي يسكنها عائلة الكسييف. كان الابن الأكبر، الكسندر، يعمل سكرتيراً في اللجنة الكومسومولية لإحدى نواحي المدينة. وكانت لإلكسندر أخت هي فتاة بشوشة في الثامنة عشرة تدعى غاليا تخرجت من مدرسة للتدريب المعملي. أوصى بافل أمه أن تتحدث معها لعلها توافق في مساعدته كسكرتيرة له. ووافقت غاليا برضى كبير. جاءت باسمة مرحبة، وقالت بعد أن عرفت أن بافل يكتب قصة:

ـ سأساعدك بسرور، يا رفيق كورتشاغين، فإن عملك ليس

من نوع كتابة النشرات المضجرة لأبي عن المحافظة على نظافة الشقق.

ومنذ ذلك اليوم صارت أعمال الكتابة تتقدم بسرعة مضاعفة، وأُنجز خلال شهر عمل كثير أدهش بافل نفسه. وساعدت غاليا على تقدم العمل بمساهمتها النشيطة وتجاوبها. كان قلمها يجري على الورق بخشخشة خفيفة، وما كان يعجبها بشكل خاص كانت تعيد قراءته مرات عدّة فرحة فرحاً صادقاً بنجاحه. وكانت في البيت الشخص الوحيد تقريباً الذي كان يؤمن بعمل بافل، فقد كان الآخرون يظنون أنه لن يوفق إلى شيء، وأن بافل يسعى فقط إلى ملء فراغه الاضطراري بشيء ما.

عاد ليدنيف إلى موسكو من مهمة أوفد إليها، وقال بعد أن قرأ الفصول الأولى:

ـ واصل الكتابة يا صديقي، والنصر لنا، في انتظارك أفراح كبيرة، يا بافل، أنا مؤمن إيماناً قوياً بأن حلمك في العودة إلى الصفوف سيتحقق سريعاً، لا تفقد الأمل، يا بني.

وانصرف العجوز راضياً، فقد وجد بافل في حيوية تامة.

كانت غاليا تأتي، ويسير قلمها على الورق، وتنمو السطور متحدثة عن ماض لا يُنسى، وفي تلك الأوقات التي كان بافل يستغرق فيها بأفكاره، ويقع في أسر الذكريات، كانت غاليا تراقب كيف ترف رموشه، وتتغير الانطباعات في عينيه بتغير الأفكار المتدفقة في ذهنه، فكان يصعب عليها أن تصدق بأن هاتين العينين لا تبصران؛ فقد كانت في حدقتيها الصافيتين النقيتين حياة.

في نهاية العمل كانت تقرأ ما سجلته خلال اليوم، فتراه يرهف سمعه إليها مقطب الجبين.

ـ لماذا أنت مقطب، يا رفيق كورتشاغين ؟

فإن ما أمليته جيد!

ـ لا ، يا غاليا، رديء.

وكان يشرع في الكتابة بيده بعض الصفحات غير الموفقة. وعندما كان الورق المقوى المشرّط بأشرطة ضيقة يضايقه، كان يرميه أحياناً ضجراً منه، ويكسر الأقلام حانقاً حنقاً شديداً على الحياة التي سلبته البصر، وتظهر قطرات من الدم على شفتيه المعضوضتين.

وفي نهاية العمل أخذت المشاعر التي حرّمها على نفسه تفلت، أكثر فأكثر، من طوق إرادته اليقظة. وكان قد حرّم على نفسه الأسى وضروب المشاعر الإنسانية البسيطة، مشاعر الدفء والنعومة المحللة لكل إنسان تقريباً، إلا له، فلو أنه استجاب، ولو لواحد منها، فإن العاقبة ستكون فاجعة.

كانت تايا تعود من المعمل في ساعة متأخرة من المساء، وتتبادل مع أمه بضع كلمات بصوت خافت، ثم تأوي إلى فراشها.

تمت كتابة الفصل الأخير، وقضت غاليا بضعة أيام تقرأ القصة على كورتشاغين .

غداً سترسل المخطوطة إلى قسم الثقافة والدعاية التابع للجنة الحزبية لمقاطعة لينينغراد. فإذا حظي الكتاب هناك "بتأشيرة الدخول إلى الحياة" فسيحول إلى دار النشر، وعندئذٍ....

ودق قلبه رهبة. عندئذٍ.... ستبدأ حياة جديدة كسبت بسنوات من العمل المجهد العنيد. سيقرر مصير الكتاب مصير بافل. إذا رُفضت المخطوطة فسيكون ذلك انطفاء آخر شعاع من حياته. وإذا كان الإخفاق جزئياً يمكن إزالته بمزيد من العمل على نفسه، فإنه سيبدأ بمسعى جديد في الحال.

حملت الأم الطرد الثقيل إلى البريد، وجاءت أيام من الانتظار المرهق. لم ينتظر بافل في حياته كلها رسالة بمثل اللهفة المعذبة التي انتظر بها في تلك الأيام. وكان بافل يعيش من بريد الصباح إلى بريد المساء ولزمت لينينغراد الصمت.

وأصبح صمت دار النشر منحوساً وأخذت نذر الخيبة تشتد يوماً بعد يوم واعترف بافل لنفسه بأن حتفه سيكون في الرفض التام لهذا الكتاب.

عندئذٍ ستتعذر عليه الحياة، ينعدم كل مسوغ لها.

في مثل تلك الأوقات كان يتذكر المنتزه المطل على البحر خارج البلدة، ويعيد السؤال على نفسه مرة بعد أخرى:

"هل فعلت كل شيء لتتخلص من الطوق الحديدي، وتعود إلى الصفوف، وتجعل حياتك نافعة؟".

وكان يجيب:

"نعم، يبدو أني فعلت كل شيء!".

بعد أيام كثيرة، حين أصبح الانتظار لا يطاق، صاحت أمه، التي كانت لا تقل قلقاً عن ابنها، صاحت وهي تدخل الغرفةِ:

ـ خبر من لينينغراد!!

كان ذلك برقية من لجنة المقاطعة. بضع كلمات متقطعة على ورقة: "القصة قبلت بترحيب. سنحولها إلى النشر، نهنئك بالانتصار".

تلاحقت خفقات قلبه. هذا هو الحلم المنشود قد تحقق! والطوق الحديدي قد تحطم، وها هو قد عاد ثانية وبسلاح جديد إلى الصفوف، إلى الحياة.

١٩٣٠ ـ ١٩٣٤

خاتمة من دار النشر

التاريخ الإبداعي لرواية

نيقولاي اوستروفسكي

"كيف سقينا الفولاذ"

رواية "كيف سقينا الفولاذ" أول عمل فني يظهر للمؤلف في الصحافة.

يذكر نيقولاي اوستروفسكي في مقالة "عملي في قصة "كيف سقينا الفولاذ"." : "كانت تراودني الرغبة منذ زمن بعيد في وصف الأحداث التي كنت شاهداً فيها، وأحياناً مشتركاً. إلا أن انشغالي في العمل التنظيمي في الكومسومول لم يترك لي وقتاً لذلك، كما أنني لم أعزم على الاضطلاع بهذا العمل ذي المسؤولية الكبيرة".

ولما اضطر اوستروفسكي إلى التخلي عن العمل القيادي في الكومسومول بسبب من حالته الصحية شرع يفكر بشكل جدي في عمل كتابي. قال الكاتب: "لقد وضعت الحياة أمامي مهمة التمكن من سلاح جديد قادر على أن يعيدني إلى صفوف البروليتاريا المهاجمة في كل الجبهات".

وخلال إقامة أوستروفسكي في يفباتوريا ونوفوروسييسك في

عامي (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧) تذكر الكاتب غير مرة، حسب شهادة زوجته، وقائع منفردة من الحرب الأهلية، والنضال ضد المتدخلين في أوكرانيا، وتحدث بشغف عن نجاحات الكومسومولييين البطولية الأولى في جبهة العمل في فترة الترميم. وقد دخلت هذه المادة الواقعية الثرية والمتنوعة في صلب الكتاب المقبل.

في ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٢٧ أعلن أوستروفسكي في رسالة إلى صديقه نوفيكوف: "أنوي كتابة "قصة تاريخية عاطفية بطولية"، وإذا تركت المزاح جانباً فإنني أريد الكتابة عن جد، فقط لا أعرف ماذا ستكون. وأنا أقرأ ليلاً ونهاراً بالمعنى الحرفي لهذه العبارة".

في نهاية العام أتم كتابة قصة غير طويلة عن مقاتلي لواء كوتوفسكي للخيالة، وكان نيقولاي أوستروفسكي قد حارب في صفوف هذا اللواء. وقد أُرسلت المخطوطة إلى الأصدقاء من مقاتلي لواء كوتوفسكي في أوديسا، فتلقى أوستروفسكي منهم ردوداً مؤيدة، إلا أن المخطوطة ضاعت في طريق العودة.

إن الصدى الإيجابي للقصة، ونصائح الأصدقاء القريبين، والشيء الأهم الطاقة التي لا تنفد تلك التي كان يتمتع بها أوستروفسكي نفسه، ورغبته العنيدة في أن يكون نافعاً لوطنه سرعان ما جعله يفكر في البدء بالإعداد الأساسي لعمل كبير جديد. وقد رأى هذا الإعداد في الدراسة قبل كل شيء.

في كانون الأول ١٩٢٧ يدخل أوستروفسكي في قسم الدراسة الخارجية للجامعة الشيوعية المسماة باسم سفيردلوف،

وفي الوقت نفسه ينشغل بالأدب كثيراً، ويقرأ المؤلفات الجيدة في التراث الكلاسيكي الروسي والأجنبي، ويدرس إبداع غوركي، وسيرافيموفيتش، وفورمانوف، وفادييف.

إلا أن اشتداد المرض، وبقاءه الطويل بسبب ذلك في المستشفى آخر دراساته الأدبية. وفي خريف ١٩٣٠ فقط استطاع أوستروفسكي أن يعود إلى عمله. وقد أعلن في رسالة إلى نوفيكوف.

"لي خطة تهدف إلى ملء الحياة بمحتوى ضروري لتبرير الحياة نفسها... أنا شاب معافى جداً... أما كون رجليّ لا تتحركان، وكوني لا أرى شيئاً فإنها غلطة صرف، ونكتة بلهاء شيطانية. ولو أعطيت لي الآن ولو رجلاً واحدة وعيناً واحدة، فسأكون مأخوذ العقل كأي واحد منكم، أيها المندفعون في كل قطاعات بنائنا" (١١ أيلول ١٩٣٠).

تلك هي الحالة النفسية التي كان عليها الكاتب، حين بدأ العمل في رواية "كيف سقينا الفولاذ" بعد أن انتقل إلى موسكو في الدار المرقمة ١٢ في زقاق ميرتفي (زقاق أوستروفسكي حالياً). وكان يصعب على أوستروفسكي الذي فقد بصره أن يكتب كتابة تقرأ، فكان السطر يتداخل في السطر الآخر، والحرف في الحرف.

عندئذٍ فكر أوستروفسكي بالكارتونة المسطرة ذي الفتحات للسطور، حيث كان يسع ٢٥ إلى ٣٠ ورقة، ولكن هذا أيضاً لم يعجل العمل. فبدأ أوستروفسكي يملي الرواية، وكان أقاربه وأصدقاؤه يسجلون النص بإملائه.

في تشرين الأول ١٩٣١ تم الجزء الأول من الكتاب بفصوله التسعة. وأرسلت نسخة من المخطوطة إلى لينينغراد لمناقشتها في الأوساط الحزبية والأدبية، ولتحويلها إلى فرع لينينغراد لدار "مولودايا غفارديا" للنشر، وأعطيت النسخة الثانية إلى هيئة تحرير مجلة "مولودايا غفارديا".

في ٢٢ شباط ١٩٣٢ أعلن أوستروفسكي في رسالة إلى صديقته جيغيريفا:

"أريد أن أعلن لك عن أنباء طيبة من الجبهة الأدبية، بالأمس زارني فيدينيف والرفيق كولوسوف مساعد رئيس تحرير مجلة "مولودايا غفارديا". لقد نُوقشت مخطوطتي في موسكو، واطلع عليها الرفيق كولوسوف أيضاً. وقد جاء إليَّ ليقول "ليست لنا مثل هذه المادة". والكتاب مكتوب بشكل جيد، إن لديك كل المعطيات للإبداع. وقد تأثرت أنا شخصياً في الكتاب، سننشره".

كما قيّمت كارافايفا التي كانت المحررة المسؤولة للمجلة آنذاك عمل الكاتب ا لشاب تقييماً عالياً.

ونُشر الجزء الأول من رواية "كيف سقينا الفولاذ" في مجلة "مولودايا غفارديا" (الأعداد ٤ك و ٥ و٦ و٧ و٨ ـ ٩ لعام ١٩٣٢). الآن صار في وسع نيقولاي أوستروفسكي الحق في أن يقول: "لقد أصبحت مقاتلاً فعلياً" (من رسالة إلى جيغيريفا مؤرخة في ١٠ آذار ١٩٣٢).

وفي تشرين الأول من العام نفسه أصدرت دار "مولودايا غفارديا" للنشر الجزء الأول في كتاب مستقل. وعلى مجلد

الطبعة الأولى رسم الرسام غصناً وحربة. ابتسم أوستروفسكي حين مرر أصابعه، حسب رؤية أقربائه، على الخطوط المضغوطة للرسم وقال إن الرسام فهم فكرة الرواية فهماً صحيحاً: الحياة تُكتسب في النضال. وحفز نجاح الكتاب الأول الكاتب.

في ١ آب ١٩٣٢ كتب اوستروفسكي إلى جيغيريفا من سوتشي حيث نقل بسبب إلحاح الأطباء.

"أبدأ العمل في (المجلد الثاني). سيخرج المجلد الأول في كتاب (مستقل) في نهاية آب". ويعلن في رسالة مؤرخة في ٥ كانون الأول ١٩٣٢ "أعمل كالحصان في الليالي، حيث لا أحد ولا شيء يعيق". وفي نهاية كانون الأول أتم فصلين. وقد كتب في رسالة إلى كارافايفا (في ٢٧ كانون الأول عام ١٩٣٢) "أرسل لكم فصلين منقحين من الجزء الثاني من "كيف سقينا الفولاذ". ". قد تم وأرسل إلى موسكو.

وفي رسالة بعثها إلى رفيقه في القتال بوزيريفسكي (مؤرخة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٣) يكتب "إن حياتي طيبة الآن، تركت المؤخرة، وعدت إلى الجبهة من جديد".

وبدأ الجزء الثاني من الرواية بالظهور في مجلة "مولودايا غفارديا" ابتداء من كانون الثاني ١٩٣٤. وفي هذه السنة صدر مرتين بكتاب مستقل.

في الأول من تموز عام ١٩٣٤ قُبل نيقولاي أوستروفسكي في عضوية اتحاد الكتاب السوفييت، وقد كتب إلى نوفيكوف:

"إن باب الحياة فُتح أمامي على سعته، وتحقق حلمي الغيور ـ أن أكون مساهماً فعالاً في النضال.... شدوا على يدي

بقوة، أيها الرفاق!... واستمعوا كيف يدق قلبي بحرارة.". (٤ نيسان ١٩٣٢).

واستمر أوستروفسكي يعمل في نص رواية "كيف سقينا الفولاذ" حتى الأيام الأخيرة من حياته.

وفي عام ١٩٣٤ بدأ أوستروفسكي بمراجعة جديدة لرواية "كيف سقينا الفولاذ". إنه يصقل اللغة، ويكتب عدداً من المشاهد، والصور، والوقائع.

وانتهت المراجعة الجديدة لنص رواية "كيف سقينا الفولاذ" في النصف الأول من عام ١٩٣٥، وصدرت من دار "مولودايا غفارديا" (نيقولاي أوستروفسكي ـ كيف سقينا الفولاذ ـ من جزئين ـ تطبع بنص المخطوطة الكامل).

وحصلت الرواية على تقييم رفيع من قبل الحكومة والرأي العام السوفييتي. في أول تشرين الأول عام ١٩٣٥ أقرت اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتي منح وسام لينين إلى الكاتب نيقولاي الكسييفيتش اوستروفسكي، النشيط الكومسومولي السابق، الذي اشترك ببطولة في الحرب الأهلية، وفقد صحته في الكفاح في سبيل السلطة السوفييتية، وواصل بنكران ذات، وبسلاح الكلمة الفنية نضاله في سبيل قضية الاشتراكية، وهو مؤلف العمل الموهوب "كيف سقينا الفولاذ" .

وبمناسبة تقليد الكاتب وسام لينين تقوم دار "مولودايا غفارديا" في بداية عام ١٩٣٦ بإصدار طبعة جديدة من رواية "كيف سقينا الفولاذ". ويبدأ أوستروفسكي من جديد في مراجعة

النص. ويدرس بعناية آراء النقاد والقراء، ويفحص نص الكتاب بتشدد أكثر.

وتتم المراجعة في نهاية أيار ١٩٣٦، وفي ١٠ حزيران تتم المصادقة على إرسال الكتاب إلى المطبعة.

وفي الوقت نفسه كان يجري الإعداد لإصدار الرواية في دار "سوفيتسكي بيساتل". (الكاتب السوفييتي).

والطبعة الحالية من رواية "كيف سقينا الفولاذ" هي ترجمة كاملة لآخر طبعة صدرت للكتاب أثناء حياة الكاتب، من دار "مولودايا غفارديا" للنشر (راجع ن. أوستروفسكي ـ كيف سقينا الفولاذ ـ رواية من جزئين. الطبعة الخامسة. "مولودايا غفارديا" موسكو، ١٩٣٦).

المحتويات

"الحياة أعز شيء للإنسان، إنها تُوهب له مرة واحدة، فيجب أن يعيشها عيشة لا يشعر معها بندم معذب على السنين التي عاشها، ولا يلسعه العار على ماضٍ رذل تافه، وليستطيع أن يقول وهو يحتضر: كانت كل حياتي، كل قواي موهوبة لأروع شيء في العالم: النضال في سبيل تحرير الإنسانية".

نيقولاي أوستروفسكي

«الحياة أعز شيء للإنسان، إنها توهب له مرة واحدة، فيجب أن يعيشها عيشة لا يشعر معها بندم معذب على السنين التي عاشها، ولا يلسعه العار على ماض رذل تافه، وليستطيع أن يقول وهو يحتضر: كانت كل حياتي، كل قواي موهوبة لأروع شيء في العالم: النضال في سبيل تحرير الإنسانية.»

نيقولاي اوستروفسكي

ـ عاش نيقولاي أوستروفسكي (١٩٠٤ - ١٩٣٦) حياة قصيرة ولكنها ساطعة. أقعده المرض في السرير وهو شاب في العشرين من العمر بعد الجراح الممضة التي أصيب بها في جبهات الحرب الأهلية، وفقد البصر. وكانت صحته تتردى يوماً بعد يوم. وفي تلك الفترة بالذات بدأ يكتب كتابه الرائع الوضاء الشجاع عن الشباب والحب والكفاح في سبيل الحياة الجديدة. ومعظم شخصيات الرواية لها نماذج واقعية، بينما كانت حياة الكاتب نفسه أساس شخصية البطل الرئيسي ـ بافل كورتشاغين.

لقد غدت رواية «كيف سقينا الفولاذ» الصادرة عام ١٩٣٤ من عيون الأدب السوفييتي، واحداً من أكثر الكتب رواجاً في الخارج. وتحقق حلم نيقولاي اوستروفسكي الذي قال: «إن أروع شيء بالنسبة للإنسان هو أن يغدو كل ما خلقه في خدمة البشر حتى بعد موته».



لوحة الغلاف: فلاديمير ملاغيس

ISBN 978-2-84306-176-9
9 782843 061769